

إيرنست همنجواي

جائزة نوبل ١٩٥٤

حياة فرانسيس ماكومبير القصيرة السعيدة

طبعة ثانية منقحة

ترجمة : سمير عزت نصّار

دار النسر للنشر والتوزيع

إيرنست همنجواي

حياة فرانسيس ماكومبير القصيرة السعيدة

قصص

ترجمة: سمير عزت نصار

طبعة ثانية منقحة

دار النشر للطباعة والنشر

ايرنست همنجواي (١٨٩٩ - ١٩٦١)، جائزة نوبل ١٩٥٤ .

ولـد ايـرنسـت همنجـواي في أوك بارك ـ الينوى في ٢١ / تموز ـ يوليو/ ١٩٨٩ ومات في بيته في كيتشوم ـ آيداهو في ٢ / تموز ـ يوليو/ ١٩٦١ بعد عيد ميلاده الثاني والستين بوقت قصير.

كان والـده طبيبـاً، وأمـه مدرسة موسيقى . وقد كان شغوفاً بالرياضة والصيد . وقد بدأ في الكتـابـة حينمـا كان في المدرسة الثانوية في ١٩١٧ . وبعد أن ترك المدرسة، قرر ألاّ يدخـل الجـامعـة وشغل منصب مندوب في نجمة مدينة كانساس (كانـساس ستي ستار) . وحين دخلت الـولايـات المتحـدة الحرب العالمية الأولى في ١٩١٧ ، حاول التطوع في الجيش، لكنـه رُفض بسبب ضعف نظـره. فتطـوع للعمـل كسـائق سيـارة اسعـاف مع الصليب الأحمـر وأرسـل الى ايطـاليا في نيسان/ ابريل ١٩١٨ . وأصيب بقذيفة نمساوية في رِجْله لكنه استطاع حمل جندي جريح بالرغم من ذلك وعاد به تحت وابل من طلقات الرشاشات ليصل الى مركز القيادة قبل أن ينهار، فمُنح ميدالية الحكومة الايطالية .

وعـاش همنجـواي في باريـس، كعبـة ادبـاء وفنـاني العالم بشكل عام وادباء وفناني أمريكا بوجه خاص، حيث شجعه عدد من الكتاب الأمريكين المغتربين ومن بينهم إزرا باونـد (١٨٨٥ ـ ١٩٧٢) وجيـرتـرود شتـاين (١٨٧٤ ـ ١٩٤٦)، فأصـدر أول كتـاب له: «ثـلاث قصص وعشـر قصـائـد» (بـاريس ١٩٢٢) ونشـر مجموعته القصصية «في زماننا» (بـاريس ١٩٢٤) ثم أتبـع تلك المجمـوعـة بروايـة: «دفقات الربيع» وهي رواية هجائية ساخـرة، يقّلد فيهـا اسلوب شيروود أنديرسون على شكل نقيض (Parody) تذكرنا بنقائض الفـرزدق وجـريـر. وفي عام ١٩٢٦ ، نشـر روايـة: «الشمس تشرق أيضاً» (وتُعرف باسم «المهـرجـان» في طبعتهـا الانجليـزية)، وهي قصة تصوّر ضياع وعقم وعجز جيل ما بعد الحرب العالمية الأولى .

وبعد نـشر روايته «الرجل العجوز والبحر» (١٩٥٢)، بدأ نجمه يعلو، وأحرزت قصته نجاحاً فورياً، فكانت عاملاً من العوامل التي أدت الى منحه جائزة نوبل للآداب في ١٩٥٤.

بعـد ذلـك أصيب نتيجة لتحطم طائرة كان يستقلهـا في نفس السنة بينما كان يقوم برحلة صيـد في أفـريقيـا، وأخـذت صحتـه تسوء أكثر فأكثر، وفشل علاجه من شفائه من إكتئـاب حاد، ممـا أدى الى أن يطلق النـارعلى نفسـهُ في ١٩٦١ في بيتـه في آيـداهـو. فطويت صفحةَ أديب كان شغل العالم كله منذ أن بدأت شهرته تطبق الآفاق قبل منتصف هذا القرن حتى وقت وفاته .

عن ترجمة رواية: إن كنت تملك وإن كنت لا تملك

الصادرة عن دار النسر للنشر والتوزيع ـ عمان

حياة فرانسيس ماكومبر القصيرة السعيدة

* ابرنست همنجواي: حياة فرانسيس ماكومبير القصيرة السعيدة.
* الطبعة العربية الثانية: ١٩٩٠.
* الناشر: دار النسر للنشر والتوزيع
ص.ب ٩١٠٥٨٦ هـ/ ٦٥٩٤٦٠
عمان/ جبل الحسين ـ دوار فراس
عمارة الفيروزة ـ مكتب ١٥.
* التوزيع: دار النسر للنشر والتوزيع.
* هذه الترجمة الكاملة لقصص The Short Happy Life of Francis Macomber & other stories
تأليف Ernest Hemingway
طبعة Penguin Books 1975.

٩ر٨٢٣م
همنـ همنجواي، إيرنست.
حياة فرانسيس ماكومبير القصيرة السعيدة وقصص اخرى
ـ ايـرنست همنجـواي ـ ترجمـة سميـر عزت نصـار. ـ ط٢ ـ
عمان: دار النسر، ١٩٨٩
متعدد الترقيم
ر. أ (١٩٨٩/٨/٥١٥)
١ ـ القصة الأنجليزية ـ العصر الحديث
أ. سمير عزت نصار، مترجم ب. العنوان
(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

رقم الاجازة المتسلسل: ١٩٨٩/٨/٤٦٠

كلمة عن هذه الطبعة

لأن المترجم يقوم بنقل أفكار وأسلوب غيره من لغة غير لغته إلى لغته الأم، فإن دوره لا ينتهي بعد ترجمته لأي كتاب ونشره له. فالمترجم يبذل قصارى جهده في الاقتراب من الكاتب المترجَم عنه وفهمه أكثر فأكثر. وكلما زادت قراءات المترجم لكاتب ينوي الترجمة عنه، كلما زادت معرفته بأعماله: فكراً وموضوعاً وأسلوباً. وحين يترجم المترجم كتاباً لكاتب ما، ثم يترجم كتاباً آخر له، تزداد معرفته بإسلوب ومواضيع ولغة المؤلف، فيصبح من السهل عليه تذليل العقبات التي قد يواجهها أثناء ترجمته. لكن هذه بديهيات في علم/ فن الترجمة ، لا بد أن نذكرها دائماً ونحن نترجم أو نقرأ ما يُترجم.

لقد أقنعتني قراءة مجموعات قصص همنجواي الثلاث التي صدرت في طبعتها الأولى: «رجال بلا نساء»، و«حياة فرانسيس ماكومبير القصيرة السعيدة»، و«في زماننا»، واكتشافي وجود أخطاء مطبعية كثيرة في هذه الكتب المنشورة في طبعتها الأولى، لأنني لم أشرف على تصحيح أخطائها أثناء تنضيد تلك الكتب، أقنعتني بأن تصحيح الأخطاء المطبعية في تلك الكتب، بعد أن شرعتُ في عملية تلك التصحيحات، لا تكفي. وبعد أن رأيت أن التصحيح سيستغرق وقتاً طويلاً ويحتاج إلى مراجعة النص الأصلي لاكتشاف الأخطاء من خلاله، وأثناء تلك العملية التي تطلبت الرجوع المستمر إلى النص الانجليزي الأصلي، اكتشفت بأن ثمة تغييرات لا بد من إجرائها على الترجمة السابقة لتقديم النص الأصلي بلغة عربية سليمة سلسة، ولهدم الحاجز بين النصين: المترجَم والمُترجَم عنه. فبدأتُ أعمل بالترجمة السابقة تغييراً وتبديلاً إلى أن خرجت الكتب الثلاثة في ترجمة جديدة، أكثر منها ترجمة مراجَعة ومنقحة. وقد يقول البعض: ها أنت تعترف بأن ترجمتك السابقة كانت سيئة! . لكن الأمر ليس بهذه البساطة، فالقصد من هذا التصحيح هو الوصول إلى الأفضل، الوصول إلى ترجمة متقنة دقيقة وسلسة. وقد كان يمكنني طبع الكتب الثلاثة، بعد أن نفذت طبعتها الأولى، دون أن أبذل جهداً جديداً في مراجعتها مراجعة دقيقة، طبعها كما كانت في الطبعة الأولى، أسوة بما يفعل الكل، لكنني أصبو إلى الإتقان حتى ولو كلفني ذلك جهداً مضاعفاً كان

يمكنني بذله في ترجمة ثلاثة كتب أخرى ونشرها. فالعبرة في الكيف لا في الكم. وعمل واحد متقن خير من عشرين عملاً مشوّهاً. كما أن الترجمة مسؤولية كبيرة وتحدٍ لكل مترجم وأديب. بل هو عمل متعب وشاق قد يراها البعض أصعب من التأليف. ولا بد أن القارىء يذكر رسالة ميخائيل نعيمة إلى اليازجي عن عمل ميخائيل نعيمة بترجمة أحد أعماله هو نفسه من الانجليزية إلى العربية حيث قال بأنه يلاقي صعوبة كبيرة في ترجمة كتابه من الانجليزية إلى العربية، وهي صعوبة لم يواجهها أثناء تأليفه ذلك الكتاب، وبأنه لو كان ألّف الكتاب من جديد لكان ذلك أهون عليه.

قد يعتبر القارىء هذه الطبعة الجديدة لهذه الكتب الثلاثة ترجمة جديدة، فهي لا تقتصر على تصحيح الأخطاء المطبعية أو تصحيح أخطاء وقع بها المترجم في طبعتها الأولى، بل هي تعيد صياغة جمل وفقرات وتبدّل كلمات وكلمات. ومع ذلك، لنقل عنها: طبعة ثانية منقّحة لصالح العمل المترجَم.

سمير عزت نصار

عمان في ٢٠/ ٩/ ١٩٨٩

حياة فرانسيس ماكومبير القصيرة السعيدة

كان وقت الغـداء قد حل فجلسـوا كلهم تحت رفـرف باب خيمـة الطعـام المزدوج الأخضر متظاهرين بأن شيئاً لم يحدث.

سأل ماكومبير:

ـ هل ستشرب عصير ليم أو عصير ليمون؟

قال روبرت ويلسون:

ـ سأشرب جيمليت.

قالت زوجة ماكومبير:

ـ سأشرب جيمليت أيضاً. أحتاج الى شيء ما.

وافق ماكومبير:

ـ أظن بأننا سنشرب جيمليت. قل له بأن يُعد ثلاث كؤوس جيمليت.

بدأ الصبي المسؤول عن الطعـام يعدها، فأخرج القناني من حقائب القنّب المبرّدة التي رشحت مبتلة في الريح الهابة بين الأشجار المظللة للخيام.

سأل ماكومبير:

ـ كم يجب أن أعطيهم؟

قال له ويلسون:

ـ جنيهاً واحداً، سيكون مبلغاً كبيراً، أنت لا تريد إفسادهم.

ـ هل سيوزعها الرئيس عليهم؟

ـ بلا شك.

قبل نصف ساعة، حُمل فرانسيس ماكومبير الى خيمته من طرف الخيمة على أذرع وأكتاف الطباخ وخادميه وسالخ الطرائد والحمالين مكللاً بالنصر. لكن حاملي البنـادق لم يشـاركـا في المظـاهرة. وعندما أنزله الفتيان الوطنيون عند باب خيمته، صافحهم كلهم، وتلقى تهانيهم ثم دخل الخيمة وجلس على السرير الى أن دخلت زوجته. لم تتحدث اليه حين دخلتْ وغادر هو الخيمة على الفور ليغسل وجهه ويديه في حوض الغسيل في الخارج ثم ذهب الى خيمة الطعام ليجلس على كرسي قنّب مريح في النسيم والظل.

نظـرت السيـدة ماكومبير الى ويلسون نظرة سريعة. كانت امرأة مفرطة الاناقة وحسنـة المظهـر تتمتـع بجمـال ووضـع إجتماعي مرموقين استحقت عليهما خمسة

آلاف دولار. قبل خمس سنوات، كأجر على قيامها بالدعاية المصوّرة لترويج بيع مستحضرات تجميل لم تستعملها هي نفسها قط. وكانت قد انفضت على زواجها من فرانسيس ماكومبير احدى عشرة سنة.

قال ماكومبير:

ـ إنه أسد رائع، أليس كذلك؟

نظرت زوجته اليه الآن. نظرت الى هذين الرجلين كأنها لم ترهما من قبل. كان أحدهما: ويلسون، الصياد الأبيض، وقد عرفت الآن بأنها لم تره على حقيقته من قبل. وكان متوسط الطول تقريباً، له شعر رمليّ اللون وشاربان قصيران خشنان، ووجه أحمر جداً وعينان باردتان وزرقاوان جداً، مع تغضنات بيضاء طفيفة عند ركنيهما حينما يبتسم. إبتسم لها الآن، فحوّلت نظراتها عن وجهه لتنظر الى الطريقة التي تنحني بها كتفاه في ردائه الفضفاض الذي كان يرتديه من الخراطيش الأربع المثبّتة في عُرى، والى حيث يُفترض وجود جيب الصدر الأيسر، والى يديه الكبيرتين السمراوين، والى سرواله القديم، والى جزمته القذرة جداً، ثم عادت الى وجهه الأحمر ثانية، لاحظت المكان الذي ينتهي فيه اللون الأحمر المحروق [illegible] في خط أبيض حدّدته الدائرة التي رسمتها قبعة ستيتسون المعلّقة الآن على [illegible] مشاجب عمود الخيمة.

قال روبرت ويلسون:

ـ حسناً، نخب الأسد.

ابتسم لها ثانية، فنظرت بفضول الى زوجها دون أن تبتسم.

كان فرانسيس ماكومبير طويلاً جداً، حسن البنيان جداً [illegible] طول عظامه تلك. وكان أسمر، وشعره قصير كشعر مجذّفي [illegible] الى حد ما. وكان يُعتبر وسيماً. كان يرتدي نفس [illegible] يرتديها ويلسون إلاّ أن ملابسه كانت جديدة، وكان في [illegible] عمره، محافظاً على لياقته البدنية تماماً، كما كان ماهراً في [illegible] والطائرة، وكان قد سجّل أرقاماً قياسية في صيد السمك، و[illegible] وجيزة وعلانية، على أنه جبان.

قال:

ـ نخبُ الأسد. لن أفيك حقك من الشكر على ما فعلته.

حوّلت زوجته مارجريت نظراتها عنه وأعادتها الى ويلسون.

قالت:

ـ لنكف عن الكلام عن الأسد.

نظر اليها ويلسون دون أن يبتسم فابتسمت له الآن. قالت:

ـ كان يوماً غريباً. هل يجب أن تعتمر قبعتك حتى تحت قماش القنب وظهراً؟ لقد أخبرتني بذلك، كما تعلم.

قال ويلسون:

ـ قد أعتمرها.

قالت له:

ـ أتعرف بأن لك وجهاً شديد الحمرة يا سيد ويلسون.

وابتسمت مرة أخرى.

قال ويلسون:

ـ الشراب.

قالت:

ـ لا أظن هذا. ففرانسيس يشرب كثيراً جداً، لكن وجهه ليس أحمر إطلاقاً.

قال ماكومبير محاولاً إطلاق نكتة:

ـ إنه أحمر اليوم.

قالت مارجريت:

ـ لا. إن وجهي أنا هو الأحمر اليوم. لكن وجه ويلسون أحمر دائماً.

قال ويلسون:

ـ لا بد أنه وراثي. أقول لكِ: ألا تنوين الكفّ عن إتخاذ جمالي كموضوع حديثكِ، ألا تكفي عن ذلك؟

ـ لقد بدأتُ بالحديث عنه الآن فقط.

قال ويلسون:

ـ لنتركه جانباً.

قالت مارجريت:

ـ سيكون الحديث صعباً جداً.

قال زوجها:

ـ لا تكوني سخيفة يا مارجوت.

قال ويلسون:

ـ ليس صعباً. لقد إصطدنا أسداً رائعاً لعيناً.

نظرت مارجوت اليهما ورأى كلاهما بأنها ستبكي. رأى ويلسون بأن هذا كان

سيحصل منذ وقت طويل وكان خشى وقوعه. أما ماكومبير فقد كان قد تجاوز خشية وقوعه.

قالت:

ـ يا ليت هذا لم يحدث. أوه، يا ليت هذا لم يحدث.

ثم انطلقتْ نحو خيمتها. لم تطلق ضجة بكاء، لكنهما رأيا بأن كتفيها كانا يهتزان تحت القميص الوردي غير المنفذ للشمس الذي ترتديه.

قال ويلسون للرجل الطويل:

ـ وعكة نساء. لن تؤدي الى شيء. إجهاد على الأعصاب وتراكم مشكلة فوق الأخرى.

قال ماكومبير:

ـ لا. أظن بأنني سأحسبْ حساباً لهذا طيلة ما بقي من حياتي.

قال ويلسون:

ـ هراء. لنلقِ نظرة على القاتل العملاق. إنسَ الأمر كله. لن يؤثر هذا أدنى تأثير.

قال ماكومبير:

ـ يمكننا أن نحاول. لكن، لن أنسى ما فعلتَه من أجلي.

قال ويلسون:

ـ لا شيء. كله هُراء.

وهكذا جلسا هناك في الظل حيث نُصبتْ الخيمة تحت أشجار السنط الوارفة بينما انتصب وراءهما جرف مكسو بصخور ضخمة وامتدت أمامهما بقعة عشبية حتى ضفة جدول ماء مليء بصخور جلمودية كبيرة، وترامت خلفها غابة، وشربا عصير الليم البارد وتجنبا عينيّ بعضهما بعضاً، بنيما كان الخادمان يعدّان الطاولة للغداء. كان بوسع ويلسون الاحساس بأن جميع الخدم كانوا قد عرفوا بما حدث الآن. فأطلق على خادم ماكومبير الشخصي بضع كلمات بالسواحلية حين رآه ينظر بفضول الى سيدة بينما كان يضع الأطباق على الطاولة. فأشاح الخادم بوجه خاو.

سأل ماكومبير:

ـ ما الذي كنتَ تقوله له؟

ـ لا شيء. طلبتُ منه أن ينشط بالعمل وإلا نال خمس عشرة من أفضل الأنواع.

ـ ماذا؟ جلدة؟

قال ويلسون:

ـ إنه عمل قانوني تماماً. مَن المفروض أن تعاقبهم.

ـ الا زلت تجلدهم؟

ـ أوه، نعم. يمكنهم أن يقيموا الدنيا ويقعدوها إذا بدأوا بالشكوى. لكنهم لا يفعلون هذا. إنهم يفضلون ذلك على الغرامات.

قال ماكومبير:

ـ يا له من أمر غريب.

قال ويلسون:

ـ ليس غريباً بالحقيقة. أيهما تفضل: أن تُجلد أم تفقد أجرك؟

ثم شعر بالحرج لطرحه هذا السؤال، وقبل أن يتمكن ماكومبير من الاجابة، تابع ويلسون قائلاً:

ـ كلنا يذوق طعم الضرب يومياً، بطريقة أو بأخرى كما تعرف.

لم يكن هذا الكلام خيراً من سابقه. فكر: «يا الهي، أنا دبلوماسي، أليس كذلك؟».

قال ماكومبير وهو لا يزال مشيحاً بنظره عنه:

ـ نعم. كلنا نتلقى ضرباً. أنا آسف جداً لموضوع الأسد ذلك. يجب ألاّ يصل إلى أبعد من هنا، أليس كذلك؟ أعني بأن أحداً لن يسمع شيئاً عنه، أليس كذلك؟

ـ تعني: هل سأتحدث عن هذا في ماثايجا؟

نظر اليه ويلسون الآن ببرود. لم يكن يتوقع هذا. فكر: ما هو إلاّ رجل مؤلَّف من أربعة حروف* إضافة الى أنه جبان دموي. لقد أحبته قليلاً أيضاً حتى اليوم. لكن، كيف يمكن للمرء أن يفهم أمريكياً؟

قال ويلسون:

ـ لا. أنا صياد محترف. نحن لا نتحدث عن زبائننا أبداً. يمكنك أن تطمئن تمام الاطمئنان بالنسبة الى ذلك. من المفروض أن يكون طلبك ألاّ نتحدث عن ذلك تصرفاً سيئاً.

فكر بأن قطع علاقته به الآن سيكون أسهل جداً. سيتناول الطعام وحده، وسيكون من الممكن أن يقرأ كتاباً مع وجباته. وسيتناولان الطعام وحدهما وسيراهما خلال رحلة الصيد على أساس رسمي فقط ـ كيف يدعو الفرنسيون وضعاً كهذا؟ اعتبارات متميّزة ـ سيكون مشهداً لعيناً أسهل من تورطه بهذه النفاية العاطفية. سيهينه وينهي العلاقة بطريقة جيدة ونظيفة. وحينذاك، سيكون باستطاعته قراءة كتاب مع وجباته وسيواصل شرب ويسكيهما. ذلك هو التعبير عن الوضع حين يسوء

* كلمة من أربعة حروف هنا تعني pimp وهي بمعنى قوّاد. (المترجم).

الحال أثناء رحلة صيد. تصادف صياداً أبيض آخر وتسأله: «كيف تسير الامور؟» ويجيب: «آه. ما زلت أشرب ويسكيّهم». وتعرف حينذاك بأن الأمور ساءت تماماً.

قال ماكومبير:

ـ أنا آسف.

ونظر اليه بوجهه الأمريكي الذي سيبقى مراهقاً الى أن يبلغ منتصف العمر، ولاحظ ويلسون شعره الذي يشبه قصّة البحّارة القصيرة وعينيه الجميلتين الماكرتين قليلاً وأنفه الجميل وشفتيه الرقيقتين وفكه الجميل.

ـ أنا آسف. لم أعرف ذلك. هناك الكثير من الأشياء التي لا أعرفها.

فكر ويلسون: ماذا يمكنه أن يفعل. كان على إستعداد كامل لأن يقطع هذه العلاقة بسرعة وبراعة، لكن هذا المتسول يعتذر الآن بعد أن أهانه. قام بمحاولة أخرى.

قال:

ـ لا تقلق حول حديثي عن هذا. فلدي رزق أريد أن أكسبه وأنتَ تعرف بأنه ليس في أفريقيا امرأة تخطىء في إصابة أسدها وليس فيها رجل أبيض يفر هارباً إطلاقاً.

قال ماكومبير:

ـ لقد فررتُ أنا كأرنب.

تساءل ويلسون: الآن، ما الذي ستفعله برجل يتكلم بتلك الطريقة بحق الجحيم.

نظر ويلسون الى ماكومبير بعينيه الزرقاوين الباردتين، عيني مدفعيّ، ورد الآخر على ابتسامته. كانت ابتسامة سارّة إنْ لم تلحظ كيف تبدو عيناه حين تجرح أحاسيسه.

قال:

ـ ربما أستطيع أن أعوّض هذا بـ«بافالو». سنطارده في المرة القادمة، أليس كذلك؟

قال له ويلسون:

ـ في الصباح، إنْ شئت.

ربما يكون مخطئاً. هذه هي الطريقة التي يجب أن تأخذ بها الأمر. لن تستطيع أن تعرف شيئاً لعيناً عن أمريكي. لقد أصبح في صف ماكومبير قلباً وقالباً ثانية. لو أمكنك أن تنسى الصباح. لكن، لن تستطيع أن تنساه طبعاً. لقد بلغ الصباح السوء الذي بلغوه تقريباً.

قال:

ـ ها هي الممصاحب قادمة.

كانت تسير من خيمتها وقد بدت نضرة سعيدة وفاتنة تماماً. كان وجهها بيضاوياً ودقيقاً جداً، دقيقاً دقة تحملك على الظن بأنها غبية. فكر ويلسون: لكنها ليست غبية. لا. إنها ليست غبية.

ـ كيف حال السيد ويلسون الجميل أحمر الوجه؟ أتحسنت حالتك يا فرانسيس يا لؤلؤتي؟

قال ماكومبير:

ـ أوه. كثيراً.

قالت وهي تجلس الى الطاولة:

ـلقد أسقطت الموضوع كله من حسابي. ما أهمية أن يكون فرانسيس ماهراً في قتل الأسود؟ تلك ليست مهنته. تلك مهنة السيد ويلسون. إن السيد ويلسون مؤثر حقاً في قتل أي شيء. أنت تقتل أي شيء، أليس كذلك؟

قال ويلسون:

ـ أوه أي شيء. ببساطة: أي شيء.

فكر: إنهن أصعب الخلق في هذا العالم. أصعب الخلق وأقساهن وأكثرهن ضراوة وجاذبية بينما يرّق رجالهن أويتناثرون قطعاً بعصبية وهنَّ يقسون. أوأنهن يلتقطن الرجال الذين يستطعن التعامل معهم؟ فكر: انهن لا يعرفن الى ذلك الحد الكبير من هذا وهنَّ في سن الزواج. كان ممتناً لأنه كان قد أنهى تعليمه عن النساء الأمريكيات وتعامله معهن قبل الآن لأن هذه المرأة كانت جذابة جداً.

قال:

ـ سنطارد «البافالو» في الصباح.

قالت:

ـ سآتي.

ـ لا. لن تأتي.

ـ أوه. نعم. سآتي. أليس كذلك يا فرانسيس؟

ـ لِمَ لا تبقين في المخيم؟

قالت:

ـ لن أفعل هذا مقابل أي شيء. لن يفوتني شيء كاليوم مقابل أي شيء.

عندما غادرتهما كان ويلسون يفكر: عندما تركتنا لتبكي بدت إمراة جميلة

جمالاً باهراً. بدت كأنها تفهم، تدرك، تتألم من أجله ومن أجل نفسها، وتعرف كيف تسير الأمور حقاً. لقد غابت مدة عشرين دقيقة وها هي تعود الآن، مطلّيةً بتلك القسوة الأنثوية الأمريكية بكل بساطة. إنهن ألعن النساء قاطبة. إنهن ألعنهن حقاً.

قال فرانسيس ماكومبير:

ـ سنعد عرضاً آخر لكم غداً.

قال ويلسون:

ـ لن تأتي.

قالت له:

ـ أنتَ مخطىء تماماً. أرغب رغبة عارمة في أن أراك تقوم بأنجازاتك مرة أخرى. كنتَ مدهشاً هذا الصباح. ذلك إنْ كان تفجير رؤوس الحيوانات عملاً مدهشاً.

قال ويلسون:

ـ ها هو الغذاء جاهز. أنت مرحة جداً، أليس كذلك.

ـ لِمَ لا؟ لم أحضر هنا لأقضي وقتاً مملاً.

قال ويلسون

ـ حسناً، لم يكن وقتاً مملاً.

كان بوسعه أن يرى الصخور في النهر والضفة العالية وراءها مع الأشجار التي تغطيها، فتذكر الصباح.

قالت:

ـ أوه. لا. لقد كان ساحراً. وغداً. أنتَ لا تعرف مدى توقي للغد.

قال ويلسون:

ـ ذلك اللحم الذي يقدمه اليك هو لحم العلند.

ـ العلند: تلك الحيوانات البقرية الكبيرة التي تقفز كالأرانب البرية، أليس كذلك؟

قال ويلسون:

ـ أظن أن تلك هي أوصافها.

قال ماكومبير:

ـ إنها لحم طيب جداً.

سألت:

ـ هل إصطدتها يا فرانسيس؟

ـ نعم.

ـ إنها ليست خطيرة، أليس كذلك؟

قال ويلسون لها:

ـ إلاّ إذا إنقضَتْ عليك.

ـ أنا مسرورة جداً.

قال ماكومبير وهو يقطع شرائح العلند ويضع البطاطا المهروسة ومرق اللحم والجزر على الشوكة المقلوبة التي تخللت قطعة اللحم.

ـ لِمَ لا تكفّي عن الغمز واللمز حتى ولو قليلاً يا مارجوت؟

قالت:

ـ أظن بأنه يمكنني فعل هذا، ما دمتَ تعبّر عنها على هذا النحو الجميل.

قال ويلسون:

ـ سنشرب الليلة الشمبانيا نخب الأسد. إن الطقس بارد جداً عند الظهر.

قالت مارجوت:

ـ آه، الأسد. لقد نسيتُ الأسد.

فكر روبرت ويلسون لنفسه: ها هي تفتح أمامه باباً، أليس كذلك؟ أوترى بأن هذه هي طريقتها بتقديم عرض ممتع؟ كيف تتصرف امرأة حين تكتشف بأن زوجها جبان دموي؟ إنها قاسية جداً، ولكنهن كلهن قاسيات. إنهن يحكمن طبعاً، ولا بد أن يكون الأنسان قاسياً حين يحكم أحياناً. لكنني رأيتُ ما يكفي من إرهابهن اللعين.

قال بأدب:

ـ خذي المزيد من لحم العلند.

في ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم، خرج ويلسون وماكومبير في سيارة مع السائق الوطني الأفريقي واثنين من حاملي البنادق. وبقيت السيدة ماكومبير في المخيم. قالت بأن الطقس حار جداً على الخروج، وبأنها ستذهب معهم في الصباح الباكر. وفيما كانوا ينطلقون بالسيارة، رآها ويلسون تقف تحت الشجرة الكبيرة وقد بدت مليحة أكثر منها جميلة في ملابس الخاكي الوردية الفاتحة، وشعرها الداكن مُزاح بعيداً عن جبينها ومجمّع عقدة واطئة على رقبتها. وفكر: وجهها نضر كما لو كانت في انجلترا. لوّحتْ بيدها لهم والسيارة تبتعد عبر منخفض مستنقعي مكسو بعشب عال ثم تنعطف عبر الأشجار الى داخل تلال صغيرة لأجمة بستانية.

رأوا بين الأجمة البستانية قطيعاً من بقر الوحش، وبعد أن نزلوا من السيارة طاردوا كبشاً كبيراً له قرون طويلة منتشرة وقتله ماكومبير بطلقة جديرة بالاكبار أطاحت

بالوعل وطرحته أرضا على بعد مائتي يا ردة وحملت القطيع على الفرار مبتعداً ضاربا الأرض بوحشية وقافزاً، الكبش فوق ظهر الآخر، قفزات طويلة ومرفوعة الأرجل الى الأعلى بطريقة لا تصدق وطافية على نحو ما يراها الانسان تطفو في الأحلام أحياناً.

قال ويلسون:

ـ تلك رمية رائعة، إنها أهداف صغيرة.

سأل ماكومبير:

ـ هل هو رأس يستحق الجهد؟

قال ويلسون:

ـ إنه ممتاز. أطلق النار على ذلك النحو ولن تواجه أية متاعب.

ـ أتظن بأننا سنجد جواميس غداً؟

ـ هناك فرصة طيبة لهذا. إنها تخرج للرعي في الصباح الباكر وقد نلحق بها في مكان مكشوف إنْ حالفنا الحظ.

قال ماكومبير:

ـ أود أن أزيل حادث الأسد ذلك. ليس مما يبهج النفس جداً أن تراك زوجتك تفعل شيئاً كذلك.

فكر ويلسون: لا بد أن يكونْ فعل ذلك أكثر إيلاماً؟ بزوجة أو بلا زوجة، أو الكلام عنه بعد انتهائك من فعله.

لكنه قال:

ـ ما كنت سأعود للتفكير بذلك. فأي انسان ينزعج من أسده الاول. لقد انتهى ذلك تماماً.

لكن، في تلك الليلة بعد العشاء وبعد كأس ويسكي بالصودا أمام النار وقبل الايواء الى السرير، كان فرانسيس ماكومبير مستلقياً على سريره النقّال والناموسية تنتصب فوقه وهو يصغي الى ضجيج الليل، لم يكن ذلك قد انتهى بعد، لم يكن قد انتهى تماماً ولم يكن قد بدأ. كان هناك كما حدث تماماً وقد تأكدتْ بعضُ أجزائه على نحو لا يمكن محوه كما كان يحس بالخزي منه على نحو بائس. لكنه كان يحس بخوف بارد خاوٍ أكثر مما يحس بالخزي. كان الخوف لا يزال هناك كتجويف لزج بارد في الفراغ كله الذي كانت تستقر فيه ثقته بنفسه في وقت من الأوقات وأثار الغثيان في نفسه. فقد ظل معه حتى الآن.

لقد بدأ في الليلة السابقة حين استيقظ وسمع الأسد يزأر في مكان ما على إمتداد النهر. كان صوتاً عميقاً ينتهي بزمجرات ساعلة جعلته يظن بأنه كان خارج

الخيمة تماما، وحين استيقظ فرانسيس ماكومبير في الليل ليستمع اليه، كان خائفا. سمع زوجته تتنفس بهدوء وهي نائمة. لم يكن ثمة أحد ليخبره بأنه كان خائفاً أو ليخاف معه، كما لم يكن يعرف، وهو يستلقي وحيداً على سريره، المثل الصومالي الذي يقول بأن الرجل الشجاع يخاف من الأسد ثلاث مرات دائماً حين يرى آثار الأسد لأول مرة، وحين يسمعه يزأر لأول مرة وحين يواجهه لأول مرة. بعد ذلك، وبينما كانوا يتناولون الافطار على ضوء الفانوس في خيمة الطعام قبل بزوغ الشمس، زأر الأسد مرة أخرى فظنَّ فرانسيس بأنه كان عند طرف المخيم تماما.

قال روبرت ويلسون وهو يرفع نظره عن سمك السلمون والقهوة:

ـ صوته صوت عجوز متمرّس. استمع اليه وهو يسعل.

ـ هل هو قريب جداً؟

ـ حوالي الميل باتجاه أعلى الجدول.

ـ هل سنراه؟

ـ سنلقي عليه نظرة.

ـ هل يقطع صوته مثل هذه المسافة الطويلة؟ يبدو صوته كما لو كان في المخيم.

قال روبرت ويلسون:

ـ يقطع صوته مسافة طويلة جهنمية. من الغريب أن يقطع تلك المسافة كلها. آمل أن يكون قطعاً يمكن صيده. فقد قال الأولاد بأن أسداً ضخماً يتجول قريباً من هنا.

سأل ماكومبير:

ـ إنْ أتيحت لي فرصة إطلاق النار، أين يجب أن أصيبه حتى أوقفه؟

قال ويلسون:

ـ في الكتفين. في العنق إنْ إستطعت هذا. أطلق النار على عظامه. حطمه واطرحه أرضاً.

قال ماكومبير:

ـ آمل أن أتمكن من وضعها في مكانها الصحيح.

قال له ويلسون:

ـ أنتَ رام ماهر جداً. تمهل. تأكّد منه. أول طلقة تصيبه هي التي يعوّل عليها

ـ عن أي بُعد أطلق النار؟

. لا يمكن تحديد هذا. فلدى الأسد ما يقوله عن ذلك. لا نطلق الاّ بعد أن يصبح على قرب كاف حتى يمكنك التأكد من إصابته.

سأل ماكومبير:

ـ من أقل من مائة ياردة؟

ألقى ويلسون عليه نظرة سريعة :

ـ مائة ياردة هي مسافة صحيحة الى حد ما . قد يكون عليك أن تطلق عليه من مسافة أقصر. لن تتاح لك فرصة إصابته من مسافة كتلك. ها هي الممصاحب قادمة .

قالت :

ـ صباح الخير. هل سنطارد ذلك الأسد؟

قال ويلسون :

ـ حالما تنهين إفطارك . كيف تشعرين؟

قالت :

ـ هائل ، أنا منفعلة جداً .

ـ سأذهب لأتأكد من أن كل شيء جاهز.

ابتعد ويلسون . وفيما هو يخرج ، زأر الأسد مرة أخرى .

قال ويلسون :

ـ متسول مزعج . سنضع حداً لذلك .

سألته زوجته :

ـ ما بك يا فرانسيس؟

قال ماكومبير:

ـ لاشي .

قالت :

ـ لا . هناك شيء . ما الذي يزعجك؟

قال :

ـ لا شيء .

نظرتْ إليه :

ـ قل لي . ألستَ بصحة جيدة؟

قال :

ـ إنه ذلك الزئير اللعين . لقد إستمر طيلة الليل ، كما تعرفين .

قالت :

ـ لِمَ لم توقظني؟ كنتُ أحببتُ أن أسمعه .

قال وهو يحس ببؤس :

ـ عليّ أن أقتل هذا الشيء اللعين .

ـ حسنا إذن، وكما قال ويلسون: اقتله وأوقف زئيره.

قال فرانسيس ماكومبير:

ـ نعم يا حبيبتي. يبدو الأمر سهلاً، أليس كذلك؟

ـ أنتَ لستَ خائفاً، أليس كذلك؟

ـ طبعاً لا. لكنني عصبيّ من سماعي له يزأر طيلة الليل.

قالت:

ـ ستقتله على نحو رائع. أعرف بأنك ستقتله. أنا متلهفة الى أبعد حد لرؤيته.

ـ أكملي إفطارك وسننطلق.

قالت:

ـ لم يطلع النور بعد. إنها ساعة سخيفة.

في تلك اللحظة تماماً، زأر الأسد بأنين عميق صادر عن صدره ليتحول فجأة الى صوت حلقي ثم الى رجفة متصاعدة بدت بأنها تهزّ الهواء وانتهى بتنهيدة وزمجرة عميقة ثقيلة صادرة عن صدره.

قالت زوجة ماكومبير:

ـ يبدو كأنه هنا.

قال ماكومبير:

ـ يا إلهي، إنني أكره ذلك الصوت اللعين.

ـ إنه مؤثر جداً.

ـ مؤثر. إنه مخيف.

عاد روبرت ويلسون حينذاك حاملاً بندقيته القصيرة القبيحة ذات الماسورة بالغة الضخامة من نوع جيبر عيار ٥٠٥, ٠ وهو مقطّب الجبين.

قال:

ـ تعال. بندقيتك سبرنجفيلد والبندقية الضخمة مع حامل بنادقك. كل شيء في السيارة. هل لديك طلقات؟

ـ نعم.

قالت السيدة ماكومبير:

ـ أنا مستعدة.

قال ويلسون:

ـ يجب أن نجبره على إيقاف هذا الضجيج. اجلس في المقدمة، تستطيع الممصاحب الجلوس معي هنا في المقعد الخلفي.

صعدوا الى داخل السيارة، وانطلقوا الى اعلى النهر بين الاشجار في أوائل نور النهار. فتح ماكومبير أخمص بندقيته وتأكد من أن لديه رصاصات مكسوة بغلاف معدني ثم أغلق ساحب أقسام البندقية وثبّت مسمار الأمان. رأى بأن يده ترتعش. تحسس داخل جيبه بحثاً عن خراطيش أخرى وحرّك أصابعه فوق الخراطيش في عروات مقدمة سترته. التفت الى المكان الذي يجلس فيه ويلسون في المقعد الخلفي من السيارة الخالية من الأبواب وذات الهيكل الصندوقي الى جانب زوجته، وكلاهما مقطّب الجبين بانفعال. ومال ويلسون الى الأمام وهمس:

ـ انظر الى الطيور وهي تهوي. هذا يعني بأن الولد العجوز قد ترك فريسته.

وعلى ضفة الجدول البعيدة، رأى ماكومبير الطيور الجارحة محلّقة فوق الأشجار راسمة دوائر ومنقضّة عمودياً الى الأسفل.

قال ويلسون هامساً:

ـ من المحتمل أن يمر من هنا ليشرب قبل أن يمضي لينام. إستمر بالمراقبة.

انطلقت بهم السيارة ببطء على امتداد ضفة الجدول العليا التي انحفرت هنا عميقاً لتصل الى قاع النهر المليء بالصخور، ثم داروا داخلين بين الأشجار الضخمة ثم خارجين منها والسيارة تنطلق بهم. كان ماكومبير يراقب الضفة المقابلة حين أحس بويلسون يمسك بذراعه. توقفت السيارة.

سمع الهمس:

ـ ها هو. أمامك والى اليمين. انزل وأجهز عليه. إنه أسد رائع.

رأى ماكومبير الأسد الآن. كان يكاد يقف بالعرض، ورأسه الكبير يرتفع عالياً ويواجههم. كان نسيم الصباح الباكر الذي يهب نحوهم يحرّك عرفه الأسمر، وبدا الأسد ضخماً ملقياً صورته الظلية على سفح الضفة في نور الصباح الرمادي وكتفاه ثقيلان، وجذعه ينتفخ بهدوء.

سأل ماكومبير وهو يرفع بندقيته:

ـ كم يبعد عنا؟

ـ حوالي خمس وسبعين ياردة. انزل. واجهز عليه.

ـ لِمَ لا أطلق من هنا؟

سمع ويلسون يهمس في اذنه:

ـ لا تطلق النار عليه من السيارة. إنزل. لن يبقى هناك طول النهار.

خطا ماكومبير خارجاً من فتحة جانب المقعد الأمامي المنحنية ثم هبط الى الدرجة ثم الى الأرض. ما زال الأسد ينظر بجلال وبرود نحو هذا الشيء الذي

تراءى لعينيه في صورة ظلّيّة فقط تظهر له متجمعة كخرتيت هائل. لم تصله رائحة إنسان وراقب الشيء، محركاً رأسه الكبير قليلاً من جانب إلى آخر. وبينما هو يراقب هذا الشيء، وهو غير خائف منه لكنه متردد قبل أن يهبط الى الضفة ليشرب وذلك الشيء أمامه، رأى شكل إنسان يفصل نفسه عن ذلك الشيء، فأدار رأسه الثقيل وانفتل مبتعداً نحو غطاء الأشجار حين سمع ضجة قرقعة وأحس بضربة حبّة خردق بحجم ۳۰,۰ - ٦٢٢٠. من رصاصة صلبة تعض خاصرته وتمزقها لتنغرس في جوفة في غثيان فجائي حار لاسع داخل معدته. خبّ ثقيلاً بقدمين ضخمتين مؤرجحاً معدةً مليئة جريحة، وسار بين الأشجار نحو العشب الطويل ثم المخبأ، ووصلته القرقعة ثانية لتمر به وتمزّق الهواء الى أشلاء. وقرقعت مرة أخرى وأحس بالضربة وهي تضرب أضلعه السفلى وتمزّق جسمه وتدخله، وفيما كان دم فجائي حار ومزبد في فمه. هرول نحو العشب العالي حيث يمكنه أن يربض ولا يُرى ويجبرهم على جلب الشيء المقرقع الى مسافة قريبة على نحو كاف لكي يندفع وينقض على الرجل الذي يمسك بذلك الشيء.

لم يفكر ماكومبير، وهو يخرج من السيارة، بما كان يحس به الأسد. لقد عرف فقط بأن يديه ترتجفان، وعندما سار مبتعداً عن السيارة، لم يكد يستطيع أن يحرك رجليه. كانتا متيبستين عند الفخذين، لكنه أحس بالعضلات ترتجف. رفع البندقية وسدّد على المفصل بين رأس الأسد وكتفيه وضغط على الزناد. لم يحدث شيء، مع أنه ضغط حتى أنه ظن بأن أصبعه سينقطع. ثم عرف بأنه كان قد ثبّت مسمار الأمان، وفيما هو يخفض البندقية ليحرك مسمار الأمان خطا خطوة متجمدة أخرى الى الأمام، فاستدار الأسد بعد أن رأى صورة ماكومبير الظلّية واضحة ومنفصلة عن صورة السيارة الظلّية، وانطلق مبتعداً وهو يهرول، وسمع ماكومبير صوت «ووتك» الدال على أن الرصاصة أصابت هدفها بعد أن أطلقها، لكن الأسد واصل الجري. أطلق ماكومبير النار مرة أخرى ورأى الكل بأن الرصاصة تقذف بنافورة من الأوساخ وراء الأسد المهرول. أطلق الرصاص مرة أخرى متذكراً ضرورة خفض تصويبه، وسمع الكل الرصاصة وهي تصيب الهدف، ثم هرول الأسد واختفى داخل العشب العالي قبل أن يدفع بساحب أقسام البندقية الى الأمام.

وقف ماكومبير هناك شاعراً بغثيان في معدته، ويداه اللتان تمسكان بندقية سبرنجفيلد التي ما زالت معدّة للاطلاق ترتجفان، بينما زوجته وروبرت ويلسون يقفان بجانبه. ووقف الى جانبه كذلك حاملا البنادق يهذران بلغة واكامبا.

قال ماكومبير:

ـ أصبتُه. أصبتُه مرتين.

قال ويلسون بلا حماس:

ـ أصبتَ أمعاءه وضربته في مكان في مقدمته.

بدا حاملا البنادق قاتميّ الوجه جداً. كانا صامتين الآن.

تابع ويلسون قوله:

ـ ربما قتلته. لا بد أن ننتظر وهلة قبل أن ندخل للتأكد من هذا.

ـ ماذا تعني؟

ـ ليضعف قبل أن نطارده.

قال ماكومبير:

ـ آه.

قال ويلسون بمرح:

ـ أسد لعين رائع. لكنه اختبأ في مكان سيء.

ـ لِمَ هو سيء؟

ـ لن تراه إلاّ وأنتَ على رأسه.

قال ماكومبير:

ـ أوه.

قال ويلسون:

ـ تعال. تستطيع الممصاحب البقاء في السيارة هنا. سنذهب لنلقي نظرة على آثار الدماء.

قال ماكومبير لزوجته:

ـ إبقيْ هنا يا مارجوتِ.

كان فمه جافاً جداً وكان من الصعب عليه أن يتكلم. سألت:

ـ لماذا؟

ـ ويلسون يقول هذا.

قال ويلسون:

ـ سنذهب لنلقي نظرة. إبقيْ هنا. تستطيعين رؤيته على نحو أفضل من هنا.

ـ حسناً.

تكلم ويلسون باللغة السواحلية الى السائق. أومأ برأسه وقال: «نعم بوانا».

ثم هبطوا منحدر الضفة وعبروا الجدول، متسلقين الصخور ودائرين حولها الى الضفة الأخرى، ومتمسكين بجذور ناتئة وبالضفة حتى وجدوا المكان الذي

كان الأسد يهرول فيه عندما أطلق عليه ماكومبير النار أول مرة. كانت هناك دماء داكنة على عشب قصير أشار اليها حاملا البنادق بسيقان عشب كانا يحملانها، كانت تلك الدماء تمتد مبتعدة خلف أشجار ضفة النهر.

سأل ماكومبير:

- ماذا سنفعل؟

قال ويلسون:

- ليس أمامنا كبير خيار. لا نستطيع إحضار السيارة الى هنا. فالضفة شديدة الانحدار. سندعه يتيبَّس قليلاً ثم ندخل أنا وأنتَ العشب ونلقي نظرة بحثاً عنه.

سأل ماكومبير:

- ألا نستطيع إشعال النار في العشب؟

- شديد الخضرة.

- ألا نستطيع إرسال مثيري الطرائد؟

نظر اليه ويلسون متفحصاً. قال:

- نستطيع هذا طبعاً، لكن في هذا لمسة إجرامية. أنتَ ترى بأننا نعرف بأن الأسد جريح. تستطيع أن تسوق أسداً غير جريح - سيتحرك الى الأمام عند إثارة ضجة - لكن أسداً جريحاً سينقضّ مهاجماً. ولن تستطيع رؤيته إلاّ حين تكون فوقه تماماً. فهو سيتمدد في مكان ضيّق جداً لا يمكنك أن تتصور بأنه يتسع لإخفاء أرنب بري. لا يمكنك إرسال الأولاد الى هناك الى مثل هذا النوع من العَرْض. فلا بد أن يُهرس أحدهم.

- ماذا عن حاملي البنادق؟

- اوه. سيذهبان معنا. إنه عملهما. أنتَ ترى معي بأنهما وقّعا على هذا. ومع ذلك فهما لا يبدوان سعيدين، أليس كذلك؟

قال ماكومبير:

- لا أريد الدخول الى هناك.

خرجت الكلمات من فمه قبل أن يعرف بأنه قالها.

قال ويلسون بمرح شديد:

- ولا أنا. ليس أمامنا خيار.

وبعد أن أعمَلَ التفكير، ألقى نظرة سريعة على ماكومبير، فرأى فجأة كيف كان يرتجف كما رأى النظرة المثيرة للرثاء على وجهه.

قال:

ـ لست مجبراً على الدخول طبعاً. فذلك ما استؤجرت من أجله، كما تعرف.
ـ لذلك أنا غالٍ الى هذا الحد.
ـ تعني بأنك ستدخل الى هناك وحدك؟ لِم لا نتركه هناك؟

شعر روبرت ويلسون، الذي كان تفكيره مُرَكَّزاً على الأسد والمشكلة التي أثارها والذي لم يكن يرى ماكومبير إلاّ ليلاحظ بأنه ثرثار الى حد ما، شعر فجأة كأنه فتح الباب الخطأ في فندق ورأى شيئاً مخجلاً.

ـ ما تعني؟
ـ لَمَ لا نتركه؟
ـ تعني بأن نتظاهر، بيننا وبين أنفسنا، بأن لم يصب؟
ـ لا. لنستنطه فقط من حسابنا.
ـ لا يمكن فعل هذا.
ـ لِمَ لا؟
ـ لسبب واحد: من المؤكد من أنه سيعاني. ولسبب آخر: قد يقع عليه شخص آخر.
ـ فهمتْ.
ـ لستَ مضطراً الى أن تفعل شيئاً له.

قال ويلسون:

ـ سأكون أمامك حين ندخل، وسيكون كونجوني في أثري. إبقَ ورائي منحرفاً قليلاً الى أحد الجانبين. الفُرص مواتية لأن نسمعه يزمجر. إذا رأيناه فسنطلق الرصاص معاً. لا تخش شيئاً. سأساندك. في الحقيقة، ربما يحسن ألاّ تذهب وتنضم الى المصاحب بينما أنهي أنا الأمر معه.
ـ لا. أريد ان أذهب معك.

قال ويلسون:

ـ حسناً. لكن، لا تدخل إنْ كنتَ لا تريد. إنها مهمتي الآن، كما تعرف.

قال ماكومبير:

ـ أريد ان أذهب.

جلسا تحت شجرة ودخنا.

سأل ويلسون:

ـ أتريد العودة إلى المصاحب والتحدث إليها بينما ننتظرك؟
ـ لا

ـ ساعود اليها واطلب منها أن تصبر.

قال ماكومبير:

ـ حسناً.

جلس هناك، والعرق يتصبب بغزارة تحت إبطيه، وقد جفّ فمه وأحسّ بالخواء في معدته، متلهفاً لاستجماع شجاعته ليطلب من ويلسون أن يذهب ويُنهي الأسد بدونه. لم يكن يستطيع أن يعرف بأن ويلسون كان غاضباً لأنه لم يلاحظ الحال التي كان عليها قبل أن يصلا الى هنا فيعيده الى زوجته. وبينما هوجالس هنا، وصل ويلسون.

قال:

ـ أحضرتُ بندقيتك الكبيرة. خذها. لقد منحناه ما يكفي من الوقت. لنذهب.

أخذ ماكومبير البندقية الكبيرة.

وقال ويلسون:

ـ إبقَ ورائي وعلى بُعد حوالي خمس ياردات الى اليمين ونفِّذ ما أقوله لك بالضبط.

ثم تكلم بالسواحلية لحاملي البنادق اللذين بديا صورة مجسدة للكآبة.

قال:

ـ لنذهب.

سأل ماكومبير:

ـ أيمكنني تناول جرعة ماء؟

تحدث ويلسون الى حامل البنادق الأكبر سناً والذي كان يحمل مطرة مثبتّة على حزامه، ففكّها الرجل ونزع سدادتها وناولها الى ماكومبير الذي أخذها وهو يحس بمدى ثقلها ومدى كثافة شعر وصوف غطاء اللباد بيده. رفعها ليشرب ونظر أمامه الى الأعشاب العالية والأشجار منبسطة القمم والممتدة وراءها. هبَّ النسيم نحوهم وتموّج العشب تموجاً لطيفاً في الريح. نظر الى حامل البنادق ولاحظ بأن حامل البنادق كان يعاني أيضاً من الخوف.

تمدد الأسد الضخم على بُعد خمس وثلاثين ياردة بين الأعشاب مستلقياً على الأرض. كانت أذناه قد تراجعتا الى الخلف بينما كانت حركته الوحيدة إهتزازاً طفيفاً لذيله الطويل المغطى بالشعر الأسود الى الأعلى والى الأسفل. لقد أصبح في وضع حرج يضطره للدفاع عن نفسه بضرواة حال وصوله الى مخبأه وهو يحسّ بالغثيان من ذلك الجرح في بطنه المليئة، وبالضعف المتزايد من الجرح في رئتيه الذي كان يدفع زبداً أحمر رقيقاً الى فمه في كل مرّة كان يتنفس فيها. كانت

خاصرتاه مبلولتين وساخنتين وتجمّع الذباب على الفتحة الصغيرة التي خرقتها الرصاصات في جلده الأسمر المصفر، بينما نظرت عيناه الصفراوان الكبيرتان اللتان ضيّقهما البُغض الى الأمام، وهما تطرفان فقط حين يحسّ بالألم عندما كان يتنفس، وكانت قد أنشب مخالبه في الأرض الطرية المحروقة. تجمّع كل الألم والغثيان والبُغض وما بقى له من قوة في تركيز شديد للانقضاض. كان يسمع الرجال يتكلمون وانتظر، مستجمعاً كل نفسه في هذا التأهب للقيام بهجوم حالما يدخل الرجال العشب. حالما سمع أصواتهم، تصلّب ذيله منتفضاً الى الأعلى والى الأسفل، وأطلق زمجرة ساعلة حين دخلوا طرف العشب، ثم هاجم. ما كادوا يدخلون، كونجوني، حامل البنادق العجوز في المقدمة يراقب آثار الدماء، وويلسون يراقب العشب بحثاً عن أية حركة وبندقيته جاهزة، وحامل البنادق الثاني ينظر الى الأمام ويصيخ السمع بينما ماكومبير قريب جداً من ويلسون وأصبعه على زناد بندقيته، حتى سمع ماكومبير الزمجرة الساعلة التي تخنقها الدماء، ورأى الاندفاع الصافر في العشب. وكان آخر ما تذكره بعد ذلك هو أنه كان يجري، يجري بعنف في الأرض المكشوفة والفزع يسيطر عليه، يجري نحو الجدول.

سمع صوت: كا ـ را ـ ونـج من بندقية ويلسون الكبيرة، ثم قرقعة أخرى وخلال ثانية: كاراوونـج! وبعد أن التفت، رأى الأسد رهيب المنظر الآن وقد بدا نصف رأسه منزوعاً وهو يزحف نحو ويلسون في طرف العشب العالي بينما الرجل أحمر الوجه يعالج ساحب أقسام البندقية القصيرة قبيحة الشكل ويسدِّد بدقة حينما انطلق صوت إنفجار آخر: كاراوونـج! من الفوهة، فتصلّب هيكل الأسد الزاحف الثقيل الأصفر وانزلق الرأس الضخم المبتور الى الأمام، وعرف ماكومبير، وهو يقف وحيداً في الأرض الفضاء حيث فرّ هارباً وهو يحمل بندقية محشوّة، بينما رجلان أسودان ورجل أبيض يلتفتون نحوه ناظرين اليه بإحتقار، عرف بأن الأسد قد مات.

إقترب من ويلسون وقد بدا طوله كله توبيخاً صريحاً. نظر اليه ويلسون وقال:

ـ أتريد أخذ صور؟

قال:

ـ لا.

ذلك كان كل ما نطق به أي منهما من كلمات الى أن وصلا الى السيارة. ثم قال ويلسون:

ـ أسد جهنمي رائع. سيسلخ الأولاد جلده. يمكننا أن نبقى هنا في الظل.

لم تنظر اليه كما لم ينظر اليها بل جلس الى جانبها في المقعد الخلفي بينما

جلس ويلسون في المقعد الأمامي . وحين مَدّ يده ذات مرة واخد يدها ، دون أن ينظر اليها ، سحبت يدها من يده . وبعد أن نظر عبر الجدول حيث كان حاملا البنادق يسلخان جلد الأسد ، تأكد من أنها رأت كل شيء . وبينما كانا يجلسان في الخلف هناك ، تقدّمتْ زوجته الى الأمام ووضعتْ يدها على كتف ويلسون . التفت الى الخلف فمالت هي الى الأمام فوق المقعد المنخفض وقبّلته على فمه .

قال ويلسون :

ـ آه . . انني ـ

غدا وجهه أكثر إحمراراً من لونه الطبيعي المحروق .

قالت :

ـ يا سيد روبرت ويلسون . يا سيد روبرت ويلسون ذا الوجه الأحمر الجميل .

ثم عادت الى جانب ماكومبير مرة أخرى ونظرتْ بعيداً عبر الجدول الى حيث سقط الأسدُ وقائمتاه الأماميتان العاريتان بيضاويتا العضلات واضحتا العروق مرفوعتان الى أعلىَ وبطنه الأبيض منتفخ بعد أن نزع الرجلان الأسودان جلده عنه . وأخيراً ، أحضر حاملا البنادق جلده مبللاً وثقيلاً وصعدا الى السيارة من الخلف وهما يحملان ذلك الجلد بعد أن طوياه قبل إدخاله في السيارة ثم انطلقت السيارة . لم يقل أحد شيئاً آخر الى أن عادوا الى المخيم .

تلك كانت قصة الأسد . لم يكن ماكومبير يعرف شعور الأسد قبل بدء إندفاعه ، ولا حينما صدمته في فمه الضربة العنيفة من عيار ٥٠٥ , ٠ بسرعة فوهة البندقية التي تصل الى طُنّين اثنين ، كما لم يعرف ما الذي جعله يواصل الاندفاع بعد أن حطمت الصدمة الممزقة الثانية ربعية الخلفيين وظلّ يتقدم زاحفاً نحو الشيء المحطم المفجر الذي دمّره . عرف ويلسون شيئاً عن ذلك وعبّر عنه بقوله فقط : «أسد رائع لعين» ، لكن ماكومبير لم يكن يعرف ما كات يحس به ويلسون إزاء الاشياء . ولم يكن يعرف ما كانت تحس به زوجته سوى انها قطعت علاقتها به .

لقد قطعتْ زوجته علاقتها به في السابق ، لكن هذا لم يستمر . كان ثرياً جداً وسيصبح أكثر ثراءً وكان يعرف بأنها لن تتركه أبداً . كان ذلك أحد الامور القليلة التي يعرفها حقاً . كان يعرف عن ذلك وعن الدّراجات النارية ـ وذلك في وقت سابق ـ وعن السيارات وعن صيد البط وصيد السمك : الطروته والسلمون والمخلوقات البحرية الكبيرة وعن الجنس في الكتب ، في كثير من الكتب ، في كتب كثيرة جداً ، وعن ألعاب كرة المضرب والسلة والطائرة وعن الكلاب والقليل عن التمسك بماله وعن أغلب الأمور التي يتناولها عالمه ، وعن عدم هجران زوجته له . لقد كانت

زوجته ذات جمال باهر ولا تزال باهرة الجمال في افريقيا، لكنها لم تعد على درجة كافية من الجمال في الوطن حتى يمكنها أن تتركه وتحسّن وضعها وكانت تعرف هذا وكان هو يعرف هذا. لقد أضاعت فرصة هجره، وكان يعرف هذا. لو كان في وضع أفضل مع النساء فلربما كانت قد بدأتْ تقلق عليه خشية أن يتخذ زوجة جديدة، زوجة جميلة، لكنها كانت تعرف الكثير جداً عنه حتى أنها لن تقلق عليه أيضاً. كما كان يتمتع دائماً بتسامح كبير، وكان ذلك يبدو أفضل ما يتعلق به إن لم يكن أخبثها.

وعلى وجه الإجمال، فقد عُرف عنهما بأنهما يمثلان زيجة سعيدة نسبياً، واحدة من الزيجات التي كثيراً ما تنتشر إشاعة انفصالها لكنها لا تتحقق أبداً، فقد كانا يضفيان، كما ذكر أحد كتاب أعمدة الصحف في قسم أخبار المجتمع، أكثر من بهارات مغامرات على حياتهما الرومانسية طويلة الأمد والمحسودين عليها وذلك بالقيام برحلات خلال ما هو معروف بأكثر بقع أفريقيا ظلاماً الى أن أنارتها شركة مارتين جونسون على كثير من الشاشات الفضية، حيث كانا يطاردان الأسد سيمبا العجوز وال «بافالو» والفيل تيمبو إضافة الى تجميعهم العيّنات لمتحف التاريخ الطبيعي. وقد كتب نفس كاتب العمود الصحفي بأنهما وصلا «الى الحافة» ثلاث مرات على الأقل في الماضي وكان ذلك ما حدث فعلاً. لكنهما كانا يسوّيان الأمر دائماً. فقد كان اتحادهما قائماً على أساسا سليم. لقد كانت مارجوت أجمل من أن يطلّقها ماكومبير كما كان ما لدى ماكومبير من مال أكثر مما يمكنها أن تتعداه لتهجر ماكومبير.

كانت الساعة الآن حوالي الثالثة صباحاً حين استيقظ ماكومبير الذي نام لبرهة وجيزة بعد أن كان قد كفّ عن التفكير بالأسد، ثم نام مرة أخرى واستيقظ فجأة مرتعباً من حلم رأى فيه الأسد دامي الرأس يقف فوقه، فعرف، وهو يصغي وقلبه يخفق بشدة، بأن زوجته لم تكن في السرير النقّال الآخر في الخيمة. فتمدد مستيقظاً مدة ساعتين وتلك الحقيقة تدور في ذهنه.

في نهاية ذلك الوقت، دخلتْ زوجته الخيمة ورفعتْ ناموسيتها ثم زحفت لتندس في السرير بهدوء.

سأل ماكومبير في الظلام:

- أين كنتِ؟.

قالت:

- مرحباً. أأنت مستيقظ؟.

- أين كنتِ؟.

ـ خرجتُ قبل لحظة لأتنسمَ نسمة هواء.
ـ تَنسمْته كالجحيم.
ـ ماذا تريدني أن أقول يا حبيبي؟.
ـ أين كنتِ؟.
ـ في الخارج لأتنسم نسمة هواء.
ـ هذا اسم جديد له. أنتِ عاهرة.
ـ حسناً. أنت جبان.
قال:
ـ حسناً. ما شأن هذا؟.
ـ لا شيء قدر ما يتعلق بي. لكن، أرجوك: لنكفَّ عن الكلام يا حبيبي لأنني نعسانة جداً.
ـ تظنين بأنني سأقبل أي شيء.
ـ أعرف بأنك ستقبله يا جميلي.
ـ حسناً، لن أقبله.
ـ من فضلك يا حبيبي، لنكفَّ عن الكلام. أنا نعسة جداً.
ـ لن يحدث أي شيء من ذلكِ، لقد وعدتِ ألاّ يحدث.
قالت بعذوبة:
ـ حسناً، لقد حدث الآن.
ـ قلتِ بأننا إنْ قمنا بهذه الرحلة فلن يحدث شيء من ذلك. لقد وعدتِني.
ـ نعم يا حبيبي. تلك هي الطريقة التي عنيتُ أن تسير حسبها الأمور. لكن الرحلة فَسدَتْ أمس. يجب ألاّ نتكلم عنها، أليس كذلك؟.
ـ انكِ لا تنتظرين طويلاً حين تسنح لك فرصة، أليس كذلك؟.
ـ من فضلك، لنسكت. أنا نعسة جداً يا حبيبي.
ـ سأتكلم.
ـ لا تشغل بالك بي إذن، لأنني سأنام.
ونامت.

أثناء الافطار، جلس ثلاثتهم حول الطاولة قبل انبلاج نور النهار واكتشف فرانسيس ماكومبير بأنه يكره، من بين الكثير من الناس الذين يكرههم، روبرت ويلسون أكثر من غيره.

سأل ويلسون بصوته الحلقيّ وهو يحشو غليونه:

ـ نمتَ جيداً؟ .

ـ وأنتَ؟ .

قال له الصياد الأبيض :

ـ نوماً عميقاً.

فكر ماكومبير: يا ابن الحرام يا ابن الحرام الوقح .

وفكر ويلسون وهو ينظر إليهما بعينيه المنطفئتين والباردتين : إذن ، فقد أيقظته عندما عادتْ إلى الخيمة . حسناً ، لِمَ لا يُبقي زوجته في مكانها؟ ماذا يظنني : قديساً متحجراً دموياً؟ ليبقها في مكانها . إنها غلطته هو.

سألت مارجوت وهي تدفع طبقاً من المشمش بعيداً :

ـ اتعتقد بأننا سنعثر على «بافالو»؟ .

قال ويلسون :

ـ هناك فرصة . لِمَ لا تبقين في المخيم؟ .

قالتْ له :

ـ لن أبقى مقابل أي شيء .

قال ويلسون لماكومبير:

ـ لِمَ لا تأمرها بالبقاء في المخيم؟ .

قال ماكومبير ببرود :

ـ مُرْها أنت .

قالت مارجوت بسرور عظيم :

ـ لنكفَّ عن إصدار أية أوامر.

والتفتتْ إلى ماكومبير:

ـ وأية سخافة أخرى يا فرانسيس؟ .

سأل ماكومبير:

ـ هل أنتَ مستعد للانطلاق؟ .

قال له ويلسون :

ـ في أي وقت . هل تريد أنْ تذهب المصاحب؟ .

ـ هل سيشكل أي فرق إنْ قلتُ لا أو نعم؟ .

فكر ويلسون : إلى الجحيم . إلى الجحيم وبئس المصير. هكذا ستسير الأمور إذن؟ حسناً . على هذا النحو ستسير الأمور.

قال :

ـ لن يشكل فرقاً.

سأل ماكومبير:

ـ أنتَ متأكد من أنك لا تريد البقاء في المخيم معها وأخرج أنا لاصطاد الـ «بافالو» وحدي؟.

قال ويلسون:

ـ لا تستطيع ذلك. ما كنتُ تكلمتُ عفناً لو كنتُ في مكانك.

ـ أنا لا أتكلم عفناً. أنا قرفان.

ـ كلمة سيئة: قرفان هذه.

قالت زوجته:

ـ فرانسيس، هل تسمح وتتكلم كلاماً معقولاً.

قال ماكومبير:

ـ أنا أتكلم كلاماً معقولاً لعيناً. هل سبق وتناولتَ طعاماً قذراً كهذا؟.

سأل ويلسون بهدوء:

ـ خطأ في الطعام؟.

ـ ليس أكثر خطأ من كل شيء آخر..

قال ويلسون بهدوء كبير:

ـ كنتُ سأجعلك تتماسك أيها الخنفسة. فالصبي الذي يقوم على خدمة المائدة يفهم قليلاً من اللغة الانجليزية.

ـ إلى الجحيم به.

نهض ويلسون واقفاً، نافثاً دخان غليونه وسارالهويني مبتعداً، مردداً بضع كلمات بالسواحلية لأحد حاملي البنادق الذي كان واقفاً ينتظره. ظل ماكومبير وزوجته جالسين إلى الطاولة. كان يحدّق في فنجان قهوته.

قالت مارجوت بهدوء:

ـ إنْ أثرتَ فضيحة سأتركك يا حبيبي.

ـ لا. لن تتركيني.

ـ يمكنك أن تحاول وترى.

ـ لن تتركيني.

قالت:

ـ لا. لن أتركك ولكنك ستتأدب.

ـ أتأدب؟ تلك طريقة كلام؟ أنا أتأدب!؟.

ـ نعم، تأدب.
ـ لِمَ لا تحاولي أنتِ أن تتأدبي؟.
ـ لقد حاولتُ هذا منذ مدة طويلة جداً. مدة طويلة جداً.
قال ماكومبير:
ـ أكره الخنزير أحمر الوجه ذلك. أمقتُ رؤيته.
ـ إنه لطيف جداً حقاً.
قال ماكومبير وهو يكاد يصرخ:
ـ أوه، إخرسي.
وفي تلك اللحظة، قدمت السيارة ووقفت أمام خيمة الطعام ونزل منها السائق وحاملا البنادق. تقدّم ويلسون ونظر إلى الزوج والزوجة الجالسين إلى الطاولة.
سأل:
ـ ستذهب للصيد؟.
قال ماكومبير وهو ينهض واقفاً:
ـ نعم. نعم.
قال ويلسون:
ـ يحسن أن تحضري سترة صوفية. سيكون داخل السيارة بارداً.
قالت مارجوت:
ـ سأحضر جاكتني الجلدية.
قال لها ويلسون:
ـ إنها مع الولد.
ركب في المقدمة مع السائق وجلس فرانسيس ماكومبير وزوجته، دون أن يتكلما، على المقعد الخلفي.
فكر ويلسون محدثاً نفسه: آمل ألاّ يفكر الحقير بتفجير قفا رأسي. النساء مصدر إزعاج في رحلات الصيد.
كانت السيارة تصرّ وهي تهبط قاطعةً النهر على مخاضة مليئة بالحصى في نور النهار الرمادي ثم تسلقت صاعدة الضفة المنحدرة إلى حيث كان ويلسون قد أمر في اليوم السابق بتمهيد طريق حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى الأرض الوعرة المكسوة بالأشجار الشبيهة بمنتزه في الجانب البعيد.
فكر ويلسون: صباح جميل. وكان ندى كثيف قد تجمع، فشم رائحة السرخس المسحوق بينما كانت العجلات تشق طريقها بين العشب والشجيرات

الصغيـرة. وكـانت تنبعث رائحة كرائحة نبات رعي الغنم فأحب رائحة ندى الصباح الباكـر هذا السـرخس المسحوق ومنظر جذوع الأشجار التي بدت سوداء من خلال ضباب الصباح الباكر، فيما كانت السيارة تشق طريقها خلال الأرض غير المطروقة والشبيهة بالمنتزه. كان قد وضع الاثنين في المقعد الخلفي وطردهما من ذهنه الآن وأخـذ يفكـر بجـواميس البـافـالـو. كانت الجواميس التي يطاردها تقيم في مستنقع كثيف في النهـار ممـا كان من المستحيـل اصطيادها. لكنها، كانت في الليل ترعى في فسحـة مكشـوفـة من الأرض، فإنْ تمكن من أن يصـل بالسيـارة إلى مكان بينها وبين مستنقعهـا، فستكـون أمـام ماكـومبيـر فرصـة جيـدة لمهـاجمتهـا في الأرض المكشوفة، ولم يكن يريد أن يصطاد الجواميس مع ماكومبير في غابة كثيفة. لم يكن يريـد اصطيـاد جواميس بافـالـو ولا أي شيء آخر مع ماكومبير أبداً، لكنه كان صياداً محترفاً وقد سبق له أن اصطاد مع أشخاص غريبي الأطوار اثناء حياته. فإذا اصطادوا جامـوس بافـولو اليوم فلن يبقى عليه سوى خرتيت ليصطاده ويكون الرجل المسكين قد أنهى لعبته الخطيرة، وقد تعود المياه إلى مجاريها بعد ذلك. لن يكون أمامه من شيء آخر يفعله مع المرأة وسيجتاز ماكومبير ذلك أيضاً. لا بد أنه مرّ بالكثير من تلك التجـارب من قبـل كما يظهر من طبيعة الأشياء. المتسـول المسكين: لا بد أن يجد طريقة ما لاجتياز هذا. حسناً، كانت تلك غلطة الغر المسكين الدموية.

كان هو، روبـرت ويلسـون، ينقـل معـه سريراً نقّالاً مزدوجاً ليقدم مكاناً عليه لمن ترمي بها الريح. لقد اصطاد لزبائن معينين، مجموعةً عالمية رياضية منغمسين بالملذات حيث لم تكن النساء يشعرن بأنهن حصلن على ما يعادل قيمة ما يدفعنه من مال إلّا إذا شاركن الصيّـاد الأبيض السـريـر النقّـال. كان يحتقـرهن حين يكون بعيـداً عنهن بالـرغم من أنه أحب بعضهن إلى حد كاف حينذاك، لكنه كان يكسب رزقه منَ ورائهن كما كان مستواهن هو نفس مستواه طيلة مدة استئجارهن له.

كنّ في مستـواه في كل شيء باستثنـاء إطـلاق النار. فله مستواه الخاص فيما يتعلق بالقتـل وكـان يمكنهن الـوصول إلى هذه المستويات أو استئجار شخص آخر ليصطـادهن. عرف أيضـاً بأن الجميع احترموه لهذا. لكن، ماكومبير هذا كان رجلاً غريب الأطـوار. اللعنـة إنْ لم يكن كذلـك. والآن الزوجة. حسناً، الزوجة. نعم، الزوجة. همم الزوجة. حسناً، لقد أسقط كل ذلك. جال بنظره حوله. كان ماكومبير يجلس مقطبـاً وعنيف الغضب. بينمـا ابتسمت مارجوت له. بَدَتْ أصغر سناً الآن، أكثـر براءة وأنضـر وليست جميلة جمـالاً محترفاً. فكر ويلسون: ماذا في قلبها، الله يعلم. لم تتكلم كثيـراً الليلة المـاضيـة. علاوة على ذلـك، فقـد كان من دواعي

السرور رؤيتها .

صعدتْ السيارة مرتفعاً طفيفاً وتابعت السير عبر الأشجار ثم خلال أرض عشبية مكشوفة شبيهة بالبراري ، وحافظ على سيرها في ظل الأشجار على طول الحافة ، بينما السائق يقودها ببطء وويلسون ينظر بتمعن عبر البراري وإلى طول الجانب البعيد منها . أوقف السيارة ودرس الأرض المكشوفة بمنظار الميدان . ثم أشار إلى السائق أن يتابع ، فتحركت السيارة ببطء إلى الأمام والسائق يتجنب حفيرات الخنازير الأفريقية ويقود السيارة حول قلاع الطين التي بناها النمل . ثم التفت ويلسون فجأة ، وهو ينظر عبر الأرض المكشوفة ، ثم قال :

- يا إلهي . ها هي .

ورأى ماكومبير بعد أن نظر إلى حيث أشار وبينما السيارة كانت تقفز إلى الأمام وويلسون يتكلم بسرعة باللغة السواحلية إلى السائق ، رأى ثلاثة حيوانات ضخمة سوداء تكاد تبدو اسطوانية الشكل بثقلها الطويل ، كسيارات صهريج سوداء كبيرة ، تسير مهرولة عبر طرف البراري المكشوفة البعيد . كانت تجري بهرولة متصلّبة الرقبة ومتصلّبة الجسم ، وكان بوسعه أن يرى قرونها المتشعبة إلى أعلى والعريضة السوداء على رؤوسها وهي تهرول ورؤوسها مندفعة إلى الأمام ، ورؤوسها* لا تتحرك .

قال ويلسون :

- إنها ثلاثة ثيران هرمة ، سنقطع عليها الطريق قبل أن تصل إلى المستنقع .

كانت السيارة تسير بسرعة جنونية خمسة وأربعين ميلاً في الساعة عبر الأرض المكشوفة ، وبينما كان ماكومبير ينظر ، إزداد حجم الثيران أكثر فأكثر إلى أن أصبح بوسعه أن يرى هيئة ثور ضخم رمادي خال من الشعر أجرب ، وأن يرى كيف كانت رقبته جزءاً من كتفه ويرى سواد قرنيه اللامع وهو يهرول على مسافة قصيرة خلف الحيوانات الأخرى البائرة على خط قافلة بتلك المشية المندفعة المطردة ، فاقتربوا منها حينذاك والسيارة تتمايل كأنها تقفز عن الطريق فأصبح بوسعه رؤية ضخامة الثور المندفعة وقد غطى الغبار شعر فروة جلده ومقدمة القرن العريضة وخطمه الممدود عريض المنخرين ، وكان ماكومبير يرفع بندقيته حين صاح ويلسون :

- ليس من السيارة يا أبله .

ولم يحس بأي خوف ، بل أحس بالكراهية نحو ويلسون فقط ، وحين أطبقت المكابح انزلقت السيارة جانباً ، حارثة أثلاماً جانبية إلى حد التوقف تقريباً ، وكان ويلسون قد نزل من السيارة من أحد الجانبين ونزل ماكومبير من الجانب الآخر ،

* التكرار مقصود من المؤلف . (المترجم) .

متعثراً حينما مسّت قدماه الأرض التي كانت ما تزال تنسحب بشيء من السرعة، ثم راح يطلق النار على الثور وهو يتحرك مبتعداً، سامعاً أزيز الطلقات في أذنيه، مفرغاً البندقيـة منه وهو يبتعد بأطراد، وأخيراً وبعد أن تذكر أن يوصل طلقاته إلى الكتف، وبينمـا كان يحـاول بارتبـاك إعادة حشو بندقيته، رأى الثور يقع. وبينما كان ماكومبير على ركبتيـه، ورأسـه الكبيـر يتمايل، ويرى الآخرَيْن لا يزالان يهرولان، أطلق النار على القـائـد وأصـابـه، أطلق النار مرة أخرى واخطأ، وسمع قرقعة: كاراوونج تهد حين أطلق ويلسون النار ورأى الثور القائد ينزلق إلى الأمام ويقع على أنفه.

قال ويلسون:

- اضرب الآخر. والآن، أنتَ الذي سيطلق.

لكن الثور الآخر استمر بالجري باطراد بنفس الهرولة، فاخطأه، قاذفاً بنثار من الأوساخ، واخطأ ويلسون كذلك الهدف فارتفع الغبار في سحابة، فصاح ويلسون:

- هيا. إنه أبعد مما يمْكن اصابته.

وأمسـك بذراعـه ورجعـا إلى داخـل السيـارة مرة أخـرى، وقد تعلّق ماكومبير وويلسـون بجـانبي السيارة وهي تنطلق كصاروخ مهتزة على الأرض غير المستوية، ثم سارت بمحاذاة هرولة الثور المطرد المندفع ثقيل العنق والسائر بخط مستقيم.

كانـا خلفـه، وكـان ماكـومبير يحشو بندقيته، مسقطاً الخراطيش على الأرض رامياً اياها ثم مخففاً من إزدحامها، وعند ذلك، كادا أن يلحقا بالثور فصاح ويلسون:

- قف.

فانزلقت السيارة جانباً حتى كادت تنقلب وسقط ماكومبير إلى الأمام واقفاً على قدميـه، وسحب ساحب الأقسـام إلى الأمـام وأطلق النار إلى الأمام إلى أبعد مسافة أمكنه إطلاق النار منها إلى الظهر المهرول المدوَّر الأسود، وسدّد ثم أطلق النار مرة أخـرى والـرصـاصـات كلهـا تصيبـه لكنهـا لم تكن مؤثرة أي تأثير واضح على الثور حسبما رأى ذلك. ثم أطلق ويلسون النار فاصمّ الدوي سمعه، ورأى الثور يترنح. أطلق ماكومبير النار ثانية، مصوِّباً بدقة، فسقط الثور، سقط على ركبتيه.

قال ويلسون:

- حسناً. عمل رائع. ها هي الثلاثة.

أحسن ماكومبير بنشوة سكران. سأل:

- كم مرة أطلقتَ أنت النار؟.

قال ويلسون:

ـ ثلاث فقط. لقد قتلتَ أنت الثور الأول. أضخمهم. وقد ساعدتك على الاجهاز على الاثنين الآخرين. كنتُ أخشى أن يصلا إلى مخبأ. لقد قتلتَهم أنت. وكنتُ أنهي القليل فقط. لقد أطلقت النار بمهارة لعينة.

قال ماكومبير:

ـ لنذهب إلى السيارة. أريد شراباً.

قال ويلسون:

ـ لا بد أن ننهي ذلك البافالو أولاً.

كان البافالو على ركبتيه ويهز رأسه بعنف ويخور بهياج خنزير حينما اقتربنا منه.

قال ويلسون:

ـ راقبه حتى لا ينهض.

ثم قال:

ـ ابتعد قليلاً إلى الجانب وأطلق النار عليه في رقبته خلف الأذن تماماً.

صوّب ماكومبير بدقة إلى مركز الرقبة الضخمة المهتزة التي يحركها الهياج ثم أطلق النار. فسقط الرأس إلى الأمام مع الضربة.

قال ويلسون:

ـ ذلك ينهيه. أصابتْ العمود الفقري. لها مظهر جهنمي، أليس كذلك؟.

قال ماكومبير:

ـ لنتناول الشراب.

لم يحس بمثل هذا الاحساس الرائع طيلة حياته.

في السيارة، كانت زوجة ماكومبير شاحبة جداً.

قالت لماكومبير:

ـ كنتَ رائعاً يا حبيبي. يا لها من رحلة.

سأل ويلسون:

ـ هل كانت رحلة شاقة؟.

ـ كانت مخيفة. لم أخف أكثر مما خفتُ حينذاك طيلة حياتي.

قال ماكومبير:

ـ لنشرب شراباً.

قال ويلسون:

ـ لِمَ لا، أعطه إلى المصاحب.

شربتْ الويسكي الصافي من القارورة فارْتعشتْ قليلاً حينما ابتلعته.
ناولتْ القارورة لماكومبير الذي ناولها لويلسون.
قالت:
ـ كان مثيراً على نحو مخيف. أصابني بصداع رهيب. لكنني لم أكن أعرف بأن من المسموح لكما إطلاق النار من السيارة.
قال ويلسون ببرود:
ـ لم يُطلق أحد النار من السيارة.
ـ أعني مطاردتها بالسيارة.
قال ويلسون:
ـ لا يحصل هذا عادة. وقد بدا لي رياضياً تماماً بينما كنا نقوم به بهذه الطريقة. فقد تتاح فرص أكثر بالمطاردة بالسيارة بتلك الطريقة عبر سهل مليء بالحفر وشيء أو آخر هنا وهناك من المطاردة على الأقدام. وقد كان البافالو قادراً على مهاجمتنا في كل مرة أطلقنا عليه النار إن شاء ذلك. لقد منحناه كل فرصة. لكنك لن تذكري هذا لأي انسان. فهذا عمل غير قانوني إنْ كان ذلك ما تعنينه.
قالت مارجوت:
ـ بدا لي بأنه ظلم، مطاردة تلك الأشياء الضخمة العاجزة بالسيارة.
قال ويلسون:
ـ هل الأمر كذلك؟.
ـ ماذا سيحدث إذا سمعوا عن هذا في نيروبي؟.
قال ويلسون وهو يتناول جرعة من القارورة:
ـ سأفقد رخصتي من جهة. والمزعجات الأخرى هي فصلي من العمل.
ـ حقاً؟.
ـ نعم، هذا صحيح.
قال ماكومبير:
ـ حسناً.
وابتسم لأول مرة في هذا اليوم.
ـ لديها الآن شيء ضدك.
قالت مارجوت ماكومبير:
ـ لك طريقة تافهة في التعبير عن الأشياء يا فرانسيس.
نظر ويلسون إليهما كليهما، كان يفكر: إذا تزوج قوّاد من امرأة عاهرة ماذا

سيكون أطفالهما*؟ لكن ما قاله كان:
- لقد خسرنا حامل بنادق. ألاحظتَ هذا؟.
قال ماكومبير:
- يا إلهي. لا.
قال ويلسون:
- ها هو قادم. إنه بخير. لا بد أنه تخلّف عنا حين تركنا الثور الأول. كان الذي يقترب منهم هو حامل البنادق متوسط العمر، وكان يعرج وهو معتمر بقبعته المحبوكة ومرتدياً سترته الخاكي وسرواله القصير ومنتعلاً صندله المطاطي، وكان وجهه متجهماً مقرف المظهر. حالما وصل إليهم، صاح لويلسون باللغة السواحلية، فرأيا التغيّر الذي طرأ على وجه الصياد الأبيض.
سألت مارجوت:
- ما الذي يقوله؟.
قال ويلسون وصوته خال من أي تعبير:
- يقول بأن الثور الأول قد نهض ودخل الأجمة.
قال ماكومبير بخواء:
- آه.
قالت مارجوت متحفزة:
- إذن، سيكون كالأسد تماماً.
قال ويلسون:
- لن يكون كالأسد قط. أتريد جرعة أخرى يا ماكومبير؟.
قال ماكومبير:
- نعم، شكراً.
توقع أن يعاوده الاحساس الذي تملكه تجاه الأسد، لكنه لم يحدث. فلأول مرة في حياته، شعر شعوراً حقيقياً بأنه لا يحس بالخوف أبداً. وبدلاً من ذلك، أحس بزهو تام.
قال ويلسون:
- سنذهب ونلقي نظرة على الثور الثاني. سأطلب من السائق أن يضع السيارة في الظل.

* في الأصل: إذا تزوج رجل من أربعة حروف من إمرأة من خمسة حروف، فكم سيكون عدد حروف أطفالهما؟.

سألت مارجوت ماكومبير:

ـ ماذا ستفعلان؟ .

قال ويلسون :

ـ سنلقي نظرة على الثور.

ـ سآتي .

ـ تعالي .

تقدم ثلاثتهم إلى حيث كان البافالو الثاني منطرحاً ككتلة سوداء في الأرض المكشوفة ورأسه يميل إلى الأمام على العشب وقد انفتح قرناه على سعتهما .

قال ويلسون :

ـ له رأس رائع جداً . حوالي الخمسين بوصة عرضاً .

كان ماكومبير ينظر إليه وقد غمرته البهجة .

قالت مارجوت :

ـ منظره كريه . ألا نستطيع الذهاب إلى الظل .

قال ويلسون :

ـ طبعاً .

ثم قال لماكومبير وهو يشير:

ـ أنظر. أترى تلك البقعة من الأجمة؟ .

ـ نعم .

ـ ذلك هو المكان الذي ذهب إليه الثور الأول . قال حامل البنادق بأن الثور كان منطرحاً على الأرض حين سقط هو نفسه على الأرض . كان يراقبنا ونحن نندفع إلى الأمام كالجحيم بينما كان الجاموسان الآخران يهرولان . وعندما رفع نظره إلى أعلى كان الثور يقف فوقه وينظر إليه . جرى حامل البنادق كالجحيم بينما سار الثور مبتعداً ببطء إلى داخل الأجمة .

سأل ماكومبير بلهفة :

ـ أنستطيع أن ندخل وراءه الآن؟ .

نظر إليه ويلسون مقيّماً . فكر: ملعون أنا إنْ لم يكن هذا غريباً . بالأمس كان خائفاً إلى حد الغثيان واليوم يصبح بالغ نار متورد الوجه .

ـ لا، سنعطيه مهلة .

قالت مارجوت :

ـ لنذهب إلى الظل من فضلكما .

كان وجهها أبيض وبدت مريضه.

ساروا إلى السيارة حيث كانت تقف تحت شجرة وحيدة وارفة الظلال، وصعدوا إليها كلهم.

علّق ويلسون:

- هناك احتمال في أن يكون هناك. بعد وهلة، سنلقي نظرة.

شعر ماكومبير بسعادة عنيفة غير معقولة لم يعرف مثلها من قبل.

قال:

- يا إلهي، تلك مطاردة. لم أحسّ بهذا الاحساس من قبل. ألم تكن مدهشة يا مارجوت؟.

- كرهتها..

- لماذا؟.

قالت بمرارة:

- كرهتها. مقتُّها.

قال ماكومبير لويلسون:

- أتعرف، لا أظن بأنني سأخاف من أي شيء بعد الآن. لقد حدث شيء فيّ بعد أن رأينا البافالو لأول مرة وبدأنا نطارده. مثل سد ينفجر. كانت إثارة خالصة.

قال ويلسون:

- تنظف كبدك. تصيب الناس أشياء غريبة لعينة.

كان وجه ماكومبير متألقاً.

قال:

- أتعرف، لقد حدث لي شيء، إنني أحس بأنني مختلف تماماً.

لم تقل زوجته شيئاً وحدجته بعينيها بنظرة غريبة. كانت تجلس وهي تميل إلى أقصى مكان في مؤخرة المقعد بينما كان ماكومبير يميل إلى الأمام متحدثاً إلى ويلسون الذي كان يلتفت جانباً ليتكلم من فوق ظهر المقعد الأمامي.

قال ماكومبير:

- أتعرف؟ أود أن أجرّب أسداً آخر. أنا لستُ خائفاً من الأسد الآن حقاً. وعلى كل، ماذا سيفعل بك؟.

قال ويلسون:

- هذا صحيح. أسوأ ما يستطيع أحدها أن يفعله هو أن يقتلك. ما هو القول؟ شكسبير. رائع لعين. لأرى إنْ كنت أستطيع أن أتذكر. أوه، جيد لعين. اعتدتُ

الاستشهاد به لنفسي بين وقت وآخر. لِنَرَ: «في الحقيقة، إنني لا أبالي، فالانسان يموت مرة واحدة فقط، ونحن مدينون لله بميتة واحدة، فلتأتنا بأية طريقة تشاءها، فمن يموت هذه السنة، سينجو في السنة التالية» كلام جميل لعين، إيه؟.

كان مرتبكاً جداً لذكر هذا الشيء الذي عاش به، لكنه كان قد رأى رجالاً يبلغون سن الرشد من قبل فكان هذا يحرّك مشاعره دائماً. ولم يكن أمراً مرتبطاً بعيد ميلادهم الحادي والعشرين.

وكانت قد أوصلتْ ماكومبير إلى ذلك السن فرصةُ صيد غريبة وانغماس فجائي في عمل لم يُتح له فرصة قلق مسبقة، لكن ذلك تحقق يقيناً بغض النظر عن كيفية تحققه. فكر ويلسون: أنظر إلى هذا المتسول الآن. تظل حياتهم كلها أحياناً. وتبقى أشكالهم صبيانية حين يبلغون الخمسين. الأولاد الرجال الأمريكيون العظام. شعب غريب لعين. لكنه أحب هذا الماكومبير الآن. شخص غريب لعين. ربما يعني نهاية التديُّث أيضاً.

حسناً، سيكون هذا أمراً طيباً لعيناً. شيء جيد لعين. ربما ظل هذا الشحاذ خائفاً طيلة حياته. لا تعرف ما الذي بدأ بهذا الخوف. لكنه انتهى الآن. لم يكن في وقته متسع ليخاف من الثور. لذلك ولأنه كان غاضباً أيضاً. السيارة أيضاً. تجعل السيارات الأمرَ مألوفاً. أصبح الآن آكل نيران لعين. لقد رأى هذا في الحرب بنفس الطريقة. تغيير فقط أكثر منه فقدان عُذرية. اختفى الخوف كعملية جراحية. نما شيء آخر في محله. شيء رئيسي لدى الانسان. تَخْلِقُ منه رجلاً. النساء يعرفن هذا أيضاً. أليس خوفاً دموياً؟.

نظرت مارجوت ماكومبير من ركن المقعد البعيد إلى الرجلين. لم يكن ثمة تغيّر في ويلسون. رأتْ ويلسون كما رأته في اليوم السابق حينما أدركت لأول مرة الموهبة العظيمة التي يتمتع بها. لكنها رأت التغيّر الذي طرأ على فرانسيس ماكومبير الآن.

سأل فرانسيس ماكومبير وهو لا يزال يستكشف ثروته الجديدة:

ـ أيخالجك ذلك الشعور بالسعادة لما سيحدث؟.

قال ويلسون وهو ينظر إلى وجه الآخر:

ـ ليس من المفروض أن تذكر هذا. من الأمور المألوفة جداً القول بأنك خائف انتبه، سترتعب أيضاً، في مرات كثيرة العدد.

ـ لكن شعوراً بالسعادة يخالجك حيال ما سيحدث.

قال ويلسون:

- نعم. ذلك هو الأمر. ليس مناسباً الكلام كثيراً جداً عن كل هذا. اذكر الأمر كله. دفعة واحدة ثم أنهه. لن تجد لذة في أي شيء إنْ أنتَ ذكرتَه كثيراً.

قالت مارجوت:

- كلاكما يتحدث هراء. لمجرد أنكما طاردتما بعض الحيوانات العاجزة في سيارة تتكلمان كالأبطال.

قال ويلسون:

- آسف. تبجحتُ كثيراً جداً.

فكر: لقد أزعجها هذا في السابق.

سأل ماكومبير زوجته:

- إنْ لم تفهمي ما نقوله، فلِمَ لا تخرجي منه؟.

قالت زوجته باحتقار:

- أصبحتَ شجاعاً إلى حد رهيب، وعلى نحو فجائي رهيب.

لم تكن باحتقارها آمنة. كانت خائفة جداً من شيء ما.

ضحك ماكومبير ضحكة طبيعية جداً:

- أنتِ تعرفين بأنني أصبحتُ كذلك. لقد أصبحتُ كذلك حقاً.

قالت مارجوت بمرارة:

- أليس هذا متأخراً إلى حد ما؟.

لأنها بذلتْ قصارى جهدها خلال سنين عديدة في الماضي، فإن حياتهما معاً وحسبما تسير عليه الآن، ليست غلطة أحد.

قال ماكومبير:

- ليس متأخراً بالنسبة إليّ.

لم تقل مارجوت شيئاً، بل جلستْ مائلةً إلى الخلف في ركن المقعد.

سأل ماكومبير ويلسون بمرح:

- أترى بأننا قد منحناه ما يكفي من وقت؟.

قال ويلسون:

- يمكننا القاء نظرة. بقيت معك بعض الطلقات؟.

- لدى حامل البنادق بعضها.

نادى ويلسون باللغة السواحلية، فاعتدل حامل البنادق كبير السن الذي كان يسلخ جلد الرأس، واخرج صندوق طلقات من جيبه وقدمه لماكومبير الذي ملأ بها خزنة بندقيته ووضع باقي الطلقات في جيبه.

قال ويلسون :

ـ يمكنك أن تطلق بندقية سبرنجفيلد أيضاً. لقد اعتدتَ عليها. سنترك بندقية مانليتشر في السيارة مع المصاحب. يستطيع حالم بنادقك حمل بندقيتك الثقيلة. فلدي أنا هذا المدفع اللعين. والآن لأحدثك عن البافالو.

كان قد وفَّر هذا القول حتى آخر لحظة حتى لا يزعج ماكومبير.

ـ عندما يقترب بافالو، يقترب ورأسه يرتفع عالياً ويندفع إلى الأمام مستقيماً فتحمي مقدمة قرونه الدماغ من الاصابة بأية طلقة. والطلقة الوحيدة الصائبة هي المستقيمة إلى الأنف تماماً. والطلقة الأخرى الوحيدة هي الضاربة صدره أورقبته أوكتفيه إنْ كنتَ عند أحد جانبيه. وبعد أن تصاب مرة فإنها تحتاج إلى جهد كبير لقتلها. فلا تحاول أي عمل خيالي. بل أطلق أسهل طلقة يمكنك إطلاقها. لقد أنهوا سلخ جلد الرأس الآن. هل ننطلق؟.

نادى على حامليّ البنادق اللذين حضرا وهما يمسحان أيديهما، فجلس الأكبر سناً في الخلف.

قال ويلسون :

ـ سآخذ كونجوني فقط. يستطيع الآخر المراقبة لابعاد الطيور.

حالما تحركت السيارة ببطء عبر الفسحة المكشوفة نحو جزيرة الشجيرات الكثيفة التي تمتد على شكل لسان من الأوراق الخضراء على طول ممر مائي جاف يقطع المستنقع المكشوف، أحسّ ماكومبير بقلبه يخفق ثم أصبح فمه جافاً مرة أخرى، لكن هذا كان انفعالاً ولي خوفاً.

قال ويلسون :

ـ ها هو المكان الذي دخل إليه.

ثم قال لحامل البنادق بالسواحلية :

ـ إقتفِ أثر الدماء.

كانت السيارة موازية للأجمة. نزل ماكومبير وويلسون وحامل البنادق من السيارة. ورأى ماكومبير، وهو ينظر إلى الخلف، زوجته والبندقية إلى جانبها تنظر إليه. لوّح بيده لها، لكنها لم ترد التلويحة.

كانت الأجمة تمتد كثيفة جداً أمامهم، والأرض جافة. وكان حامل البنادق متوسط العمر يتصبب عرقاً غزيراً بينما كان ويلسون قد وضع قبعته على عينيه فرأى ماكومبير رقبته الحمراء أمامه تماماً. فجأة، قال حامل البنادق شيئاً باللغة السواحلية لويلسون وجرى إلى الأمام.

قال ويلسون :

ـ إنه ميت هناك . عمل رائع .

واستدار ليمسك بيد ماكومبير، وبينما كانا يتصافحان وكل واحد يبتسم للآخر ابتسامة عريضة ، صاح حامل البنادق بعنف ورأوه يخرج من جانب الدغل مسرعاً سرعة سرطان البحر، والثور يتقدم ، وأنفه يندفع أمامه وفمه محكم الاطباق ، بينما الدم يقطر منه ،ورأسه الضخم أمامه ، مندفعاً بهجوم ، وعيناه الخنزيريتان الصغيرتان محتقنتان بالدم وهو ينظر إليهما . كان ويلسون ، الذي كان في المقدمة ، قد ركع وأخذ يطلق النار، كما رأى ماكومبير، وهو يطلق النار من بندقيته دون أن يسمع صوت طلقاته بسبب صوت بندقية ويلسون ، ورأى شظايا كالاردواز تتناثر من مقدمة القرون الضخمة ، واهتز الرأس ، وأطلق النار مرة أخرى على المنخرين الواسعين فرأى القرنين يرتجّان مرة أخرى والشظايا تتطاير، لكنه لم يكن يرى ويلسون في تلك اللحظة ، وأطلق النار مرة أخرى ، وهو يصوّب بحرص وكتلة جسم البافالو الضخمة تكاد تحط عليه وبندقيته تكاد تكون في مستوى الرأس المتقدم والأنف المندفع إلى الأمام ، حتى أصبح بوسعه أن يرى العينين الشريرتين الصغيرتين كما أخذ الرأس ينخفض ، ثم أحس بوميض فجائي ساخن أبيض يعمي الأبصار ينفجر داخل رأسه ، فكان ذلك كل ما أحس به .

كان ويلسون قد ارتكز على أحد جنبيه حتى يمكنه اصابة الكتف . بينما كان ماكومبير قد وقف وقفة صلبة وأطلق مصوِّباً على الأنف ، مطلقاً النار إلى الأعلى قليلاً كل مرة ضارباً القرنين الثقيلين ، مشظِّياً إياهما ومقطّعاً إياهما قطعاً صغيرة كأنه كان يضرب سطح اردواز، فاطلقت السيدة ماكومبير النار وهي في السيارة على الثور طلقة عيار ٥ , ٦ من بندقية مانليتشر حينما بدا لها بأنه على وشك أن يبقر ماكومبير فأصابت زوجها على ارتفاع بوصتين في أعلى أحد جانبي جمجمته على مسافة قصيرة من ذلك الجانب .

سقط فرانسيس ماكومبير الآن ووجهه إلى الأسفل على بُعد يقل عن ياردتين من المكان الذي انطرح فيه البافالو على جنبه ، بينما ركعتْ زوجته فوقه وويلسون إلى جانبها .

قال ويلسون :

ـ لن أقلبه .

كانت المرأة تبكي بكاء هستيرياً .

قال ويلسون :

ـ سأرجع إلى السيارة. أين البندقية؟.

هزّت رأسها وقد تشوّه وجهها. التقط حامل البنادق البندقية.

قال ويلسون:

ـ أتركها حيث هي.

ثم:

ـ اذهب وأحضر عبدالله ليشهد على كيفية وقوع الحادث.

ركع وأخرج منديلاً من جيبه وفرده فوق رأس فرانسيس ماكومبير المقصوص قصة البحارة القصيرة حيث ينطرح أرضاً. بينما الدم يغرق في الأرض الجافة الرخوة.

وقف ويلسون ورأى البافالو منطرحاً على جنبه، وقوائمه ترتفع عالياً وبطنه خفيف الشعر ومسرح لزحف القرّادات. سجل عقله بصورة تلقائية: «ثور جهنمي رائع جداً. خمسون بوصة رائعة أو أروع، أكثر روعة». نادى على السائق وطلب منه فرد بطانية على الجثة والبقاء إلى جانبه. ثم مشى مقترباً من السيارة حيث كانت المرأة تجلس باكية في الركن.

قال بصوت غير واضح المعالم:

ـ ذلك عمل رائع، ذلك الذي قمتِ به. كان سيتركك.

قالت:

ـ أسكت.

قال:

ـ لا تنزعجي. سيكون هناك قدر معين من المنغصات لكنني سآخذ بعض الصور التي ستكون مفيدة في التحقيق. هناك شهادة حاملي البنادق والسائق أيضاً. أنتِ آمنة تماماً.

قالت:

ـ أسكتْ.

قال:

ـ هناك جحيم مما لا بد أن نفعله. يجب أن أرسل شاحنة إلى البحيرة ليتصلوا لاسلكياً طالبين طائرة لتأخذنا ثلاثتنا إلى نيروبي. لِمَ لم تسمميه؟ ذلك ما يفعلونه في انجلترا.

صرخت المرأة:

ـ أسكت! أسكت! أسكت!.

نظر إليها ويلسون بعينيه الزرقاوين الباردتين.

قال:

- لقد انتهيتُ الآن. كنتُ غاضباً قليلاً، وكنتُ قد بدأتُ أحب زوجك.

قالت:

- من فضلك، أسكت! أرجوك، أرجوك أسكت.

قال ويلسون:

- ذلك أفضل. كلمة من فضلك أفضل كثيراً. والآن، سأسكتْ.

عاصمـــة العـــالم

تعـج مدريـد بأولاد يحملون اسم باكو، وهو صيغة تصغير لاسم فرانسيسكو، وهناك نكتة متداولة عن رجل حضر إلى مدريد ونشر إعلاناً في الأعمدة الشخصية لجريدة ال ليبيرال El-Liberal قال فيه :

«بـاكـو: قابلني في فنـدق مونتـانـا ظهـر يوم الثـلاثـاء، صفحت عن كل ما حدث ـ والـدك». وتتـابـع النكتـة واصفـةً كيف استدعيتْ سرية من الحرس المدني لتفريق ثمـانمـائـة شاب جاءوا استجـابـة للاعـلان. لكن باكو هذا الذي يعمل على خدمة الزبائن في نزل لواركا ليس لديه والد ليصفح عنه، كما أنه لم يقترف ذنباً ليصفح عنه والـده. فقـد كانت له اختـان تكبـرانـه سنـاً وتعمـلان في خدمة غرف النوم في نزل لواركا، وكانتا قد شغلتا مركزيهما في العمل لأنهما قَدِمَتا من نفي القرية التي جاءت منها خادم تعمل في النزل نفسه وأثبتت خلال مدة عملها بأنها خادم مجدّة وأمينة مما منح قريتها ومنتجاتها سمعة طيبة، وكانت هاتان الأختان قد دفعتا أجرة سفر باكو في الحافلة إلى مدريد وحصلتا له على وظيفته كنادل تحت التدريب. لقد جاء من قرية في جزء من اكـسـتـريمـادورا حيث كانت الظـروف بدائية بشكل لا يُصدق، والطعام نادراً والرفاهيات مجهولة، وقد عمل بجد منذ اللحظة التي يتذكرها.

كان ولـداً حسن البنيـان له شعر فاحم السواد، جعد إلى حد ما، وأسنان قوية وبُشـرة تحسـده عليهـا اختـاه، كما كان يتمتع بابتسـامة رشيقة وصريحة. كان سريع الحـركـة ويقوم بعمله خير قيام ويحب أختيه اللتين بدتا له جميلتين وغير متكلفتين، كما أحب مدريد التي ظلت مكاناً غير معقول وأحبّ عمله الذي بدا له جميلاً جمالاً رومانسياً وهو يقوم به تحت أضواء ساطعة فيه ملاءات بيضاء وهو مرتدٍ ملابس المساء وطعام وفير في المطبخ.

كان ما بين ثمـانيـة إلى إثني عشـر شخصـاً آخـر يقيمون في نزل لواركا وكانوا يتنـاولـون الطعـام في غرفـة الطعام، لكن الأشخاص الوحيدين الذين يوجدون حقاً بالنسبـة إلى باكـو، أصغر نادل من الندل الثلاثة الذين يعملون على خدمة الموائد، فقد كانوا مصـارعي الثيران.

فمصـارعـو ثيـران من الـدرجة الثانية يقيمون في ذلك المنزل لأن العنوان في كالي سان جيـرونيمـو كان جيداً، والطعام كان ممتازاً وأجرة الغرفة وثمن الطعام كانا رخيصين. فمن الضروري أن يظهر مصارع الثيران بمظهر الاحترام على الأرض إنْ

لم يكن بمظهر النجاح، لأن الوقار والذوق الرفيع يعلوان على الشجاعة ولأن الفضائل تُبَجَّل تبجيلاً عظيماً في اسبانيا، لذلك اعتاد مصارعو الثيران البقاء في نزل لواركا حتى تختفي آخر بيزيتا معهم. ولم يُسجل قط أن أي مصارع ثيران كان قد غادر نزل لوركا إلى فندق أفضل أو أغلى، فلا يصبح مصارعو ثيران في الدرجة الثانية مصارعي ثيران درجة أولى قط، لكن الهبوط من نزل لوراكا يكون سريعاً حيث أن باستطاعة أي شخص يكسب أي مبلغ من المال أن يبقى هناك كما أن قائمة الحساب لا تُقدم إلى أي نزيل، دون طلب منه، إلاّ بعد أن تتأكّد المرأة التي تدير النُزل من أن تلك الحالة ميئوس منها.

في ذلك الوقت، أقام في نزل لواركا ثلاثةُ مصارعي ثيران مؤهلين يحملون هذا اللقب ونخازان picadors جيدان جداً وحامل أعلام banderillero ممتاز. وكان نزل لوراكا نوعاً من الترف والتبذير بالنسبة للنخّازين وحاملي الأعلام الذين يتحتم عليهم الاقامة في مدريد خلال موسمُ الربيعُ بينما تقيم علائلاتهم في اشبيلية، لكنهم كانوا يتقاضون أجوراً جيدة ويعملون على نحو ثابت مع مصارعين متعاقدين للقيام بعروض عديدة خلال الموسم القادم، وقد يكسب هؤلاء التابعون الثلاثة في الحفلة الواحدة أكثر مما يكسبه أيٌ من المصارعين الثلاثة. كان أحد هؤلاء المصارعين الثلاثة مريضاً ويحاول إخفاء عِلّته هذه، بينما كان الثاني قد تجاوز شعبيته التي استمرت لفترة قصيرة، أما الثالث فكان جباناً.

كان الجبان في وقت من الأوقات شجاعاً شجاعة رائعة وماهراً مهارة ملحوظة إلى أن أُصيب بجرحِ قرن مروِّع عجيب في الجزء السفلي من بطنه عند بدء موسمه الأول كمصارع ثيران كامل، وظل يتمتع بكثير من طريقته المُمَيَّزة العنيفة التي كان يتمتع بها أيام نجاحه. كان جَذِلاً إلى حدّ الافراط، ويضحك باستمرار بسبب أو بلا سبب. وكان مدمناً، أثناء حياته العملية الناجحة، على إطلاق مداعباته السمجة ضد الآخرين، لكنه توقف عن ممارسة عادته الآن. وقد أكدتْ تلك المداعبات السمجة عدم إحساسه بالآخرين. وكان لهذا المصارع وجه ذكي وصريح جداً، بينما كان سلوكه متأنقاً.

وكان المصارع المريض حريصاً كل الحرص على ألاّ يظهر مرضه وحريصاً كل الحرص كذلك على أن يأكل القليل من كل طبق يوضع على المائدة أمامه. وكان لديه الكثير جداً من المناديل التي كان يغسلها بنفسه في غرفته، وقد أخذ يبيع بدلات مصارعته مؤخراً. فباع واحدة، بسعر رخيص، قبل عيد الميلاد وبدلة أخرى في أول أسبوع من شهر ابريل / نيسان. كانتا بدلتين غاليتَي الثمن جداً، وكان

يُحافظ عليهما محافظة شديدة، إلى أن بقيت لديه بدلة أخيرة. وقبل أن يصاب بالمرض، كان يبشر بنجاح حتى أنه كان مصارعاً مثيراً، وقد احتفظ بقصاصات جرائد ذكرت بأنه كان أفضل من المصارع بلمونتي أثناء عرضه الأول في مدريد بالرغم من أنه لم يكن يعرف القراءة. وكان يأكل وحيداً على طاولة صغيرة ونادراً ما كان يرفع رأسه عن المائدة.

وكان المصارع الذي كان بدعةً في يوم من الأيام قصيراً جداً وأسمر اللون ووقوراً جداً. وكان يأكل كذلك وحيداً على طاولة منفصلة ونادراً جداً ما كان يتبسم كما لم يكن يضحك إطلاقاً. وقد أتى من بلد الوليد حيث الناس هناك جادون بافراط، وقد كان مصارعاً قديراً، لكن أسلوبه أصبح قديم الطراز قبل أن ينجح في تحبيب نفسه إلى الجمهور للفضائل التي يتحلى بها، وهي الشجاعة والقدرة الهادئة، كما لم يكن اسمه المذكور في ملصق جداري يجذب أحداً إلى حلبة المصارعة. والجديد في أمره أنه كان قصيراً جداً حتى أنه كان لا يكاد يُرى من فوق حارك الثور، لكن، كان ثمة مصارعون آخرون قصار القامة، كما أنه لم ينجح قط في فرض نفسه على خيال الجمهور.

كان أحد النخازين الفرسان نحيلاً، صقري الوجه، أشيب الشعر خفيف البنيان، لكن ساقيه وذراعيه كانت قوية كالحديد، وقد كان يلبس دائماً جزمة رعاة بقر تحت سرواله، ويشرب كثيراً كل مساء ويحدِّق بهيام في أية إمرأة في النزل. كان الآخر ضخماً أسمر البشرة والوجه، جميل الصورة له شعر أسود كهندي، ويدان ضخمتان. وكانا نخازَين عظيمين، مع أن أولهما اشتهر بفقد الكثير من قدرته بسبب إسرافه بالشراب والملذات، وكان الآخر عنيد الرأس ومحباً للعراك جداً حتى أنه لم يكن يعمل مع مصارع مدة أطول من موسم واحد.

كان حامل العلم متوسط العمر، أشيب، سريعاً كقط بالرغم من كبر سنه، وكان يبدو، وهو يجلس إلى المائدة، كرجل أعمال متوسط النجاح. وكانت ساقاه لا تزالان صالحتين لهذا الموسم، وعندما ستضعفان فإن ذكاءه وحنكته ستعملان على إستمراره في العمل المنتظم مدة طويلة. والتغيّر الذي سيطرأ عليه حين تختفي سرعة قدميه هو الشعور الدائم بالخوف بينما هو الآن يحس بالثقة والهدوء في الحلبة وخارجها.

في هذا المساء غادر الكل غرفة الطعام ما عدا النخّاز الصقري الوجه الذي أفرط بالشراب، ودلاّل الساعات في أسواق واحتفالات اسبانيا المرتسمة على وجهه وحمة والذي أفرط بالشراب أيضاً وقسيسين من جاليسيا اللذين كانا يجلسان إلى

طاولة ركنية ويشربان ما يناسبهما إنْ لم يكونا قد أفرطا بالشراب . وكان النبيذ في ذلك الوقت يُحسب ضمن أجرة الغرفة وثمن الطعام في نزل لواركا ، وكان الندل قد أحضروا قناني جديدة من نبيذ بلد بينياس إلى موائد الدلاّل ، ثم إلى النخّاز ، وأخيراً إلى القسيسين .

كان الندل الثلاثة يقفون عند نهاية الغرفة . فقد كان من قواعد المحل أن يواصلوا القيام بواجباتهم إلى أن يغادر كل الزبائن ، المعتبرين ضمن مسؤولياتهم ، المطعم ، لكن النادل الذي كان يخدم مائدة القسيسين كان مرتبطاً بموعد لحضور اجتماع نقابة فوضوية ، وكان باكو قد وافق على تولي أمر خدمة مائدته بدلاً منه .

في الطابق العلوي ، كان مصارع الثيران المريض ممداً على السرير ووجهه إلى الأسفل وهو وحيد . وكان المصارع الذي لم يعد بدعة يجلس ناظراً من نافذته وقد استعد للخروج إلى المقهى . بينما كانت مع مصارع الثيران الجبان أخت باكو الكبرى في غرفته وكان يحاول حملها على فعل شيء كانت ترفض القيام به ضاحكة .

كان هذا المصارع يقول لها :

- تعالي ، أيتها المتوحشة الصغيرة .

وقالت أخت باكو :

- لا . لماذا لا بد أن آتي ؟ .

- تصنعين معروفاً .

- لقد أكلتَ والآن تريدني للتحلية .

- مرة واحدة فقط . ما الضرر الذي تسببه ؟ .

أُتركني . أُتركني وشأني ، قلت لك .

- انه شيء قليل الشأن جداً الذي ستفعلينه .

- أُتركني وشأني ، قلت لك .

في الأسفل في غرفة الطعام ، قال أطول الندل ، والذي تأخر عن اجتماعه :

- أنظر إلى شرب ذلكما الخنزيرين الأسودين .

رد عليه النادل الثاني :

- تلك ليست طريقة كلام . إنهما زبونان محترمان . إنهما لا يشربان كثيراً .

قال النادل الطويل :

- إنها بالنسبة إليّ طريقة جيدة للكلام . هناك بلاءان يصيبان اسبانيا : الثيران والقسس .

قال النادل الثاني :

ـ ليس الثور الفرد ولا القسيس الفرد يقيناً.

قال النادل الطويل :

ـ نعم. فمن خلال الفرد فقط تستطيع أن تهاجم الطبقة. فمن الضروري قتل الثور الفرد والقسيس الفرد. كلهم. ثم لا يعود منهم أحد باق.

قال النادل الآخر:

ـ وفّر هذا للاجتماع.

قال النادل الطويل :

ـ أنظر إلى بربريه مدريد. الساعة الآن الحادية عشرة والنصف وما زال هذان يكرعان الكؤوس.

قال النادل الآخر:

ـ لقد بدآ يتناولان الطعام في الساعة العاشرة فقط. وكما تعرف، هناك أطباق كثيرة. وذلك النبيذ رخيص وقد دفعا ثمنه. إنه ليس نبيذاً قوياً.

تساءل النادل الطويل :

ـ كيف يمكن تحقيق التضامن بين العمال مع وجود أغبياء مثلك؟.

قال النادل الثاني الذي كان في الخمسين من عمره :

ـ اسمع، لقد اشتغلتُ طيلة حياتي. ولا بد أن أستمر في العمل فيما بقي من حياتي. ليس لدي أية شكاوي ضد العمل. إن القيام بالعمل أمر طبيعي.

ـ نعم، لكنَّ قلةَ العمل تقتل.

قال النادل الأكبر سناً :

ـ لقد اشتغلتُ طيلة حياتي. إذهب إلى الاجتماع. ليس ضرورياً بأن تبقى.

قال النادل الطويل :

ـ أنتَ رفيق طيب. لكن، تنقصكم كلكم الأيدولوجية.

قال النادل الأكبر سناً :

ـ Mejor si me falta eso que el otro.

(وهو يعني : من الأفضل أن تنقصنا الأيدولوجية على أن ينقصنا الشغل). إذهب إلى الاجتماع.

لم يقل باكو شيئاً. لم يكن يفهم في السياسة لكن سماعه للنادل الطويل وهو يتكلم عن ضرورة قتل القسس والحرس المدني كان يثيره دائماً. كان النادل الطويل يمثل الثورة بالنسبة إليه وكانت الثورة رومانسية أيضاً. كان يرغب هو نفسه في أن

يصبح كاثوليكياً طيِّباً، وثورياً، ويكون لديه عمل ثابت كهذا العمل بينما يكون في نفس الوقت مصارع ثيران.

قال للنادل الطويل:

ـ إذهب إلى الاجتماع يا إجناسيو، سأقوم بعملك.

قال النادل الأكبر سناً:

ـ نحن الاثنان.

قال باكو:

ـ لا يوجد ما يكفي لواحد. إذهب إلى الاجتماع.

قال النادل الطويل:

ـ Pue, me voy. وشكراً.

أثناء ذلك وفي الطابق العلوي، تخلَّصت أخت باكو من عناق مصارع الثيران بمهارة مصارع يتخلص من مسكة ثم قالت:

ـ هؤلاء هم الناس الجياع. مصارع ثيران فاشل: «مع حِمْلك من الخوف الذي يزن طناً. إن كان لديك الكثير من ذلك، فاستعمله في الحلبة».

ـ تلك طريقة تتكلم بها عاهرة.

ـ العاهرة امرأة أيضاً، لكنني لست عاهرة.

ـ ستكونين عاهرة.

ـ ليس عن طريقك.

قال المصارع الذي صُدَّ ورُفض. فأحس بعري جنبه يعود إليه:

ـ أُتركيني.

قالتْ أُخت باكو:

ـ أتركك؟ ما الذي لم يتركك؟ ألا تريدني أن أرتِّب السرير؟ إنني اتقاضى أجراً عن ذلك.

قال المصارع وقد تغضَّن وجهه العريض الجميل في التواء يشبه البكاء.

ـ أتركيني. أنتِ عاهرة صغيرة. أنتِ عاهرة صغيرة قذرة.

قالت وهي تغلق الباب:

ـ يا مصارع الثيران. يا مصارعي.

في داخل الغرفة، جلس مصارع الثيران على السرير. ظل وجهه راسماً الالتواء الذي كان يحوِّله في الحلبة إلى ابتسامة ثابتة كانت تخيف أولئك الذين يجلسون في صف المقاعد الأولى والذين كانوا يعرفون ما كانوا يشاهدونه. وكان

يقول بصوت عال:
ـ وهذه. وهذه.

تذكر وقت أن كان مصارعاً رائعاً وكان ذلك قبل ثلاث سنوات فقط. تذكر ثقل جاكتة مصارعة الثيران الثقيلة المرصّعة بالذهب على كتفيه بعد ظهر ذلك اليوم الحار في مايــو/ ايـار حين كان صوتـه نفس الصـوت في الحلبـة وفي المقهى وكيف كان يحدّق في حد الرأس الغاطس في ذلك المكان على قمة الكتفين حيث يكون مغبّراً على حدبـة العضــل السـوداء قصيـرة الشعـر فوق القرنين ضاربي الخشب مشظيّ الحـواف اللذين انخفضـا وهو يمارس القتل، وكيف اندفع السيف بسهولة كاندفاعه في كتلة زبـدة صلبـة وراحـة يده تدفع رُمانة السيف بينما ذراعه الأيسر يتصالب إلى أسفل وكتفه الأيسر يندفع إلى الأمام، وقد ارتكز ثقله على ساقه اليسرى ثم لم يعد ثقله على ساقـه. كان ثقله على بطنـه السفلي، واختفى القـرن عن الأنظار داخله* حينمـا رفـع الثـور رأسـه، ودار* على القـرن مرتين قبل أن يسحبوه بعيداً عن الثور، لذلـك، لـم يكن يستطيـع الآن النظـر إلى القرنين حين يمارس القتل، وكان نادراً ما يمـارس هذا القتـل، ماذا تعـرف أية عاهرة عما يعانيه قبل أن يبدأ القتال؟ وما الذي عانينه حتى يضحكن عليه؟ كلهن عاهرات وهن يعرفن ما يمكنهن أن يفعلن به.

وفي غرفة الطعام في الطابق السفلي، جلس النخّاز ناظراً إلى القسيـسين. لو كانت في الغـرفـة نسـاء لحـدّق فيهن. وإنْ لم يكن هناك نسـاء فإنه يحدّق في رجل أجنبي un ingles، لكنـه حدّق الآن بمتعـة ووقاحة في القسيـسين لعدم وجود نساء أو أجـانب. وبينمـا كان يحـدّق، نهض الـدّلال صاحب الـوحمة وخرج بعد أن طوى منديل الطاولة، تاركاً ما يزيد عن نصف النبيذ في آخر قنينة طلبها. لو كان حسـابه قد دفع بالكامل في نزل لواركا لشرب القنينة حتى آخرها.

لم يبادل القسيسان النخّاز التحدّيق. وكان أحدهما يقول:

ـ مرت عشـرة أيـام عليّ منـذ أن بدأتُ أنتظـر مقـابلته فأجلس طيلة النهار في غرفة الانتظار ولا يستقبلني.

ـ ما الذي ستفعله؟.

ـ لا شيء. ما الذي يستطيع الانسان فعله؟ لا يستطيع الانسان الوقوف ضد السلطة.

ـ لقد أمضيتُ أسبوعين هنا بلا فائدة. إنني أنتظر وهم لا يروني.

ـ نحن من الريف المهمل. حين تنفد نقودنا، نستطيع أن نعود.

* الضمير يعود إلى المصارع. (المترجم).

- إلى الريف المهمل. ما الذي يهم مدريد في أمرجاليسيا؟ نحن اقليم فقير.
- يستطيع الانسان فهم تصرف أخينا باسيليو.
- ما زلت لا أثق باستقامة باسيليو الفاريز.
- مدريد هي المكان الذي يتعلم فيه الانسان كيف يفهم الأمور. مدريد تقتل اسبانيا.
- لو أنهم يقابلون ويرفضون ببساطة.
- لا. لا بد أن تُكسر وتُنهك قواك من طول الانتظار.
- حسناً، سنرى. يمكنني أن أنتظر كأي شخص آخر.

في تلك اللحظة، نهض النخّاز على قدميه ومشى مقترباً من طاولة القسيسين، ووقف، شائب الرأس وصقري الوجه محدّقاً فيهما ومبتسماً.

قال أحد القسيسين للآخر:

- torero توريرو*.

قال النخّاز:

- ومصارع ثيران جيد.

وسار خارجاً من قاعة الطعام بجاكتته الرمادية وخصره المشذّب وساقيه المقوّسين في بنطال ضيّق فوقه جزمة رعاة البقر عالية العقب تقرقع على أرض الحجرة وهو يتمايل بثبات تام مبتسماً لنفسه. كان يعيش في عالم كفاءة شخصية ونصر كحولي ووقاحة، عالم صغير ضيق ومهني. ثم أشعل سيجاراً وبعد أن أمال قبعته على زاوية وهو في الرواق. خرج متجهاً إلى المقهى.

غادر القسيسان المكان بعد النخّاز مباشرة، وبسرعة بعد أن تبينا بأنهما آخر من بقي من الزبائن في قاعة الطعام، فلم يبق في القاعة الآن سوى باكو والنادل متوسط العمر. فنظّفا الموائد وحملا القناني إلى المطبخ.

كان في المطبخ الصبي الذي يغسل الأطباق. كان يكبر باكو بثلاث سنوات وكان شكّاكاً جداً ومريراً.

قال النادل متوسط العمر:

- خذ هذا.

وصبّ كأساً من نبيذ بلد بينياس وناولها له.

- لِمَ لا؟.

وأخذ الصبي الكأس.

* بالاسبانية في الأصل وتعني مصارع ثيران. (المترجم).

سأل النادل الأكبر سناً:

- وأنتَ يا باكو؟.

قال باكو:

- شكراً.

وشرب ثلاثتهم.

قال النادل متوسط:

- سأذهب.

قالا له:

- تصبح على خير.

خرج وبقيا وحدهما. أخذ باكو فوطة طاولة استعملها القسيسان ووقف معتدلاً، وعقباه مغروسان في الأرض ثم خفض الفوطة وأطاح بذراعيه بحركة veronica* ورنيقة كاسحة بطيئة ورأسه يتابع الحركة. إستدار ثم قام بحركة pass مرور ثانية بعد أن دفع قدمه اليسرى إلى الأمام قليلاً ثم اقترب إلى مسافة قصيرة من الثور الخيالي وقام بحركة مرور ثالثة بطيئة ومؤقتة توقيتاً دقيقاً ورشيقة ثم جمع فوطة الطاولة على خصره وأدار ردفيه بعيداً عن الثور بحركة media - veronica نصف ورنيقة.

راقب غاسل الأطباق الذي كان يدعي انريكو، منتقداً ومزدرياً.

قال:

- كيف حال الثور؟.

قال باكو:

- بالغ الشجاعة. أنظر.

وقام بأربع حركات مرور دقيقة ومرنة ورشيقة ولطيفة بينما كان يقف منتصب القامة ونحيلاً.

وسأل انريكو وهو يقف أمام حوض غسيل الأطباق ويحمل كأس نبيذه مثبتاً وزرته عليه:

- والثور؟.

قال باكو:

- ما زال يتمتع بالكثير من القوة.

قال انريكو:

* يجد القارىء شرحاً وافياً لاصطلاحات مصارعة الثيران هذه في مجموعة قصص: «رجال بلا نساء»، وقد ترجمت كل تلك الملاحظات من كتاب همنجواي: «موت بعد الظهر».

ـ أنت تقرفني.

ـ لماذا؟.

ـ أنظر.

نزع انـريكـو وزرته وصاح بالثور الخيالي متحدياً ورسم أربع ورنيقات غجرية هادئة دقيقة وأنهى حركته بـ rebolera ريبوليرا* جعلت الوزرة تدور بعنف راسمة قوساً أمام أنف الثور حينما ابتعد عنه.

قال:

ـ أنظر إلى هذا. وأنا أغسل الأطباق.

ـ لماذا؟.

ـ الخوف! Miedo نفس الخوف الذي يسيطر عليك في حلبة مع ثور.

قال باكور:

ـ لا. لن أشعر بالخوف.

قال انريكو:

ـ Lecha الكل خائف، لكن مصارع الثيران يستطيع السيطرة على خوفه ليكون قادراً على مصارعة الثور، لقد اشتركت في عرض مصارعة هواة وكنت خائفاً جداً إلى درجة أنني لم استطع التوقف عن الجري. يظن الكل بأن الأمر لعب. ستشعر أنتَ بالخوف كذلك. لولا الشعور بالخوف، لأصبح كل ماسح أحذية في إسبانيا مصارع ثيران. ستشعر بالخوف، أنتَ الريفيّ، أكثر مما شعرت به أنا.

قال باكو:

ـ لا.

لقد قام بهذا العمل كثيراً جداً من المرات في خياله. كثيراً جداً من المرات رأى القرنين، ورأى خطم الثور المبلل، والأذن تنتفض مرتعشة، ثم الرأس ينخفض والهجوم، الحوافر تخبط والثور الساخن يمر به حين يدير الـ «كاب» Cape ليعيد الهجوم وهو يلف القطعة مرة أخرى ثم مرة أخرى وأخرى وأخرى لينهي كل هذا وهو يلف الثور بحركة نصف ورنيقة عظيمة، ويمشي مبتعداً وهو يتبختر وشَعْر الثور قد عَلِق بالزينات الذهبية على جاكتته من حركات المرور القريبة، والثور يقف ممغنطاً بينما الجمهور يصفق. لا، لن يخاف. الآخرون، نعم. ليس هو. كان يعرف بأنه لن يخاف حتى وإن خاف في أي وقتٍ إلاّ أنه يعرف بأنه يستطيع المصارعة بطريقة

* rebolera: مرور تزييني بالكاب يُمسَك بها الكاب من أحد نهايتيه ويُدار حتى يرسم دائرة حول الرجل (من كتاب همنجواي: موتٌ بعد الظهر).

ما. فلديه الثقة.

قال بصوت عالٍ:

ـ لن أخاف.

قال انريكو مرة أخرى:

ـ Leche بقرة،

ثم أضاف بعدئذ:

ـ وإذا حاولنا؟.

ـ كيف؟.

قال انريكو:

ـ أنظر. أنتَ تفكر بالثور ولا تفكر بقرنيه. وللثور قوة عظيمة جداً إلى درجة أن قرنيه يقطعان مثل سكين ويطعنان مثل حربة، وهما يقتلان كهراوة. أنظر.

فتح درج الطاولة وأخرج سكينيّ مطبخ.

ـ سأثبّتُ هاتين السكينين على رجلَي كرسي، وسأقوم بدور الثور ممسكاً الكرسي أمام رأسي. السكينان هما القرنان. إنْ تركتهما يمران، فإنهما يعنيان شيئاً.

قال باكو:

ـ أعرني وزرتك. سنقوم بهذا في غرفة الطعام.

قال انريكو وقد فارقته المرارة فجأة:

ـ لا. لا تفعل هذا يا باكو.

قال باكو:

ـ نعم. أنا لستُ خائفاً.

ـ ستخاف حين ترى السكينين تقتربان.

قال باكو:

ـ سنرى. أعطني الوزرة.

في هذا الوقت، وبينما كان أنريكو يربط سكينيّ قطع اللحم الحادتين كموسى حلاقة والثقيلتين بسرعة برجليّ الكرسي بفوطتين متسختين ميرزاً نصف نصل كل منهما، لافّاً إياهما باحكام بعقدهما، كانت خادمتا الغرف، اختا باكو، في طريقهما إلى دار عرض لتشاهدا جريتا جاربو في فيلم: «آني كريستي». وكان أحد القسيسين جالساً في ملابسه الداخلية يقرأ في كتاب صلواته بينما كان الآخر مرتدياً منامته وهو يردد أوراداً. وظهر جميع مصارعي الثيران، باستثناء الذي كان مريضاً، في مقهى فورنوس حيث كان النخّاز الضخم أسود الشعر يلعب البليادرو،

بينما كان المصارع القصير الجاد جالسا إلى طاولة مزدحمة أمام قهوة وحليب مع حامل الراية متوسط العمر وعامل آخر جاد.

كان النخّاز أشيب اللحية جالساً يشرب وكأس براندي كازالاس أمامه محدِّقاً بسرور في طاولة حيث كان يجلس مصارع الثيران الذي تخلَّتْ عنه شجاعته مع مصارع آخر تنازل عن السيف ليصبح حامل راية مرة أخرى مع مومستين منهكتي القوى من أشغال البيوت.

وقف دلّال المزادات في ركن الشارع يتحدث إلى أصدقاء له. وكان النادل طويل القامة في نقابة العمال الفوضوية ينتظر فرصة الكلام. أما النادل متوسط العمر فكان يجلس على كرسي في شرفة مقهى ألفاريز يشرب قليلاً من البيرة. وكانت المرأة التي تملك نزل لواركا ممددة على ظهرها على السرير ووسادة بين رجليها، وهي ضخمة سمينة، أمينة، نظيفة، سهلة الانقياد، شديدة التقوى، ولم تكن تغفل أبداً عن إفتقاد زوجها أو الصلاة يومياً من أجله، زوجها الذي مضى على موته عشرون سنة إلى حد الآن. بينما كان المصارع المريض ممدداً وحيداً على وجهه على سريره وهو يضع منديله على فمه.

والآن، وفي غرفة الطعام المهجورة، ربط أنريكو آخر عقدة من فوطتي المائدة اللتين ثبّتتا السكينين برجليّ الكرسي ورفع الكرسي. سدّد الرجْلين والسكينان تبرزان منهما إلى الأمام، ثم رفع الكرسي فوق رأسه والسكينان مشرعتان إلى الأمام وكل سكين على جانب من جانبي رأسه.

قال:

- إنها ثقيلة. أنظر يا باكو. إنها خطيرة جداً. لا تفعل هذا.

كان يتفصد عرقاً.

وقف باكو يواجهه، فارداً الوزرة أمامه، ممسكاً ثنيةً منها متجمعة في كل يد من يديه وابهامه إلى الأعلى وشاهدُه إلى أسفل، ليُلفتَ أنظار الثور.

قال:

- اهجم مباشرة. دُر كثور. أهجم قدر ما تريد من المرات.

سأل انريكو:

- كيف ستعرف متى ستقطع المرور؟ يحسن أن تقوم بثلاث حركات قَطْع ثم حركة متوسطة واحدة.

قال باكو:

- طيّب. تقدّم مباشرة. هوه. توريتو! تقدم أيها الثور الصغير.

تقـدّم إنـريكو نحو باكو وهو منكس الرأس فأدار باكو الوزرة أمام نصل السكين حالما مرت أمام بطنه تماماً، وفيما كانت تمر به كان القرن الحقيقي أبيض الرأس، أسـود، أملس، وحينمـا مر به انـريكـو ودار لينـدفـع ثانية، كانت كتلة الثور السـاخنة دمـويـة الجـوانب تلك التي تخبط به، ثم استدار كقطة واقترب ثانية وهو يدير الوزرة ببـطء. ثم استـدار الثور ثانية واقترب ثانية، وحينما رأى باكو الحافة المندفعة، خطا بقدمه اليسرى مسافة بوصتين أبعد مما يجب إلى الأمام فلم تمر السـكين قربه، بل انـزلقت فيـه بسهـولـة كسهـولة دخولها في قربة خمر، فتدفق سيل لاسع فوق وحول صلابة الفولاذ الداخلي الفجائي وانريكو يصيح:

- آي، آي! دعني أخرجها، دعني أخرجها.

وانزلق باكو إلى الأمام على الكرسي. والوزرة - الكاب ما تزال في يديه بينما كان انريكو يسحب الكرسي والسكين تدور في جسمه، في جسمه في جسم باكو.

خرجت السكين أخيراً، وجلس على الأرض في البركة الدافئة المتزايدة الاتساع.

قال انريكو:

- ضع الفوطة فوق الجرح. امسك بها! شدّها! سأذهب لأحضر طبيباً. أمسك بها لوقف النزيف.

قال باكو:

- لا بد من فنجان مطّاط.

لقد رأى ذلك يستعمل في الحلبة.

قال انريكو باكياً:

- تقدمتَ مباشرة بلا إنحراف. كل ما أردتُ فعله هو إظهار الخطر.

قال باكو وصوته يصل إليه من بعيد:

- لا تقلَق. بل أحضر الطبيب.

في الحلبة يرفعونك ويحمونك راكضين بك إلى حجرة العمليات. وإذا كان الوريد الفخذي قد فرغ قبل وصولك إلى هناك فإنهم يستدعون القسيس.

قال باكو وهو يمسك بفوطة المائدة على بطنه السفلي:

- استدع أحد القسيسّين.

لم يكن بمقدوره تصديق بأن هذا كان قد حدث له.

لكن انـريكـو كان يجـري في شارع طريق سان جيرونيمو إلى مركز الاسعاف الأوّلي المفتـوح طيلة الليـل بينمـا كان باكـو وحيداً، جالسـاً وهو معتدل القامة بادىء

الأمر ثم متكوِّماً حول نفسه ثم ساقطاً على الأرضية إلى أن انتهى شاعراً بأن حياته تنسحب خارجةً منه كما يفرغ ماء قذر من حوض حمام حين تُرفع سدادته. كان خائفاً وشعر بالإغماء، وحاول ترديد فصل من مسحة الموتى متذكراً بدايته، لكنه قبل أن يردد بأسرع ما يستطيع: «آه، يا إلهي، إنني آسف من صميم قلبي على أنني اسأت إليكَ أنتَ الذي تستحق كل حبي وأصمم تصميماً أكيداً..» شعر بأنه ضعيف جداً فتمدد ووجهه منكس على الأرضية وانتهى بسرعة بالغة. فالوريد الفخذي المقطوع يُفرغ نفسه بأسرع مما يمكنك تصديق هذا.

عندما كان طبيب مركز الاسعاف يرتقي الدرج مصحوباً بشرطي يُمسك بذراع إنريكو، كانتْ أختا باكو لا تزالان في قصر العرض السينمائي في شارع جران حيث كنّ قد أُصبن بخيبة أمل كبيرة من فيلم جاربو الذي أظهر النجمة العظيمة في أجواء بائسة هابطة بينما اعتادتا على أن ترياها محاطة بترف وتألق عظيمين. كره المشاهدون الفيلم كثيراً، فأخذوا يحتجون عليه بالصفير ويخبطون أقدامهم بالأرض. وكان كل المقيمين في النُزل منهمكين بما كانوا يفعلونه عندما وقع الحادث، ما عدا القسيسين اللذين كانا قد أنهيا صلاتهما واستعدا للنوم، بينما نقل، النحّاز أشيب الرأس كأس شرابه إلى الطاولة مع المومستين اللتين أرهقتهما أشغال البيوت. بعد فترة قصيرة، خرج من المقهى مع واحدة منهما. وكانت هي التي اشترى لها مصارع الثيران فاقد الأعصاب الشرابَ.

لم يعرف الفتى باكو شيئاً عن أي من هذا ولا عما سيفعله هؤلاء الناس في اليوم التالي وما تليه من أيام. لم تكن لديه أدنى فكرة عن كيف كانوا يعيشون ولا كيف سينتهون. لم يعرف حتى بأنهم انتهوا. لقد مات مليئاً بالأوهام حسبما يقول المثل الأسباني. ولم يكن لديه متسع من الوقت ليضيّع أياً من هذه الأوهام ولا حتى ليكمل فصل مسحة الموتى في النهاية.

كما لم يكن لديه الوقت ليصاب بخيبة الأمل والاحباط من فيلم جريتا جاربو الذي أصاب مدريد كلها بخيبة الأمل.

رجل عجوز عند الجسر

جلس رجل عجوز بنظارة فولاذية الاطار وملابس مغبّرة جداً على جانب الطريق. كان هناك جسر عائم قد أُقيم فوق النهر، فعبرته عربات وشاحنات ورجال ونساء وأطفال. كانت العربات المجرورة بالبغال تتمايل صاعدة الضفة المنحدرة من الجسر والجنود يساعدون بدفعها من أشعة عجلاتها. كما كانت الشاحنات تصرّ صاعدة ومبتعدة وهي تَدفع عن طريقها كل الفلاحين الذين كانوا يمشون بتثاقل على طول الطريق وأقدامهم تغوص حتى كواحلها في التراب. لكن العجوز جلس هناك بلا أية حركة. كان تعباً جداً إلى حد أنه لم يستطع السير إلى مسافة أبعد.

كانت مهمتي أن أَعْبُرَ الجسر وأستطلعَ رأسَ الجسر من الجهة الأخرى وأكتشف إلى أي حدّ تقدّم العدو. قمتُ بهذا العمل وعدتُ فوق الجسر. لم تكن هناك عربات كثيرة وكان هناك قليل جداً من المشاة لكن العجوز كان ما زال هناك.

سألته:

- من أين أتيت؟.

قال:

- من سان كارلوس.

وابتسم.

كانتْ تلك بلدته فأثار ذكرها سروره، فابتسم.

قال موضحاً:

- كنتُ أعتني بالحيوانات.

- أوه.

قلتُ هذا دون أن أفهمه تماماً.

قال:

- نعم. ظللتُ أعتني بالحيوانات، كما ترى. كنتُ آخر من غادر بلدة سان كارلوس.

لم يكن يبدو كراعي غنم أو بقر، نظرتُ إلى ملابسه المغبرة السوداء ووجهه المغبر الأشيب ونظارته الفولاذية الاطارات، ثم قلت:

- أية حيوانات كانت؟.

قال:

- حيوانات مختلفة.

وهز رأسه:

- كان يجب أن أتركها.

كنت أراقب الجسر وأرض دلتا إيبرو الشبيهة بأرض افريقية، وأنا أتساءل: كَمْ من الوقت سيمضي قبل أن نرى الأعداء، فأصيخ السمع طيلة الوقت لالتقاط أول ضوضاء تشير إلى وقوع الحدث الغامض المسمى التماس بينما كان العجوز لا يزال جالساً هناك.

سألته:

- أية حيوانات كانت؟.

قال موضحاً:

- كانت هناك ثلاثة حيوانات. كانت ثمة عنزتان وقطة وكانت هناك أربعة أزواج حمام.

سألتُ:

- وكنتَ مضطراً لتركها؟.

- نعم. بسبب المدفعية. طلب مني النقيب أن أرحل بسبب المدفعية.

سألتُه. وأنا أراقب نهاية الجسر البعيدة حيث كانت آخر بضع عربات تسرع هابطة منحدر الضفة:

- وليس لديك أسرة؟.

قال:

- لا. فقط الحيوانات التي ذكرتُها لك. القطة، ستكون في أمان طبعاً. فالقطة تستطيع أن تدبر أمرها، لكنني لا أستطيع أن أتصور ما سيحل بالحيوانات الأخرى.

سألت:

- ما هي سياستك؟.

قال:

- أنا بلا سياسة. إنني في السادسة والسبعين. لقد قطعتُ إثني عشر كيلومتراً وأظن بأنني لن أستطيع أن أسير إلى مسافة أبعد.

قلت:

- هذا ليس مكاناً مناسباً لتتوقف فيه. إن استطعتَ السير فهناك شاحنات على الطريق الذي يتفرع ليتجه إلى تورتوسا.

قال:

- سأنتظر وهلة ثم أذهب. أين تذهب الشاحنات؟.

قلتُ له:

- نحو برشلونة.

قال:

- لا أعرف أحداً في ذلك الاتجاه، لكن، أشكرك جزيل الشكر. أشكرك شكراً جزيلاً مرة أخرى.

نظر إليّ نظرة خاوية وتعبة جداً ثم قال ليشاركه شخصٌ ماقلقه.

- القطة ستكون على ما يرام، أنا متأكد. لا داعي للقلق على القطة. لكن الحيوانات الأخرى. ما الذي تراه بالنسبة للحيوانات الأخرى؟.

- لماذا؟ من المحتمل أن تخرج سالمة.

- أترى هذا؟.

قلتُ وأنا أراقب الضفة البعيدة حيث لم تعد فيها أية عربات.

- لِمَ لا؟.

- لكن، ما الذي ستفعله تحت قصف المدفعية في حين طلبوا مني ترك المنطقة بسبب المدفعية؟.

سألتُ:

- اتركتَ باب قفص الحمام مفتوحاً؟.

- نعم.

- سيطير إذن.

- نعم. سيطير بالتأكيد. لكن، الحيوانات الأخرى. يحسن ألاّ أفكر بالحيوانات الأخرى.

حثثته قائلاً:

- إنْ استرحتَ أنتَ فإنني سأذهب. انهض وحاول السير الآن.

قال:

- شكراً لك.

نهض واقفاً، فتمايل من جانب إلى آخر ثم جلس على التراب في الخلف.

قال ببلادة، لكنه لم يعد يوجه كلامه إليّ:

- كنتُ اعتني بالحيوانات فقط. كنتُ أعتني بالحيوانات فقط.

لم يكن هناك ما يمكن فعله له. كان اليوم يوم أحد الفصح والفاشيون يتقدمون نحو إيبرو. كان يوماً رمادياً مكفهراً ملبداً بسقف من الغيوم فلم تحلّق

طائراتهم. فكانت تلك الحقيقة، وحقيقة أنّ القطط تعرف كيف تدبر أمورها كل ما سيحالف ذلك العجوز من حظ حسن.

بعـــد العاصفـة

لم يدر القتال حول أي شيء، بل دار بسبب تكوين عُصبة ثم بدأنا الاقتتال، فزلّتْ قدمي وطـرحني أرضـاً وحـط بركبتـه على صدري خانقـاً إيـاي بكلتـا يديه كأنه كان يحـاول قتلي بينمـا كنتُ أحـاول طيلة الوقت إخراج السـكين من جيبي لأفكَّ قبضته عني. كان الكـل سكـارى إلى درجـة أن أحـداً لم يجـرّه بعيـداً عني. كان يخنقني ويدق رأسي على الأرضية فأخرجتُ السكين وفتحتها، وقطعتُ العضل في ذراعه، فأخليَ سبيلي. لم يكن يستطيـع أن يستمـر في الإمسـاك بي حتى لو شاء ذلك. ثم تدحرج وأمسك بتلك الذراع وأخذ يصرخ فقلت:

ـ لِمَ تريد خنقي بحق الجحيم؟.

كان عليّ أن أقتله. فلم أستطع البلع مدة أسبوع. لقد آذى حلقي كثيراً.

حسنـاً، خرجتُ من هنـاك وبقي الكثيـر منهم معـه بينما خرج البعض ورائي فدرتُ إلى أن وصلتُ إلى أرصفـــة الميـنـــاء حيثُ قابلتُ شخصـاً هنـاك قال لي بأن شخصـاً قَتَـل رجـلاً في أعلى الشارع. سألتُ: «مَنْ الذي قتله؟» وقال: «لا أعرف مَنْ الذي قتله لكنه مات فعلاً»، وكان الظلام مخيماً والماء متجمعاً في الشارع ولم تكن ثمـة أنـوار كمـا كانت النـوافذ والقوارب منتشرة في البلدة والأشجار ساقطة وكل شيء متناثر هنا وهناك فأخذتُ مركباً وخرجتُ لأجد زورقي في المكان الذي وضعته فيه في داخل جزيرة مانجو وكان الزورق سليماً إلاّ أنه كان مليئاً بالماء. فأفرغته من المـاء ودفعتُـه إلى البحر وكان القمر في السماء، لكن، كان فيها الكثير من السحب وكان البحر لا يزال هائجاً بينما كنتُ أبحر بالزورق، وحين طَلَع نور النهار كنتُ بعيداً عن المرفأ الشرقي.

يا أخي، لقـــد كانتْ عاصفـة هوجـاء. وكـان زورقي أول زورق يخـرج إلى عرض البحر، فلم أرَ في حياتي مثل ذلك الماء. لقد كان أبيض كبرميل من القِلي* يسيـر من المـرفأ الشـرقي في اتجاه الجزيرة الجنوبية الغربية، ولم يكن باستطاعتك رؤ يـة الشـاطىء. كانت ثمـة قناة كبيرة عبر منتصف الشـاطىء. كما كانت الأشجار وأشيـاء أخـرى قد اقتُلِعَتْ وتطـايـرت وشُقّتْ قناة. وكان الماء كله أبيض كالطباشير وتنـاثـرت عليـه أشيـاء كثيرة: فروع أشجار وأشجار كاملة وطيور ميتة، وطفا كل هذا على سطحـه. وتجمعت كل طيـور البيلكيـان الموجودة في العالـم وكل أنواع الطيور

* محلول قلوي يستعمل في الغسيل وصنع الصابون. (المترجم).

المحلّقة. لا بد أنها دخلت إلى تلك الجزر حين عرفتُ بأن العاصفة كانت على وشك الهبوب.

تمددتُ على الجزيرة الجنوبية الغربية مدة يوم واحد ولم يلحق بي أحد. كنتُ أول من خرج بقارب فرأيتُ سارية تطفو وعلمتُ بأنه لا بد أن يكون هناك حُطام سفينة فخرجتُ إلى البحر بحثاً عنها. وجدتها. كانت سفينة من نوع سكونه بثلاثة صواري، فتمكنت من رؤية جذوع سواريها خارج الماء. كانت في مياه عميقة جداً فلم أستطع إستخراج أي شيء منها. كنتُ أتمتع بالأفضلية على كل جزء منها وكنت أعرف بأنني لا بد أن أحصل على ما كان فيها. فهبطتُ متقدماً فوق حاجز الرمل من المكان الذي تركتُ فيه تلك السكونة ذات الصواري الثلاثة، فلم أجد شيئاً، فقطعتُ مسافة طويلة. كنتُ قد ابتعدتُ في اتجاه الرمال الليّنة فلم أجد شيئاً، لذلك تابعت التقدم. وحين أصبحتُ على مرأى من ريبيكا لايتْ رأيتُ كل أنواع الطيور تحلّق فوق شيء ما فاتجهتُ نحوها لأرى ما كان ذلك الشيء، وهناك كانت سحابة طيور محلّقة.

رأيتُ شيئاً يشبه الصارى يطلّ خارج الماء وحين اقتربتُ منه انطلقت الطيور محلّقة في السماء وبقيتْ على قرب مني. كان الماء صافياً هناك بينما تناثرت أنواع من صوار هنا وهناك بارزة فوق سطح الماء قليلاً، وحين اقتربتُ منها إلى مسافة أقرب، رأيتُ ما تحت الماء معتماً كله كظل طويل فاتجهتُ فوقها مباشرة فرأيت تحت الماء باخرة، تستقر كلها تحت الماء كبيرةً كالعالم كله. وانجرفتُ فوقها وأنا في قاربي. كانت تستقر على جنبها بينما كانت مؤخرتها عميقة في الأسفل. كانت كل كوى السفينة محكمة الاقفال.فتمكنت من رؤية الزجاج يلمع في الماء ورؤية السفينة كلها، كانت أكبر سفينة رأيتها في حياتي تستقر هناك فاندفعتُ على امتداد طولها ثم عدتُ وأرسيت القارب على مقدمة سطحها ثم دفعت به في الماء وجدّفت بينما كانت الطيور كلها تحوم حولي.

كانت لدي نظارات الماء التي تستعملها في صيد الاسفنج لكن يدي كانت تهتز كثيراً حتى أنني لم أكن أكاد أستطيع الإمساك بها. كانت كل كوى السفينة مغلقة وكان بوسعك رؤية كل ما امتد فوقها، لا بد أن شيئاً كان مفتوحاً في الأسفل هناك قرب القاع، فقد كانت ثمة قطع تطفو خارجةً من هناك طيلة الوقت. لم يكن باستطاعتك معرفة طبيعة تلك الأشياء. كانت قطعاً فقط. وكانت هي التي تلاحقها الطيور. لم ترَ طيلة حياتك هذا العدد الكبير من الطيور. كانت كلها حولي صارخةً بجنون.

كان بوسعي رؤية كل شيء بوضوح ودقة. وكان بوسعي أن أرى بأنها كانت مكتملة التدوير وبدتْ كأن طولها يبلغ الميل تحت الماء. وكانت تستقر على منحدر أبيض من الرمال وكان الصاري نوعاً من صاري أمامي أو نوعاً من مجموعة حبال أشرعة وصواري مالت خارجةً من الماء بالطريقة التي استقرت فيها السفينة على جنبها. لم تكن مقدمتها بعيدة تحت الماء. فقد تمكنتُ من الوقوف على أحرف اسمها المكتوب على مقدمتها ورأسي فقط خارج الماء. لكن أقرب كوّة كانتْ على بُعد إثني عشر قدماً تحت الماء. وكان يمكنني لمسها بالعمود فقط فحاولتُ كسرها به لكنني لم أستطع ذلك. فقد كان الزجاج أقوى مما يمكنني كسره. لذلك جذّفت راجعاً إلى القارب واخرجتُ مفتاح رَبْط وربطته بنهاية العمود، لكنني لم أستطع كسرها. ونظرتُ من مكاني إلى الأسفل من خلال الزجاج إلى تلك الباخرة وإلى كل ما فيها من أشياء، فقد كنتُ أول مَنْ وصل إليها إلاّ أنني لم أستطع دخولها. لا بد أنها تحمل في داخلها ما يعادل خمسة ملايين دولار.

أثار التفكير بما فيها من أموال الرعشة في نفسي. فقد كان بوسعي أن أرى شيئاً داخل الكوّة المغلقة، لكنني لم استطع معرفة طبيعته من خلال نظّارة الماء. لم أستطع الاستفادة من العمود، فخلعت ملابسي ووقفت ثم أخذتُ عدة أنفاس عميقة وغطست بعيداً عن مؤخرة الباخرة ومفتاح الرّبْط في يدي، وسبحت هابطاً إلى أسفل. كان بوسعي أن أحبس أنفاسي مدة ثانية وأنا أقف على كوة السفينة، كما كان بوسعي أن أرى ما في داخلها، فرأيتُ هناك إمرأة يطفو شعرها في جميع الاتجاهات. رأيتُها تطفو، فضربت الزجاج مرتين بمفتاح الرّبْط بقوة حتى أنني سمعت صوت الخبط يتردد في أذنيّ لكنه لم ينكسر وكان لا بد أن أصعد.

تمسكتُ بالقارب الصغير والتقطتُ أنفاسي ثم صعدتُ إليه وأخذت عدة أنفاس وغطستُ مرة أخرى. سبحتُ هابطاً إلى الأسفل وتمسكت بحافة الكوّة بأصابعي وأمسكتُ بها وضربتُ الزجاج بأقصى ما أستطيع من قوة بمفتاح الرّبْط. كان بوسعي رؤية المرأة من خلال الزجاج طافيةً في الماء. كأن شعرها مربوطاً لصق رأسها مرة ثم طافياً في كل مكان في الماء مرة أخرى. كان بوسعي رؤية خواتم في إحدى يديها. وكانت لصق كوّة السفينة فضربت الزجاج مرتين لكنني لم أستطع حتى شرخه. حين صعدتُ ظننتُ أنني لن أصل إلى القمة قبل أن أكون مضطرا لالتقاط أنفاسي.

هبطتُ مرة أخرى وشرختُ الزجاج، شرختُه فقط، وكان أنفي ينزف حين وصلتُ إلى الأعلى، فوقفت على مقدمة السفينة وقدماي الحافيتان على أحرف

إسمها ورأسي فقط يطل خارج الماء، فاسترحت هناك ثم سبحت نحو الزورق وجررتُ نفسي إلى داخله وجلست هناك في إنتظار أن يزول الألم من رأسي وأنا أنظر إلى الأسفل من خلال نظّارة الماء، لكنني نزفتُ وكان لا بد أن أغسل زجاج النظّارة. ثم تمددتُ على ظهري في المركب ناظراً إلى أعلى بينما حلّق مليون طائر فوقي وحولي.

حين توقف النزيف، ألقيتُ نظرة أخرى خلال النظارة ثم جذّفت مقترباً من القارب محاولاً البحث عن شيء أثقل من مفتاح الربط، لكنني لم أجد شيئاً، حتى ولا كلّاب إسفنج. عدتُ وكان الماء أصفى طيلة الوقت حتى أنه كان بوسعك رؤ ية كل شيء يخرج طافياً فوق تلك الضفة من الرمل الأبيض. بحثتُ عن أقراش بحر لكنني لم أجد أياً منها. فقد كان بوسعك رؤ ية قرش بحر من مسافة بعيدة جداً. فالبحر كان صافياً جداً والرمل أبيض. كانت ثمة كلّابة لمرساة على الزورق فقطعتها وصعدتُ إلى سطح السفينة ثم هبطتُ وأنا أحملها. حملتني إلى الأسفل مباشرة وبمحاذاة الكوّة فحاولتُ الامساك بها لكنني لم أستطع الامساك بأي شيء فتابعت النزول إلى أسفل وأسفل، متزلقاً على جنب السفينة المنحني. كان لا بد أن أُفلت الكلّابة. فسمعتها ترتطم مرة واحدة وبدا كأن سنة قد مرت عليّ قبل أن أصل إلى سطح الماء. كان الزورق قد طفا مبتعداً مع حركة المد والجزر فسبحتُ نحوه وأنفي ينزف في الماء وأنا أسبح وكنتُ مسروراً سروراً عظيماً لأنه لم يكن ثمة أقراش بحر، لكنني كنتُ تعباً.

أحسستُ بأن رأسي يتشقق، فتمددتُ في الزورق واسترحتُ ثم جدّفتَ عائداً. كان قد مضى وقت طويل من بعد الظهر. فهبطتُ مرة أخرى حاملاً مفتاح الربط، لكنه لم يكن ذا فائدة. فقد كان ذلك المفتاح خفيفاً جداً. لم يكن من فائدة من الغوص إلاّ إذا كان لديك مطرقة كبيرة أو شيء ثقيل ثقلاً كافياً ليكون صالحاً للعمل. ثم ربطتُ المفتاح بالعمود مرة أخرى ونظرتُ خلال نظّارة الماء وخبطتُ على الزجاج وطرقتُ عليه إلى أن أفلت المفتاح من العمود ورأيتُه من خلال النظّارة ينزلق بوضوح ودقة على السفينة ويهبط إلى الأسفل إلى الرمال الليّنة ويغطس فيها. ثم لم أعد أستطيع فعل أي شيء. فقد أفلتَ المفتاح وضاعتْ الكلّابة، فجذّفتُ راجعاً إلى القارب. كنتُ تعباً جداً حتى أنني لم أستطع جرّ الزورق إلى ظهر الباخرة كما كانت الشمس هابطةً تماماً. كانت الطيور كلها تتجمع لتخرج وتترك السفينة فاتجهتُ نحو الجزيرة الجنوبية الغربية جاراً الزورق بينما الطيور تندفع محلّقة أمامي وخلفي. كنت تعباً جداً.

في تلك الليلة، هبّت الرياح واستمر هبوبها مدة أسبوع. لم يكن بوسعك أن تخرج إلى السفينة. ثم خرجوا من المدينة وجاءوا ليخبروني بأن الشخص الذي كان عليّ أن أجرحه بخير ما عدا ذراعه، فعدتُ إلى المدينة ووضعوني تحت كفالة بمبلغ خمسمائة دولار. وانتهتْ القضية على خير وجه لأن بعضهم، أعني أصدقاء لي، أقسموا بأنه كان يجري خلفي ومعه فأس، لكن، وحين رجعنا إلى الباخرة كان اليونانيون قد فجّروها وفتحوا فتحة فيها ونظفوها تماماً. كما كانوا قد أخرجوا الخزانة الحديدية بالديناميت. لم يعرف أحد كم من المال أخرجوا منها. لقد كانت تحمل ذهباً وأخذوه كله. لقد جردوها ونظفوها تماماً. لقد اكتشفتُ أنا وجودها لكنني لم أحصل منها على فلس واحد*.

لقد كانتْ شيئاً جهنمياً حقاً. لقد قالوا بأنها ما كادت تخرج من مرفأ هافانا إلاّ وعصف الأعصار بها فلم تستطع دخول المرفأ أو أن أصحابها لم يتيحوا الفرصة لربانها بالدخول، فقد قالوا بأن الربان أراد محاولة ذلك، لذلك كان لا بد أن تندفع مع الاعصار وساروا مع التيار محاولين الدخول عبر الخليج بين ربيكا وتور توجاس حين صدمت الرمال الليّنة. ربما كانت دفّتها قد انحرفت مبتعدة. أو ربما لم يكونوا يوجهونها. لكنهم ما كانوا ليستطيعوا أن يعرفوا بأن هناك رمال ليّنة، ولا بد أن الربان كان قد أمرهم بفتح خزّانات الصابورة حين ارتطمت الباخرة بالرمال حتى يمكنها أن تستقر بلا حراك. لكن ما كان قد صدمها هو الرمل الليّن، فغطست حين فتحوا خزّاناتها ومؤخرتها تتقدمها ثم انقلبت على نهايات أشعتها. كان على ظهرها أربعمائة وخمسون راكباً وطاقمها ولا بد أنهم كانوا كلهم على ظهرها حين اكتشفتْ وجودها. لا بد أنهم فتحوا الخزّانات حالما ارتطمت بالرمال فسحبتها تلك الرمال إلى الأسفل في لحظة استقرارها عليها. ثم لا بد أن تكون مراجلها قد انفجرت وأن ذلك الانفجار سبّب خروج تلك القطع. كان من الغريب عدم وجود أقراش بحر هناك. لم يكن ثمة أية سمكة. وإلاّ لكان بوسعي رؤيتها في ذلك الرمل الأبيض الصافي.

إلاّ أن الكثير من السمك كان هناك، السمك اليهودي، أكبر أنواع الأسماك. وكان أضخم جزء من السفينة تحت الرمل الآن بينما الأسماك تعيش داخلها، أضخم أنواع السمك اليهودي. إن بعضه يزن ثلاثمائة أو أربعمائة رطل. سنخرج في أحد الأيام ونصيد بعضه. كان بوسعك أن ترى أنوار ربيكا من حيث تستقر. لقد وضعوا طفّواً عليها الآن. إنها تستقر عند نهاية الرمل الليّن تماماً وفي طرف الخليج

* في الأصل: نيكل والنيكل يساوي خمسة سنتات. (المترجم).

تمـامـاً. لقـد أخطأتْ العبـور فقط بحوالي مائة ياردة. لقد ضلوا الطريق في الظلام وأثنـاء العـاصفـة، فمـا كان بوسعهم رؤ ية ربيكا والسماء تمطر بالطريقة التي كانت تمطـر بهـا. كما أنهم لم يكونوا معتادين على مثل ذلك النوع من العواصف. فربان الباخرة لم يكن معتاداً على الانزلاق جانباً بتلك الطريقة. وكان لهم خط سير، كما قالوا لي بأنهم يستعملون نوعاً من البوصلة توجه نفسها بنفسها. من المحتمل أنهم لم يعرفوا أين كانوا حين هبَّتْ عليهم تلك العاصفة لكنهم كادوا أن ينجحوا بالعبور. ربما كانوا قد فقدوا الدقة. وعلى أية حال، لم يكن أمامهم من شيء آخر ليصدموه أثناء إبحارهم في الخليج حتى يبلغوا المكسيك. إلاّ أن شيئاً لا بد كان هَناك حين حوصروا أثناء ذلك المطر وتلك الريح، فأمرهم الربان بفتح الخزّانات. ما كان بوسع أحـد البقـاء على ظهـر السفينة أثناء العاصفة. لا بد أن الكل كانوا في الأسفل. فما كان بوسعهم البقـاء على ظهـر السفينـة. لا بد أن هياجاً وضجيجاً قد ثار في داخلها حقاً، فقد غرقتْ بسرعة كما تعرفون. لقد رأيتُ مفتاح الربط ينغرس في الرمل. وما كان بوسـع الـربـان أن يعـرف بأن ما اصطـدمت به السفينة كان رملاً ليّناً إلاّ إذا كان الربان يعرف طبيعة هذه المياه. لقد عرفَ فقط بأنها لم تكن صخوراً. لا بد أنه رآها كلهـا من الجسـر. ولا بد أنـه عرف حقيقتهـا حين استقـرت السفينـة عليهـا. انني أتسـاءل: كم من الـوقت استغـرقت حتى استقـرت هنـاك. وأتسـاءل إن كان مساعد الـربـان معـه أم لا. هل ترى بأنهم بقـوا داخـل الجسـر أم أنهـا فاجأتهم وهـم في الخارج؟ إنهم لم يعثروا على أية جثة. ولا جثة واحدة. ولا أي شخص طاف. لقد طفوا إلى مسافة بعيدة بأحزمة النجاة أيضاً. لا بد أنهم استعملوها وهم في الداخل. حسناً، لقد استولى اليونانيون عليها كلها. كل شيء. لا بد أنهم جاءوا بسرعة حقاً. لقد نظفوها تماماً. لقد حضرتْ الطيور أولاً ثم أنا ثم اليونانيون، وحتى الطيور نالتْ منها أكثر مما نلتُ أنا منها.

مكان نظيف جيد الاضاءة

كان الوقت متأخراً وغادر الكل المقهى ما عدا رجل عجوز جلس في الظل الذي تلقيه أوراق الشجرة حاجبة النور الكهربائي. كان الشارع مغبراً في النهار، لكن الندى ثبّت الغبار في الليل فكان العجوز يحب الجلوس حتى ساعة متأخرة منه، لأنه كان أصم وكان الليل في هذه الساعة هادئاً مما يجعله يحس بالفرق. كان النادلان داخل المقهى يعرفان بأن الرجل العجوز كان ثملاً قليلاً، كما كانا يعرفان بأنه سيغادر المقهى دون أن يدفع الحساب إنّ هو سكر تماماً، بالرغم من أنه كان زبوناً جيداً، فاستمرا في مراقبته..

قال أحد النادلين:

- حاول الانتحار في الاسبوع الماضي.

- لماذا؟.

- كان يائساً.

- مِمَ؟.

- لا شيء.

- كيف عرفتَ بأنه لا شيء؟.

- لديه مال كثير.

جلسا معاً إلى طاولة ملاصقة للحائط قرب باب المقهى ونظرا إلى الشرفة حيث كانت الطاولات فارغة ما عدا الطاولة التي جلس إليها الرجل العجوز في ظلال أوراق الشجرة التي كانت تتحرك قليلاً في الريح. مَرّتْ فتاة وجندي في الشارع. فتلألأ ضوء الشارع على الرقم النحاسي المثبت على ياقته. ولم تكن الفتاة تضع غطاء على رأسها وكانت تسير مسرعة إلى جانبه.

قال أحد النادلين:

- سيمسك به الحرس.

- ماذا يهمه إنْ هو نال ما يبحث عنه؟.

- يحسن به أن يغادر الشارع الآن. سيقبض عليه الحرس. لقد مروا من هنا قبل خمس دقائق.

نقر الرجل العجوز الجالس في الظل على طبق الفنجان بكأسه. فاقترب النادل الصغير منه.

ـ ماذا تريد؟ .

نظر إليه العجوز، قال:

ـ كأس براندي أخرى.

قال النادل:

ـ ستسكر.

نظر إليه العجوز. فابتعد النادل.

قال لزميله:

ـ سيقضي الليل كله هنا. أنا نعسان الآن. وأنا لا آوي إلى الفراش قبل الساعة الثالثة. ليته قتل نفسه في الأسبوع الماضي.

أخذ النادل قنينة البراندي وصحن فنجان آخر من نضد حاجز المشرب داخل المقهى وسار نحو طاولة العجوز. وضع الصحن وملأ الكأس بالبراندي تماماً.

قال للرجل الأصم:

ـ كان يجب أن تقتل نفسك في الأسبوع الماضي.

أشار الرجل العجوز بأصبعه، وقال: «زيادة قليلاً». صبّ النادل في الكأس حتى اندلق البراندي منها وجرى حتى أسفل ساق الكأس إلى داخل أعلى صحن في كومة الصحون.

قال العجوز: «شكراً». أعاد النادل القنينة إلى داخل المقهى. ثم عاد وجلس إلى الطاولة مع زميله. قال:

ـ إنه سكران الآن.

ـ إنه سكران كل ليلة.

ـ لماذا أراد قتل نفسه؟ .

ـ كيف أعرف هذا؟ .

ـ كيف فعل هذا؟ .

ـ شنق نفسه بحبل.

ـ مَنْ قَطعه وأنقذه؟ .

ـ إبنة أخيه.

ـ لماذا فعلوا هذا؟ .

ـ خوفاً على روحه.

ـ كم لديه من مال؟ .

ـ لديه الكثير جداً.

ـ لا بد أنه في الثمانين من عمره.
ـ لا بد أن أقول بأنه في الثمانين على أية حال.
ـ ليته يعود إلى بيته. أنا لا آوي إلى فراشي قبل الثالثة. يا لها من ساعة تأوي فيها إلى الفراش؟.
ـ يبقى مستيقظاً لأنه يحب هذا.
ـ هو وحيد. أنا لستُ وحيداً. عندي زوجة تنتظرني في السرير.
ـ كانتْ له زوجة ذات يوم أيضاً.
ـ لن تكون أية زوجة نافعة له الآن.
ـ لا يمكنك معرفة هذا. قد يكون في حال أفضل مع زوجة.
ـ إبنة أخيه ترعاه.
ـ أعرف. لقد قلتَ بأنها قطعت الحبل وأنقذته.
ـ لا أود أن أبلغ ذلك العمر. الرجل العجوز شيء قذر.
ـ ليس دائماً. فهذا العجوز نظيف. يشرب دون أن يدلق الخمر. حتى الآن، وهو سكران. أنظر إليه.
ـ لا أريد أن أنظر إليه. أتمنى أن يعود إلى بيته. إنه لا يبالي بأولئك الذين لا بد أن يعملوا.

رفع العجوز نظره عن كأسه ونظر إلى الجانب الآخر من الميدان ثم إلى النادلين.

قال وهو يشير إلى كأسه:

ـ كأس براندي أخرى.

اقترب منه النادل المستعجل.

قال وهو يشوّه التركيب اللغوي للجمل كما يفعل الأغبياء حين يخاطبون سكارى أو أجانب:

ـ كَمَل. لا زيادة الليلة. إقفال الآن.

قال العجوز:

ـ كأس أخرى.
ـ لا. كَمَل.

مسح النادل حافة الطاولة بفوطة وهزّ رأسه.

نهض العجوز واقفاً وعدّ الصحون ببطء ثم أخرج محفظة نقود جلدية من جيبه ودفع ثمن مشروباته تاركاً نصف بيزيتا إكرامية.

راقبه النادل وهو ينحدر مع الشارع، رجلاً بلغ أرذل العمر يمشي مترنحا، لكن، بوقار.

سأله النادل غير المتعجل:

- لِمَ لم تدعه يبقى ويشرب؟، لم تبلغ الساعة الثانية والنصف بعد.

كانا يغلقان مصاريع النوافذ والأبواب.

- أريد أن أعود إلى البيت . إلى السرير.

- ما قيمة ساعة؟

- أهم بالنسبة إليّ مما هي بالنسبة إليه.

- الساعة هي نفسها بالنسبة إلى الكل.

- أنتَ نفسك تتكلم كعجوز. يستطيع شراء قنينة ويشربها في البيت.

- ليس هذا نفس الشيء.

وافقه النادل المتزوج قائلاً:

- لا. ليس نفس الشيء.

لم يرغب في أن يكون غير مُنصِف. لقد كان مستعجلاً فقط.

- وأنتَ؟، ألا تخشى العودة إلى البيت قبل ساعة عودتك المعتادة؟.

- أتحاول إهانتي؟

- لا يا فتى. قلتها فقط على سبيل المزاح.

قال النادل المستعجل وهو يقف معتدلاً بعد إنزاله المصاريع المعدنية:

- لا، عندي ثقة. كلي ثقة.

قال النادل كبير السن:

- عندك شباب وثقة وعمل. عندك كل شيء.

- وماذا ينقصك أنت؟.

- كل شيء ما عدا العمل.

- عندك كل ما عندي.

- لا. لم تكن لدي أية ثقة قط وأنا لستُ شاباً.

- هيا. كفّ عن الكلام الفارغ واقفل المحل.

قال النادل كبير السن:

- أنا واحد من أولئك الذين يحبون البقاء في المقهى حتى ساعة متأخرة - مع كل أولئك الذين لا يريدون أن يأووا إلى الفراش. مع كل أولئك الذين يحتاجون إلى نور الليل.

ـ أريد أن أعود إلى البيت وأندس في السرير.

قال النادل كبير السن:

ـ نحن من نوعين مختلفين.

كان قد غيّر ملابسه للعودة إلى البيت.

ـ ليس المسألة مسألة شباب وثقة فقط، مع أن ذينك الشيئين جميلين. ففي كل ليلة أتردد في قفل المحل، فقد يكون هناك شخص بحاجة إلى المقهى.

ـ يا فتى، ثمة خمّارات تظل مفتوحة طيلة الليل.

ـ أنتَ لا تفهم. هذا مقهى نظيف ومبهج. إنه جيد الاضاءة. النور فيه جيد جداً وهناك ظلال أوراق الشجرة الآن.

قال النادل صغير السن:

ـ تصبح على خير.

قال الآخر:

ـ تصبح على خير.

واستمر في الحديث إلى نفسه وهو يطفىء نور الكهرباء. إنه النور طبعاً، لكن من الضروري أن يكون المكان نظيفاً ومبهجاً. أنتَ لا تريد موسيقى. من المؤكد أنك لا تريد موسيقى. كما لا يمكنك الوقوف أمام نضد حاجز مشرب بوقار مع أن هذا هو ما يُقدِّمه لهذه الساعات. ما الذي يخاف منه؟، لم يكن الخوف أو الرهبة. كان لا شيئاً يعرفه جيداً جداً. كان كله لا شيئاً والانسان كان لا شيئاً أيضاً. كان ذلك فقط وكان النور هو كل ما هو مطلوب مع بعض النظافة والنظام. البعض يعيش فيه ولا يشعر به أبداً. أما هو فكان يعرف بأنه كله nada y pues nada y nada y pues* nada فيا لا شيئنا الذي أنتَ في لا شيء، ليكن اسمك لا شيء وملكوتك لا شيء ومشيئتك لا شيء في لا شيء كما هي في لا شيء. أعطنا هذا اللاشيء لا شيئنا اليومي ولا تُشَيِّئنا لا شيئنا كما لا تُشَيِّء لا أشياءنا لا تُشَيِّئنا في لا شيء بل نجّنا من لا شيء، وبعد لا شيء. السلام عليك يا لا شيء الممتلئة باللاشيء لا شيء معك. ثم ابتسم ووقف أمام نضد حاجز مشرب عليه جهاز لامع لصنع القهوة بضغط البخار.

سأله الساقي:

ـ ماذا تطلب؟.

ـ لا شيء "nada".

* بالاسبانية في الأصل، وتعني: لا شيء وبعد ذلك لا شيء ولا شيء وبعد ذلك لا شيء.

قال الساقي :

ـ Otro loco mas *

وابتعد .

ـ فنجاناً صغيراً .

صبّه الساقي له .

قال النادل :

ـ النور ساطع جداً ومبهج لكن نضد حاجز المشرب غير مصقول .

نظر إليه الساقي ، لكنه لم يجبه . فالليل كان متأخراً على تبادل الحديث .

سأل الساقي :

ـ تريد فنجاناً آخر؟ .

قال النادل :

ـ لا . شكراً .

وخرج . إنه يكره الحانات والخمّارات . إن مقهىً نظيفاً جيد الاضاءة شيء يختلف عنها اختلافاً كبيراً . سيمضي الآن عائداً إلى بيته ثم إلى غرفته دون أن يفكر أكثر مما فكر . سيتمدد على السرير ثم يستغرق في النوم أخيراً مع طلوع النهار . قال لنفسه : مع هذا كله ، ربما يكون هذا مجرد أرق فقط . لا بد أن الكثيرين يعانون منه .

* بالاسبانية في الأصل وتعني : مجنون آخر . (المترجم) .

نـــور العــالم

عنـدمـا رآنـا الـساقي ندخل من الباب، رفع نظره ومدّ يده إلى طبقيّ المازة المجانية وغطاهما بأغطية زجاجية.

قلت:

ـ أعطني بيرة.

سحب قنينة ثم قطع سدادتها ونزعها بملعقة باسطة ثم رفع الكأس في يده. وضعتُ قطعة النيكل على الخشب فدفع البيرة نحوي.

سأل الساقي توم:

ـ ما هو شرابك؟.

ـ بـــيرة؟.

سحب تلك البيرة ونزع سّدادتها ثم دفع البيرة نحو توم حين رأى النقود.

سأل توم:

ـ ما الأمر؟.

لم يجبه الـساقي. نظر من فوق رؤ وسنا فقط وقال لرجل دخل المحل:

ـ ما هو شرابك؟.

ـ ويسكي جاودار.

أخرج الساقي القنينة وكأساً وكأس ماء.

مدّ توم يده وأبعـد غطـاء طبق المـازة المجـانيـة الـزجـاجي. كان طبق أقدام خنازير مخللّة وفيه أداة خشبية تعمل كمقص، في نهايتها شوكتان خشبيتان لالتقاط المخلل.

قال الساقي:

ـ لا.

وأرجع الغطاء الزجاجي إلى الطبق. وكان توم يمسك شوكة المقص الخشبية بيده.

قال الساقي:

ـ أرجعها.

قال توم:

أنتَ تعرف إلى أين؟.

مدّ الساقي يده إلى أسفل نضد حاجز المشرب وهو يراقبنا. وضعتُ خمسين سنتاً على الخشب، فاعتدل.

ـ ماذا كان شرابكما؟.

قلت:

ـ بيرة.

وقبل أن يسحب البيرة كشف الغطاء عن الطبقين.

قال توم:

ـ إن أقدام خنازيرك اللعينة نتنة.

وبصق ما كان في فمه على الأرضية. لم يقل الساقي شيئاً. دفع الرجل الذي شرب ويسكي الجاودار الحساب وخرج دون أن يلتفت إلى الخلف.

قال الساقي:

ـ أنتَ نفسك نتن، أنتم كلكم أيها الأولاد نتنون.

قال تومي لي:

ـ يقول بأننا أولاد.

قلت:

ـ إسمع. لنخرج.

قال الساقي:

ـ أيها الأولاد، طهّروا هذا المكان من وجودكم.

قلت:

ـ قلتُ أننا سنخرج. لم تكن هذه فكرتك.

قال تومي:

ـ سنعود.

قال له الساقي:

ـ لا. لن تعودا.

التفت تومي إليّ وقال:

ـ أخبره كم هو مخطىء.

قلت:

ـ هيا بنا.

في الخارج، كان الجو لطيفاً ومظلماً.

قال تومي:

ـ أي مكان جحيميّ النوع هذا؟.
قلت:
ـ لا أدري. لنذهب إلى المحطة.

لقد دخلنا تلك المدينة من أحد طرفيها بينما سنخرج من طرفها الآخر. وكانت تعبق برائحة جلود ولحاء الدباغين وأكوام نشارة الخشب الضخمة. كان الظلام يخيّم حينما دخلناها، وها قد أصبحت الآن باردة بعد أن خيّم الظلام فتجمدت أطراف برك الماء المتجمعة في الطريق.

كانت في المحطة خمسُ عاهرات ينتظرن أن يدخل القطار المحطة مع ستة رجال بيض وأربعة هنود. كانت المحطة مزدحمة وحارّة من الموقد الذي فيها كما تراكم دخان بائت فيها. حين دخلنا، لم يكن من أحد يتكلم وكان شبّاك التذاكر مقفولاً.

قال أحد الأشخاص:
ـ أغلق الباب. ألا تستطيع أن تفعل هذا؟.

نظرتُ لأرى مَنْ قال هذا. كان أحد الرجال البيض. كان يرتدي بنطالاً من جلد الوعل ومطّاط تجار الخشب وقميصاً ماكيناوياً مثل الآخرين، لكنه لم يكن يعتمر طاقية وكان وجهه أبيض ويداه بيضاوين ونحيلتين.
ـ ألن تغلقه؟.
قلت:
ـ بالتأكيد.
وأغلقته.
قال:
ـ شكراً.
ضحك واحد من الرجال الآخرين بصوت مكتوم.
قال لي:
ـ هل تعرّفت على طبّاخ في حياتك؟.
ـ لا.
ـ يمكنك التعرف على هذا الطباخ.
نظر إلى الطبّاخ. وتابع:
ـ إنه يحب هذا.
أشاح الطبّاخ بوجهه عنه زامّاً شفتيه باحكام.

قال الرجل:

- إنه يضع عصير الليمون على يديه. إنه لا يضعهما في طبق ماء أياً كان الثمن. أنظر كم هما بيضاوان.

ضحكتْ إحدى العاهرات بصوت عالٍ. كانت أضخم عاهرة رأيتُها في حياتي وأضخم امرأة كذلك. كانت ترتدي تلك الملابس الحريرية التي تتغير ألوانها. كانت هناك عاهرتان أخريان ضخمتين ضخامة الأولى تقريباً لكن وزن أضخمهن حجماً كان ثلاثمائة وخمسين رطلاً. لن تستطيع تصديق أنها شيء حقيقي عندما تنظر إليها. كن ثلاثتهن يرتدين تلك الثياب الحريرية متغيرة الألوان. جلسن واحدة إلى جانب الأخرى على المقعد الخشبي الطويل. كن ضخمات. وكانت الاثنتان الأخريان عاهرتين عاديتي المظهر شقراوين بلون البيروكسيد.

قال الرجل:

- أنظر إلى يديه.

وأومأ برأسه إلى الطبّاخ. ضحكتْ العاهرة مرة أخرى واهتز كل جسدها.

التفتَ إليها الطبّاخ وقال لها بسرعة:

- أنتِ يا جبلاً ضخماً مقرفاً من اللحم.

واصلتْ الضحك والاهتزاز.

قالت:

- آه يا مسيحي. آه يا مَسيحي الجميل.

كان صوتها جميلاً.

تصرّفت العاهرتان الأخريان ضخمتا الجثة بهدوء عظيم ورباطة جأش كأن لم يكن لديهما الكثير من الاحساس، لكنهما كانتا ضخمتين، بحجم اضخمهن تقريباً. كان وزن كل منهما يزيد عن المائتين والخمسين رطلاً. بينما كانت الاثنتان الأخريان وقورتين.

كان هناك حطّابان آخران اضافة إلى الطباخ وإلى الشخص الذي تكلم، كان أحد هذين الحطّابين هو ذلك الذي كان يصغي بانتباه، لكن بخجل، والآخر هو الذي بدا بأنه يستعد لأن يقول شيئاً، وكان هناك سويديان أيضاً. كان هنديان يجلسان على طرف المقعد الخشبي الطويل بينما كان هندي آخر يقف متكئاً على الحائط.

قال لي الرجل الذي كان مستعداً لأن يقول شيئاً، قال بصوت منخفض:

- لا بد أن هذا يشبه الصعود إلى قمة مخزن تبن.

ضحكتُ ونقلتُ قوله إلى تومي :

قال :

ـ أقسم بالمسيح بأنني لم أزر مكاناً كهذا المكان. أنظر إلى ثلاثتهن.

ثم رفع الطبّاخ صوته قائلاً :

ـ كم عمركما أيها الفتيان؟ .

قال تومي :

ـ عمري ست وتسعون سنة وعمره تسع وستون سنة .

ـ هو هو هو.

اهتزت العاهرة الضخمة بالضحك. إن لها صوتاً جميلاً حقاً. لم تبتسم العاهرتان الأخريان.

قال الطباخ :

ـ اوه. ألا يمكنكَ أن تكون مهذباً. لقد سألتُ تودداً فقط.

قلت :

ـ نحن في السابعة عشرة والتاسعة عشرة.

التفت تومي إليّ :

ـ ما بك؟ .

ـ ذلك صحيح .

قالت العاهرة الضخمة :

ـ تستطيعون مناداتي بـ «أليس».

ثم بدأت تهتز ثانية :

سأل تومي :

ـ أذلك اسمك؟ .

قالت :

ـ بالتأكيد. اسمي «أليسْ». أليسَ كذلك؟ .

التفتتَ إلى الرجل الجالس إلى جانب الطبّاخ.

ـ «أليس». ذلك صحيح؟ .

قال الطباخ :

ـ هذا هو النوع من الأسماء يصلح لك.

قالت «أليسْ» :

ـ إنه اسمي الحقيقي .

سأل توم:

ـ ما هما إسما الفتاتين الأخريين؟.

قالت «أليسْ»:

ـ هازيل وايثيل.

ابتسمت هازيل وايثيل. لم تكونا مسرورتين جداً.

قلتُ لاحدى الشقراوين:

ـ ما اسمك؟.

قالت:

ـ فرانسيس.

ـ فرانسيس ويلسون. ماذا يعني هذا لك؟.

سألت الأخرى:

ـ ما اسمك؟.

قالت:

ـ لا تكن غراً.

قال الرجل الذي تكلم أولاً:

ـ يريدنا فقط أن نصبح أصدقاء. ألا تريدون أن تصبحوا أصدقاء؟.

قالت المرأة البيروكسيدية اللون:

ـ لا. ليس معك.

قال الرجل:

ـ إنها حادة الطباع فقط. إنها فتاة صغيرة جادة الطباع دائماً.

نظرتْ الشقراء إلى الأخرى وهزّتْ رأسها.

قالت:

ـ سلاحف طحلبية لعينة.

بدأت «أليسْ» تضحك مرة أخرى ويهتز جسدها كله.

قال الطبّاخ:

ـ ليس ثمة ما يثير الضحك. كلكم تضحكون، لكن ليس هناك ما يثير الضحك. أيها الفتيان الشابان ما هي وجهتكما؟.

سأله توم:

ـ إلى أين أنتَ ذاهب؟.

قال الطباخ:

ـ اريد الذهاب إلى كاديلاك، هل زرتها من قبل؟ أختي تعيش هناك.

قال الرجل الذي يرتدي بنطال جلد الغزال:

ـ عنده أخت هو نفسه.

سأل الطباخ:

ـ ألا يمكنك الكفّ عن ذلك النوع من الكلام؟، ألا يمكنك الكلام بأدب؟.

قال الرجل الخجول:

ـ كاديلاك هي المكان الذي جاء منه ستيف كيتشيل وهو المكان الذي جاء منه آد وولجاست.

قالت إحدى الفتاتين الشقراوين بصوت عالٍ كما لو كان ذِكْر الاسم بمثابة ضغط زناد مسدس استقرت رصاصته فيها:

ـ ستيف كيتشيل، أطلق أبوه عليه النار وقتله. نعم أقسم بالمسيح، أبوه نفسه فعل هذا. لم يبق رجال كستيف كيتشيل.

سأل الطباخ:

ـ ألَمْ يكن اُسمه ستانلي كيتشيل؟.

قالتْ الشقراء:

ـ أوه. أغلق فمك. ما الذي تعرفه عن ستيف؟ ستانلي. لم يكن ستانلي. كان ستيف كيتشيل. كان أكثر الرجال العائشين تهذيباً وجمالاً. لم أرَ رجلاً بنظافة وبياض وجمال ستيف كيتشيل. لم يكن ثمة رجل مثلهِ. كان يتحرك كَنِمر وكان أكثر الرجال لطفاً وكرماً.

سأل أحد الرجال:

ـ أعَرفتِه؟.

ـ أعرفتُه؟ أعرفتُه؟ أأحببْته؟ تسألني عن ذلك؟ عرفتُه كما لم تعرف شخصا آخر في العالم وأحببته كما تحب الله. كان أعظم الرجال، وأكثرهم تهذيباً وبياضاً وجمالاً، ستيف كيتشيل، ثم يأتي أبوه ويطلق عليه النار ويقتله ككلب؟.

ـ أخرجتِ معه إلى الساحل؟.

ـ لا. تعرّفتُ عليه قبل هذا الوقت. كان الرجل الوحيد الذي أحببتُه.

أحسّ الكل باحترام عميق للشقراء بلون البيروكسيد التي قالت كل هذا بطريقة مسرحية راقية جداً، لكن «أليس» أخذت تهتز ثانية. شعرت بهذا لجلوسي إلى جانبها.

قال الطبّاخ:

- كان عليكِ أن تتزوجيه.

قالتْ الشقراء بلون البيروكسيد:

- لم أكنْ أريد أن أضرَّ حياته المهنية. لم أكن أريد أن أكون عقبة في طريقه. لم تكن الزوجة هي كل ما كان يحتاج إليه. آه يا إلٰهي، لقد كان رجلاً عظيماً.

قال الطبّاخ:

- تلك طريقة رائعة للنظر إلى هذا. ألم يصرعه جاك جونسون بالضربة القاضية؟.

قالت البيروكسيدية اللون:

- كانت خدعة. فاجأه القذر الضخم. كان قد صرع جاك جونسون ذلك النغل الضخم الأسود. وضربه ذلك الزنجي ضربة أصابته بالصدفة.

إرتفع شبّاك التذاكر وانفتح فتوجه الهنود الثلاثة إليه.

قالت البيروكسيدية اللون:

- صرعه ستيف. ثم التفت إليّ ليبتسم لي.

قال أحدهم:

- أظن بأنك قلتِ إنك لم تذهبي معه إلى الساحل.

- ذهبتُ إلى هناك فقط لمشاهدة تلك الملاكمة. التفتَ ستيف ليبتسم لي، فقفز ابن الكلبة الأسود ذلك الخارج من الجحيم وأخذه على حين غرة وضربه. يستطيع ستيف أن يهزم مائة شخص مثل ابن الحرام الأسود ذلك.

قال تاجر الأخشاب:

- كان ملاكماً عظيماً.

قالت البيروكسيدية:

- أدعو الله أن يكون كذلك. أدعو الله ألّا يكون عندهم ملاكمون مثله الآن. لقد كان مثل إله، نعم لقد كان كذلك. كان أبيض ونظيفاً وجميلاً وناعماً وسريعاً كالنمر أو كالبرق.

قال توم:

- رأيتُه في فيلم عن الملاكمة.

تأثرنا كلنا شديد التأثر. وكانت «أليسْ» تهتز كلها، نظرتُ إليها فرأيت أنها كانت تبكي. كان الهنود قد خرجوا إلى الرصيف.

قالت البيروكسيدية:

- كان أكثر مما يمكن أن يكونه أي زوج. لقد كنا متزوجين أمام الله وأنا له الآن وسأبقى له دائماً وكلي له، أنا لا أهتم بجسدي. انهم يستطيعون أخذ جسدي.

لكن روحي لستيف كيتشيل. أقسم بالله، لقد كان رجلا.

شعر الكل بالأسى الشديد. كان أمراً محزناً ومربكاً. ثم تكلمت «أليس» التي كانت لا تزال تهتز، فقالت بذلك الصوت المنخفض:

ـ أنتِ كذّابة قذرة.. أنتِ لم تضاجعي ستيف كيتشيل في أي يوم من أيام عمرك، وأنتِ تعرفين هذا.

قالت البيروكسيدية بخفر:

ـ كيف تجرؤ ين على قول هذا؟.

قالت «أليسْ»:

ـ قلتُ هذا لأنها الحقيقة، أنا الانسانة الوحيدة هنا التي عرفتْ ستيف كيتشيل وقد جئتُ من مانسيلونا وعرفته هناك وهذا حقيقي وأنتِ تعرفين بأن هذا حقيقي وليصرعني الله ويميتني إنْ لم يكن هذا حقيقياً.

قالت البيروكسيدية:

ـ وليصرعني الله ويميتني كذلك..

ـ هذا حقيقيّ حقيقيّ حقيقيّ. وأنتِ تعرفين هذا. إنها ليست بقصة ملفقة وأنا أعرف تماماً ما قاله لي.

سألت البيروكسيدية بلطف:

ـ ماذا قال؟.

كانت «أليسْ» تبكي بحرقة حتى أنها لم تستطع الكلام إلاّ بصعوبة بسبب ارتعاشها:

ـ قال: أنتِ فاتنة يا «أليسْ». ذلك ما قاله بالضبط.

قالت البيروكسيدية:

ـ إنها كِذْبة.

قالتْ «أليسْ»:

ـ إنها الحقيقة. ذلك ما قاله حقاً.

قالت البيروكسيدية بكبرياء:

ـ إنها كِذْبة.

ـ لا إنها الحقيقة الحقيقة الحقيقة، وأقسم بالمسيح ومريم بأنها الحقيقة.

قالت البيروكسيدية بسعادة:

ـ لا يمكن لستيف قول مثل ذلك. إنها ليست الطريقة التي يتكلم بها.

قالت «أليسْ» بصوتها العذب:

- إنها الحقيقة. ولن يتغير شيء إنْ أنتِ صدقتها أو لم تصدقيها.
لم تعد تبكي بل كانت هادئة.
صرخت البيروكسيدية:
- من المستحيل أن يقول ستيف ذلك!.
قالت «أليسْ» وابتسمت:
- قال هذا. وأنا أذكر متى قال هذا وكنتُ أنا حينذاك قطعة فاتنة تماماً كما قال، وأنا الآن قطعة أفضل منك، أنتِ يا قربة ماء ساخن قديمة جافة.
قالت البيروكسيدية:
- لا يمكنك إهانتي. أنتِ يا جبل صديد ضخم. فلي أنا ذكرياتي.
قالت «أليسْ» بذلك الصوت الجميل العذب.
- لا. ليس لكِ أية ذكريات حقيقية ما عدا إخراج أنابيبكِ حين تشرعين بممارسة الدعارة. أما الأشياء الأخرى فقد قرأتها في الجرائد. أنا نظيفة وأنتِ تعرفين هذا. والرجال يحبونني، مع أنني بدينة، وأنت تعرفين هذا، وأنا لا أكذب أبداً وأنت تعرفين هذا.
قالت البيروكسيدية:
- أتركيني مع ذكرياتي. مع ذكرياتي الحقيقة المدهشة.
نظرتْ «أليسْ» إليها ثم إلينا وفقد وجهها نظرة الاستياء تلك وابتسمتِ فأصبح وجهها أجمل وجه رأيته في حياتي. كان لها وجه جميل وبشرة ناعمة جميلة وصوت ساحر وكانت جميلة بلا ريب وَوَدُودة حقاً. لكن، يا إلٰهي لقد كانت ضخمة. كانت بدينة بحجم ثلاث نساء. رآني توم أنظر إليها فقال:
- هيا. لنذهب.
قالت «أليس»:
- مع السلامة.
من المؤكد بأن لها صوتاً جميلاً.
قلت:
- مع السلامة.
سأل الطبّاخ:
- أي طريق تسلكان أيها الفتيان.
أخبره توم:
- عكس الطريق الذي تسلكه.

ليريحكم الله بالمرح، أيها السادة

في تلك الأيـام، كانت جميـع المسـافات مختلفة، وكانت الأقذار تتطاير من التلال التي أزيلت الآن، وكـانت مدينـة كانسـاس تشبـه مدينـة القسطنطينيـة كثيراً. قد لا تصـدقـون هذا. لا أحد يصدق هذا، لكن هذا صحيح. فبعد ظهر هذا اليوم، كان الثلج يتسـاقـط، وكـانت تُعـرض بعـد ظهـر هذا اليوم وداخل نافذة عرض محل بيع سيـارات مضـاءة في الظـلام المبكـر، سيارة سباق مطلّية كلها بلون الفضة ومكتوب على غطـاء محـركهـا كلمتـا: دانس* آرجينت. رأيتُ بأن هاتين الكلمتين تعنيـان الرقص الفضيّ أو الراقص الفضي، واحترتُ قليلا أيهما كانتا تعنيان، لكنني سرت في الشارع تحت الثلج وأنا أحس بالسعادة من منظر السيارة والسرور يشيع في نفسي لمعرفتي لغة أجنبية. قطعتُ المسافة مشياً على الأقدام من صالون «وولف إخوان» حيث كان يقـدِّم في عيـد الميـلاد وعيـد الشكـر عشاء مكوَّناً من ديك حبش مجاني وسـرتُ في اتجـاه مستشفى المـدينـة الـواقـع على تل عال ويشـرف على الـدخان والمباني وشوارع المدينة. وكان في غرفة الاستقبال في المستشفى جرّاحا مستشفى الميـدان: دكتـور فيشيـر ودكتـور ويلكـوكس، وقـد جلـس أحدهما أمام مكتب بينما جلس الآخر في كرسيّ ملاصق للحائط.

كان الـدكتـور فيشيـر نحيلاً أشقر رملياً له فم رقيق وعينان مرحتان ويدا مقامر. وكان دكتور ويلكوكس قصيراً أسمر يحمل كتاباً مفهرساً هو: «صديق ودليل الطبيب الشـاب» الـذي كان يحـدِّد الأعـراض والعـلاج حين يُرجـع إليـه ويستشـار في أي موضوع. كما كان مفهرساً فهرسة ترافقية حتى أنه كان يقدِّم التشخيص حين يُستشار حول الأعراض. وقد اقترح دكتور فيشير أن لا بد أن تُفهرس أية طبعة في المستقبل فهرسةً ترافقية أخرى بحيث تقدّم الآلام والأعراض حين يُستشار عند معرفة العلاج. قال مبرراً هذا: «لشحذ الذاكرة».

كان لدى دكتور ويلكوكس حـساسية نحو هذا الكتاب، لكنه لم يكن يستطيع العمل دونه. كان مجلداً بجلد ليّن وملائماً لحجم جيب معطفه كما كان قد اشتراه بناء على نصيحة استاذه الذي قال له: «يا ويلكوكس، انك لا تصلح لمهنة الطب، وقـد بذلتُ كل ما لدي من قوة لأمنعـك من أن تكـون طبيبـاً تحمـل شهـادة بذلك.

* يخلط الـراوي بين dans الفـرنسيـة وكلمـة dance الانجليـزيـة، ومن هنا جاء المعنى غير الدقيق للكلمتين الفرنسيتين. (المترجم).

والآن، وحيث انك أصبحتَ عضواً في هذه المهنة العلمية، فإنني أنصحك، باسم الإنسانية، بأن تحصل على نسخة من كتاب «صديق ودليل الطبيب الشاب» وتستعمله يا دكتور ويلكوكس، وتعلّم كيف ستعمله.

لم يقل دكتور ويلكوكس شيئاً، لكنه اشترى الدليل المغلّف بالجلد الليّن في ذلك اليوم نفسه.

كان دكتور فيشير قد قال وأنا أدخل غرفة الاستقبال العابقة برائحة الدخان والمخدّر وحامض الكاربوليك ومشعّ حراري مفرط الحرارة.

ـ حسناً يا هوارس.

قلت:

ـ أيها السيدان.

سأل دكتور فيشير:

ـ ما هي أخبار السوق المركزي؟.

وافتعل طريقة مبالغاً بها بالكلام بدت لي بأنها بالغة الكياسة إلى أعلى حد.

أجبت:

ـ الديك الرومي المجاني في محل وولف.

ـ شاركتَ فيه؟.

ـ بافراط.

ـ كثير من الزملاء حضروا؟.

ـ كلهم. كل المجموعة.

ـ كثير من بهجة موسم عيد الميلاد؟.

ـ ليس الكثير منها.

قال دكتور فيشير:

ـ شارَك دكتور ويلكوكس قليلاً.

رفع دكتور ويلكوكس نظره إليه ثم إليّ.

سأل:

ـ تريد شارباً؟.

قلت:

ـ لا. شكراً.

قال دكتور ويلكوكس:

ـ حسناً.

قال دكتور فيشير:

ـ هوارس، ليس لديك مانع من مناداتي لك بـ «هوارس»، أليس كذلك؟.

ـ لا.

ـ هوارس العجوز الطيب. لدينا حالة مشوّقة جداً.

قال دكتور ويلكوكس:

ـ ما هي؟.

ـ أنتَ تعرف الفتى الذي أُدخل إلى هنا أمس؟.

ـ أي واحد؟.

ـ الولد الذي طلب الخصاء.

ـ أعرفه.

كنتُ هناك حين دخل. كان ولداً في حوالي السادسة عشرة من عمره. حضر إلى هنا عاري الرأس وكان مهتاجاً وخائفاً، لكنه كان مصمِّماً. كان جعد الشعر حسن البنيان وبارز الشفتين.

سأله دكتور ويلكوكس:

ـ ما بك يا بنيّ؟.

قال الولد:

ـ أريد أن أُخصى.

سأل دكتور فيشير:

ـ لماذا؟.

ـ صليتُ ودعوتُ وفعلتُ كل شيء، لكن شيئاً من هذا لم يَعِنّي في شيء.

ـ يعينك على ماذا؟.

ـ تلك الشهوة الشنيعة.

ـ أية شهوة شنيعة؟.

ـ الحالة التي وصلت إليها. الحالة التي لا أستطيع التوقف عن الانحدار إليها. إنني أُصلي طوال الليل لأتخلص منها.

سأل دكتور فيشير:

ـ أخبرني فقط ماذا حدث.

وأخبره الفتى.

قال دكتور فيشير:

ـ إسمع يا فتى. ليس فيكَ أي عيب. هذه هي الحالة التي من المفترض أن تكون

عليها. ليس من خطأ في ذلك.

قال الولد:

- هذا خطأ. إنها خطيئة ضد الطهارة. إنها خطيئة ضد الرب ومخلِّصنا.

قال دكتور فيشير:

- لا. إنها أمر طبيعي. إنها الحالة التي من المفترض أن تكون عليها وسترى بأنك محظوظ جداً فيما بعد.

قال الولد:

- أوه، أنتَ لا تفهم.

قال دكتور فيشير:

- إسمع.

وأخبر الفتى عن أمور معينة.

- لا. لا أريد أن أسمع. لا يمكنك حملي على سماعك.

قال دكتور فيشير:

- أرجو أن تسمع.

قال دكتور ويلكوكس للولد:

- ما أنت إلّا غبيّ لعين.

سأل الولد:

- إذن، لن تقوم بها؟.

- أقوم بماذا؟!.

- أن تخصيني.

قال دكتور فيشير:

- إسمع. لن يُخصيك أي انسان. ليس في جسمك أي خطأ. لك جسم جميل ويجب عليك ألّا تفكر في هذا. إذا كنتَ متديناً فأذكر أن ما تشكو منه ليس حالة خطيئة بل هو وسيلة تحقيق السر المقدس.

قال الولد:

- لم أستطع إيقاف حدوث هذا. إنني أصلي طوال الليل وأصلي في النهار. إنها خطيئة، خطيئة مستمرة ضد الطهارة.

قال دكتور ويلكوكس:

- أوه، اذهب و...

قال الولد بوقار للدكتور ويلكوكس:

ـ حين تتكلم بهذه الطريقة فإنني لا أسمعك.

وقال للدكتور فيشير:

ـ بالله عليك، ألن تقوم بها؟

ـ لا. لقد قلت لك يا فتى.

قال دكتور ويلكوكس:

ـ أخرجه من هنا.

قال الولد:

ـ سأخرج. لا تلمسني. سأخرج.

كان ذلك في حوالي الساعة الخامسة من اليوم السابق. سألت:

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟.

قال دكتور فيشير:

ـ استقبلنا الشاب في الساعة الواحدة من صباح اليوم وكان قد بتر نفسه بموس حلاقة.

ـ أخصي؟.

قال دكتور فيشير:

ـ لا. لم يكن يعرف ماذا تعني كلمة يُخصى.

قال دكتور ويلكوكس:

ـ قد يموت.

ـ لماذا؟.

ـ نزيف دم.

ـ كان زميلي دكتور ويلكوكس العظيم في نوبة عمله هنا فعجز عن أن يجد هذه الحالة الطارئة مدرجة في كتابه.

قال دكتور ويلكوكس:

ـ إلى الجحيم بطريقة كلامك تلك.

قال دكتور فيشير وهو ينظر إلى يديه، إلى يديه اللتين كانتا قد جلبتا له المتاعب لرغبته في الارضاء ولافتقاره إلى إحترام القوانين الاتحادية.

ـ عنيتُ قول هذا بطريقة ودية فقط. سيذكر هوارس هنا بأنني أقول هذا بطريقة ودية جداً. كان بتراً ذلك الذي قام به الشاب يا هوارس.

قال دكتور ويلكوكس:

ـ حسناً. أود ألّا تسخر مني بسبب هذا. لا داعي للسخرية مني.

ـ أنا أسخر منك يا دكتور، في هذا اليوم، يوم الاحتفال بميلاد مخلّصنا؟.

قال ويكوكس:

ـ مخلِّصنا؟ ألستَ يهودياً؟.

ـ أنا كذلك. أنا كذلك. وكثيراً ما أنسى هذا. لم أُوْلِ هذا الأمر الأهمية التي يستحقها قط. إنه لحسن منك أن تذكّرني. مخلّصك أنت. ذلك صحيح. مخلِّصك، مخلِّصك بلا شك ـ والركوب لأحدِ السُعُف.

وقال دكتور ويلكوكس:

ـ أنت ذكي لعين.

ـ تشخيص ممتاز يا دكتور. كنتُ دائماً ذكياً لعيناً. أذكى من أن أعيش على الساحل بالتأكيد. تجنّب هذا، يا هوارس. ليس لديك كيرميل، لكنني أرى لمعة ذكاء أحياناً. يا له من تشخيص ـ وبدون الكتاب.

قال دكتور ويلكوكس:

ـ إلى الجحيم بك.

قال دكتور فيشير:

ـ كل ذلك في الوقت المناسب يا دكتور. كل ذلك في الوقت المناسب. إنْ كان ثمة مكان كهذا فإنني سأزوره بالتأكيد. حتى انني سألقي عليه نظرة سريعة. ليس أكثر من إختلاس النظر، حقاً. ثم سأحوّل نظري على الفور تقريباً. وهل تعرف ما الذي قاله الفتى الشاب يا هوارس، حين أدخله الطبيب إلى هنا؟. قال: «آه. لقد طلبتُ منك أن تفعل هذا. طلبتُ منك أن تقوم بهذا مراراً وتكراراً».

قال دكتور ويلكوكس:

ـ وفي يوم عيد الميلاد أيضاً.

قال دكتور فيشير:

ـ ليس لدلالة اليوم الخاصة أية أهمية.

قال دكتور ويلكوكس:

ـ ربما لا يكون هذا بالنسبة إليك.

قال دكتور فيشير:

ـ أنتَ تسمعه يا هوارس؟ أنت تسمعه؟ بعد أن يكتشف الطبيب نقطة الضعف عندي، فلنقل: عَقِبَ أخيل، فإنه يستغل هذه النقطة.

قال دكتور ويلكوكس:

ـ أنتَ ذكي لعين جداً.

تغيّر البحر

قال الرجل:

ـ حسناً. ما رأيك؟.

قالتْ الفتاة:

ـ لا. لا أستطيع.

ـ تعنين أنك لن تفعليها.

قالت الفتاة:

ـ لا أستطيع. ذلك كل ما أعنيه.

ـ تعنين أنك لن تفعليها.

قالت الفتاة:

ـ حسناً. فهمتَ كلامي بطريقتك الخاصة.

ـ لم أفهمه بطريقتي الخاصة. أدعو الله أن أكون فهمتُه كذلك.

قالت الفتاة:

ـ أنتَ تفهم كذلك منذ مدة طويلة.

كان الوقت مبكراً، ولم يكن في المقهى من أحد سوى الساقي وهذين الشخصين اللذين جلسا معاً إلى طاولة في الركن. كان الوقت نهاية الصيف وكانا كلاهما مدبوغيّ البشرة من الشمس، فبديا كأنهما في غير محلهما في باريس. كانت الفتاة ترتدي بدلة من نسيج التويد، وكانت بشرتها ناعمة ذات سمرة ذهبية، وشعرها الأشقر قصيراً وقد تجمّع بخصلة جميلة بعيداً عن جبهتها. نظر الرجل إليها.

قال:

ـ سأقتلها.

قالت الفتاة:

ـ لا تفعل هذا. أرجوك ألّا تفعل هذا.

كانتْ لها يدان جميلتان جداً، ونظر الرجل إليهما. كانتا رقيقتين وسمراوين وجميلتين جداً.

ـ سأقتلها. أقسم بالله بأنني سأقتلها.

ـ لن يسعدك هذا.

ـ ألم تستطيعي التوصل إلى شيء آخر؟ ألم تستطيعي التوصل إلى حل آخر؟ .

قالت الفتاة:

ـ لا يبدو هذا. ماذا ستفعل فيما يتعلق بهذا؟ .

ـ أخبرتُكِ بهذا.

ـ لا ، أعني ماذا ستفعل حقاً؟ .

قال:

ـ لا أدري.

نظرتْ إليه ومدت يدها.

قالت:

ـ يا فيل العجوز المسكين.

نظر إلى يديها، لكنه لم يمس يدها بيده.

قال:

ـ لا. شكراً.

ـ لن يفيدك قولي لك بأنني آسفة؟ .

ـ لا.

ـ ولا قولي لك كيف هي؟ .

ـ أفضل ألاّ أسمع هذا.

ـ أحبك كثيراً.

ـ نعم. هذا يبرهن على حبك.

قالت:

ـ آسفة إنْ أنتَ لا تفهم.

ـ أنا أفهم تماماً. تلك هي المشكلة. إنني أفهم.

قالت:

ـ أنت تفهم. وذلك ما يزيد الطين بلّه طبعاً.

قال وهو ينظر إليها:

ـ بالتأكيد. سأفهم طيلة الوقت. طيلة النهار وطوال الليل. خصوصاً طول الليل. سأفهم. لا داع لأن تقلقي على ذلك.

قالتْ:

ـ آسفة.

ـ لو كان رجلاً..

- لا تقل ذلك. لن يكون رجلاً. أنتَ تعرف ذلك. ألا تثق بي؟.

قال:

- ذلك سخيف. أثق بكِ. ذلكِ سخيف حقاً.

قالت:

- إنني آسفة. ذلك كل ما يبدو أنني سأقوله. لكن، حين نفهم حقاً بعضنا بعضاً، فلا فائدة من التظاهر بغير ذلك.

قال:

- لا. لا أظن هذا.

- ساعود إنْ أردتني.

- لا. لا أريدك.

ثم لم ينبسا لوهلة.

سألت الفتاة:

- أنتَ لا تصدق بأنني أحبك، أليس كذلك؟.

قال الرجل:

- لنكف عن الكلام العفن.

- ألا تصدق حقاً بأنني أحبك؟.

- لِمَ لا تبرهني عليه؟.

- لم تعتد أن تكون على تلك الشاكلة. لِمَ تطلب مني أن أبرهن على أي شيء. ذلك غير لائق.

- أنتِ فتاة مضحكة.

- أنتَ لستَ كذلك. أنتَ رجل مهذب وسيتفطر قلبي حزناً إنْ أنا ذهبتُ وتركتك..

- لا بد أن تتركيني طبعاً.

قالت:

- نعم. لا بد أن أتركك وأنتَ تعرف هذا.

لم يقل شيئاً فنظرتْ إليه ومدتْ يدها ثانية. كان الساقي يقف في الطرف القصي من نضد حاجز المشرب. كان وجهه أبيض وكذلك كانت جاكتته. وكان يعرف هذين الشخصين ورأى بأنهما شابان جميلان. فقد كان قد رأى أزواجاً شباباً جميلين يفترقون وأزواجاً جدداً يلتقون، لكنهم لا يستمرون فترة طويلة على هذا النحو الجميل. لم يكن يفكر بهذا الموضوع، لكنه كان يفكر بحصان. فسيتمكن من إرسال شخص عبر الشارع خلال نصف ساعة ليكتشف إنْ كان حصانه قد فاز.

سألت الفتاة:

- ألا يمكنك أن تكون لطيفاً معي ثم تدعني أذهب؟.

- ماذا ترين بأنني سأفعل؟.

دخل شخصان من الباب واتجها نحو نضد حاجز المشرب.

تلقى الساقي طلباتهما وقال:

- حسناً يا سيدي.

سألت الفتاة:

- لن تغفر لي؟ حين تعرف عنه؟.

- لا.

- ألا ترى بأن الأشياء التي حصلت بيننا وقمنا بها ستؤدي إلى تغيّر في الفهم؟.

قال الشاب بمرارة:

- الرذيلة وحش وهي ذات هيئة رهيبة جداً إلى درجة أنها لن تحتاج إلاّ إلى أن تنظر إليها حتى تصبح شيئاً محدّداً أو شيئاً آخر. ثم نحن شيء، شيء، ثم عناق.

لم يستطع أن يتذكر الكلمات.

قال:

- لا أستطيع الاستشهاد بالنص.

قالت:

- لنكفّ عن ذكر الرذيلة. ذلك ليس لائقاً جداً.

قال:

- إنحراف.

خاطب أحد الزبائن الساقي:

- جيمس. تبدو بصحة جيدة جداً.

قال الساقي:

- وأنتَ نفسك تبدو بصحة جيدة جداً.

قال الزبون الآخر:

- جيمس العجوز، صحتك أحسن.

قال الساقي:

- إنه لأمر رهيب، طريقة تظاهري.

قال الزبون الأول:

- لا تنسَ أن تصبّ البراندي يا جيمس.

قال الساقي :

ـ لا يا سيدي . ثق بي .

نظر الشخصان الجالسان إلى نضد حاجز المشرب إلى الإثنين الجالسين إلى الطاولة من فوق النضد ثم عادا ونظرا إلى الساقي من جديد . فاتجاه النظر إلى الساقي كان الاتجاه المريح .

قالت الفتاة :

ـ أنا أفضل إنْ أنتَ لم تستعمل كلمات كتلك . ليس ثمة ضرورة لاستعمال كلمة كتلك .

ـ ماذا تريدينني أن أسميها؟ .

ـ لا داعٍ لأن تسميها . لا داعٍ لإطلاق أي اسم عليها .

ـ ذلك هو الاسم لها .

قالت :

ـ لا . فقد جُبِلْنا من كل أنواع الأشياء . لقد عرفتَ ذلك . لقد استغللتَها بما فيه الكفاية .

ـ لا تقولي ذلك مرة أخرى .

ـ لأن ذلك يفسرها لك .

قال :

ـ صحيح . صحيح .

ـ تعني بأن الكل خطأ . أنا أعرف . الكل خطأ . لكنني سأعود . لقد أخبرتك بأنني سأعود . سأعود في الحال .

ـ لا ، لن تعودي .

ـ سأعود .

ـ لا ، لن تعودي . لن تعودي إليّ .

ـ سترى .

قال :

ـ نعم . ذلك هو الجحيم منها . ربما تعودين .

ـ سأعود طبعاً .

ـ إمضِ إذن .

لم تصدق ، لكن صوتها كان يشي بالسعادة :

ـ حقاً؟ .

ـ إمض .

بدا له صوتُه غريباً. كان ينظر إليها، إلى طريقة حركة فمها وإلى منحنى عظام وجنتيها، إلى عينيها وإلى طريقة نمو شعرها على جبهتها وإلى حافة أذنها وإلى رقبتها.

قالت:

ـ ليس ذلك حقاً. آه، أنتَ جميل جداً. أنتَ أطيب مما استحق.

ـ وعندما تعودين أخبريني عن كل شيء.

بدا صوته غريباً جداً. لم يستطع تمييزه. نظرت إليه بسرعة. لقد استقر رأيه على شيء...

سألته بجد:

ـ أتريدني أن أذهب؟.

قال جاداً:

ـ نعم. حالاً.

لم يكن صوته نفس الصوت وكان فمه جافاً جداً.

قال:

ـ الآن.

نهضتْ واقفة ثم خرجت بسرعة. لم تلتفت إليه. راقبها وهي تبتعد. لم يكن نفس الرجل الذي كأنه قبل أن يطلب منها أن تذهب. وقف مبتعداً عن الطاولة والتقط قصاصتي ورقتي الحساب ثم اقترب من نضد حاجز المشرب وهو يحملهما.

قال للساقي:

ـ أنا رجل مختلف يا جيمس. أنتَ ترى فيّ رجلاً مختلفاً تماماً.

قال جيمس:

ـ نعم يا سيدي.

قال الرجل الأسمر الشاب:

ـ الرذيلة شيء غريب جداً يا جيمس.

نظر إلى الخارج من الباب. رآها تسير مبتعدة في الشارع. وحين نظر في الزجاج رأى بأنه حقاً رجل مختلف تماماً. وأفسح له الإثنان الآخران الجالسان إلى نضد حاجز المشرب مكاناً.

قال جيمس:

ـ أنتَ في حالة جيدة يا سيدي.

أفسحا له مكاناً أوسع ليرتاح تماماً. رأى الشاب نفسه في المرآة خلف نضد حاجز المشرب.

قال:

- قلتُ إنني رجل مختلف يا جيمس.

وفيما هو ينظر إلى المرآة، رأى بأن ذلك كان صحيحاً تماماً.

قال جيمس:

- تبدو بصحة جيدة جداً يا سيدي. لا بد أنك أمضيتَ صيفاً رائعاً جداً.

حال لن تكون عليها أبداً

وقع الهجوم عبر الحقول، وكانت قد أوقفته نيران مدافع رشاشة انطلقت من الطريق الغائر ومن مجموعة المنازل الريفية، بينما لم يواجه أية مقاومة في المدينة، فبلغ ضفة النهر. وفيما كان نيكولاس آدمز يتقدم على الطريق فوق دراجة لينزل عنها ويدفعها حين يكون الطريق متكسراً كثيراً، رأى ما كان قد حدث من وضع الموتى.

فالموتى يتمددون فرادى أو جماعات في عشب الحقول العالي وعلى الطريق، وقد قُلبت جيوبهم وتجمّع فوقهم الذباب بينما الأوراق تتناثر حول كل جثة أو مجموعة جثث.

وكانت بين العشب والحبوب وعلى جانب الطريق وفي بعض الأماكن المتفرقة فوق الطريق، الكثيرُ من المواد: مطبخ حقل، لا بد أنه وصل إلى هناك حين كانت الأمور على ما يرام، وأكياس مونة مصنوعة من جلد العجول، وقنابل عصوية، وخوذات وبنادق وأحياناً أكتاف بنادق منزوعة، وحراب مغروسة في القاذورات، لقد حفروا القليل جداً في النهاية، وقنابل عصوية، وخوذات، وبنادق، وأدوات حفر خنادق، وصناديق ذخيرة، ومسدسات قذائف نَجْمية، بينما تناثرت رصاصاتها في كل مكان، وصناديق طبية، وأقنعة واقية من الغاز، وعلب أقنعة فارغة، ومربض رشاش بثلاث قوائم بين مجموعة من القذائف الفارغة المتناثرة، وأحزمة رصاص تبرز من الصناديق، وعلبة تبريد ماء فارغة تقع على جانبها مجموعة من أعقاب بنادق محطمة وطاقم بأوضاع غريبة بينما تناثرت حولهم في العشب أوراق أخرى من النوع العادي.

وكانت هناك كتب صلوات ومجموعة بطاقات بريدية تصوّر وحدة الرشاشات وهم يقفون في مرح متورد ومرتب كأنهم في صورة فريق كرة قدم في نشرة كلية سنوية، وها هم الآن متكومون منتفخون في العشب، وبطاقات بريدية دعائية تصوّر جندياً بزي نمساوي يثني امرأة إلى الخلف ويدفع بها فوق سرير، وقد رُسم الشخصان رسماً انطباعياً، وصُورا تصويراً جذاباً جداً ولم يكن فيه شيء مشترك مع الاغتصاب الفعلي التي ترفع فيه تنورة المرأة فوق رأسها لتجمّدها، وقد جلس أحد الرفاق على رأسها أحياناً. هناك الكثير من هذه البطاقات المحرِّضة التي لا بد أنها صدرت قبل الهجوم تماماً. وها هي الآن متناثرة مع البطاقات البريدية والصور الملطخة بالأوساخ، والصور الصغيرة لفتيات قرويات أخذها مصورون قرويون،

وصـور الأطفـال التي أخـذت في المناسبات، والرسائل، رسائل، رسائل. ويكون حول الموتى دائماً كثير من الورق، ولم يكن حُطام هذه المعركة إستثناءً.

كان هؤلاء موتى جدداً، ولم يهتم أحـد بأي شيء إلا بجيـوبهم. لاحظ نيك أن موتـانـا، أومن أعتقـد بأنهم ما زالوا موتانا، قليلو العدد إلى حد مدهش. وكانت معـاطفهم مفتـوحـة أيضـاً وجيـوبهم مقلوبـة، فاظهـروا بأوضـاعهم أسلوب ومهارة الهجوم. وكان الطقس الحار قد نفخ الموتى بنفس الدرجة دون إعتبار لجنسياتهم.

من الواضح بأنه كان قد دوفع عن المدينة لآخر مرة من خطر الطريق الغائر ولم يكن قد بقي من النمساويين إلا القليل أولـم يكن قد بقي منهم أحد ليعاودوا الهجوم على المـدينـة. وكـانت في الشارع ثلاث جثث فقط بدوا بأنهم قتلوا وهم يجرون. وكـانت بيـوت المـدينة قد كُسرت بفعل القصف المدفعي وكانت في الشارع الكثير من ركام قصارة ومونة البيوت كما كانت فيه عوارض مكسورة، وبلاط مكسـور، وحفر كثيـرة، وكـانت بعضها صفراء الحواف من غاز الخردل. كانت هناك الكثير من قطع القذائف وكرات الشظايا متناثرة بين الحُطام. لم يكن في المدينة أحد على الاطلاق.

لم ير نيك آدمز أي شخص منذ غادر فورناسي، مع أنه كان قد رأى، فيما كان راكبـاً دراجتـه وسـائراً على الطريق عبر الريف المفرط الخضرة، مدافعَ مخبأة تحت ستـائـر أوراق التـوت إلى يسـار الطـريق، ملاحظـاً وجـودهـا من موجـات الحـرارة الـمـتصـاعـدة في الجـو فوق أوراق الأشجـار حين كانت الشمس تنعكس على المعدن. وتابع سيره الآن داخل المدينة، وقد اندهش لرؤ يته لها مهجورة، وخرج إلى الطـريق الـدافيء تحت ضفـة النهـر. وفيما هو يغادر المدينة، رأى أرضاً فضاء مكشـوفـة حيث ينحدر الطريق إلى الأسفل وكان بوسعه أن يرى مصبَّ النهر الهادي والمنحنى الـواطيء لضفتـه المقـابلة والـوحل الأبيض المشوي بالشمس حيث كان النمساويون قد حفروا. كان المكان مورقاً جداً وأخضر على نحو أعمق مما رآه آخر مرة، كما أن تَميّزَه بالميزة التاريخية لم يُضفِ أي تغيير على هذا النهر الواطيء.

كانت الكتيبـة تنتشـر على طول الضفة إلى اليسار. كما كانت في قمة الضفة سلسلة من الحفـر يستقـر فيهـا قليل من الرجال. رأى نيك المكان الذي نُصبت فيه المـدافـع الـرشاشة وصواريخ الاشارة على حواملها. وكان الرجال في الحفر الواقعة على جانـب الضفـة نائمين. لم يوقفـه أي من الحـرس. وحين دار مع الطـريق المنحني، صوّب ملازم ثان شاب بلحيـة قصيـرة لم يحلقهـا منـذ أيام وبعينين محتقنتين جداً مسدساً نحوه.

ـ مَن أنت؟ .

أخبره نيك :

ـ كيف لي أن أعرف هذا؟ .

أراه نيك قصاصة الورق المثبتة عليها صورة وتعريف وختم الجيش الثالث . أمسك بها .

ـ سأحتفظ بهذه .

قال نيك :

ـ لن تحتفظ بها . أعد إليّ البطاقة وأبعد مسدسك . هناك ، في جرابه .

ـ كيف لي أن أعرف مَنْ أنت؟ .

ـ تُعلمك قصاصة الورق .

ـ وإذا كانت القُصاصة مزِّيفة؟ أعطني تلك البطاقة .

قال نيك بمرح :

ـ لا تكن أبله . خذني إلى قائد سريتك .

ـ لا بد أن أرسلك إلى قيادة كتيبة .

قال نيك :

ـ حسناً . اسمع . أتعرف النقيب بارافيشيني؟ الرجل الطويل ذو الشاربين القصيرين والذي كان مهندساً معمارياً ويتكلم اللغة الانجليزية؟ .

ـ تعرفه؟ .

ـ قليلاً .

ـ أية سرية يقودها؟ .

ـ الثانية .

ـ إنه يقود الكتيبة .

قال نيك :

ـ حسناً .

لقد شعر بالارتياح لمعرفته بأن بارافيشيني بخير . تابع :

ـ لنذهب إلى الكتيبة .

وفيما كان نيك يغادر طرف المدينة ، انفجرت ثلاث قذائف شظايا عالياً إلى اليمين فوق أحد البيوت المحطمة ، إلا أنه لم يجر أي قصف منذ ذلك الوقت . لكن وجه هذا الضابط بدا كوجه رجل أثناء القصف . فقد ارتسم عليه نفس التوتر ولم يبد صوته طبيعياً . لقد أثار مسدسه أعصاب نيك .

قال :

ـ أبعده عني . النهر كله يفصل بينهم وبينك الآن .

قال الملازم الثاني :

ـ لو خطر في بالي بأنك جاسوس لأطلقت عليك النار الآن .

قال نيك :

ـ أسرع . لنذهب إلى الكتيبة .

أثار هذا الضابط أعصابه كثيراً .

نهض النقيب بارافيشيني واقفاً حين رفع نيك يده بالتحية العسكرية من وراء الطاولة في المخبأ الذي كان قيادةَ الكتيبة ، والنقيب بارافيشيني نائب رائد وبدا أكثر نحولاً وشبهاً بالانجليز مما كان في السابق .

قال :

ـ مرحباً . لم أعرفك . ماذا تفعل بهذا الزي .

ـ لقد وضعوني فيه .

ـ أنا مسرور جداً لرؤيتك يا نيكولو.

ـ حسن . تبدو بخير. كيف كان العرض .

ـ قمنا بهجوم رائع جداً . حقاً . هجوم رائع جداً . سأريك . أنظر.

أراني على الخرائط كيف جرى الهجوم . قال نيك :

ـ جئتُ من فورناسي . كان بوسعي أن أرى كيف كان الهجوم . كان جيداً جداً .

ـ كان خارقاً للعادة . كان هجوماً فوق العادة عموماً . هل أنتَ مرتبط بالفوج؟ .

ـ لا . من المفروض أن أتنقل من مكان إلى آخر هنا لأريهم الزي .

ـ كم هو غريب هذا .

ـ إذا رأوا زياً أمريكياً واحداً فمن المفروض أن يحملهم على الاعتقاد بأن آخرين سيحضرون .

ـ لكن ، كيف سيعرفون بأنه زي أمريكي؟ .

ـ أنت ستخبرهم بهذا .

ـ أوه . نعم . فهمت . سأرسل معك عريفاً ليريك المكان وستقوم بجولة بين صفوف الجنود .

قال نيك :

ـ كسياسي حقير.

ـ ستكون أكثر شهرة بكثير وأنتَ في ملابس مدنية . فهي المميَّزة حقاً .

قال نيك:

- بقبعة همبورجية.

- أو بقبعة فَرو من نوع فيدورا.

قال نيك:

- من المفروض أن تكون جيوبي مليئة بالسجائر والبطاقات البريدية وأشياء كهذه. لا بد أن تكون لدي حقيبة مليئة بالشوكلاته، ويجب أن تُوزَع مع كلمة رقيقة وتربيتة على الظهر. لكن، ليس ثمة أية سجائر ولا بطاقات بريدية ولا شوكولاته. لكنهم طلبوا مني التنقل من مكان إلى آخر على أية حال.

- أنا متأكد من أن ظهورك سيقوي من عزائم الجنود كثيراً.

قال نيك:

- أتمنى ألاّ يكون كذلك. إنني مستاء لهذا الوضع كما هو عليه. ومبدأياً، كان يحسن أن أحضر لك قنينة براندي.

قال بارا وقد ابتسم لأول مرة، مبيّناً أسنانه المصفرّة.

- مبدأياً: يا له من تعبير جميل. أتريد بعض شراب الجرابا؟.

قال نيك:

- لا. شكراً لك.

- ليس فيه أي إثير.

- لا زلتُ أُحس بطعم ذلك الإثير.

تذكر نيك فجأة كل ما جرى.

- أتعرف بأنني لم أعرف أنك كنتَ سكراناً إلاّ بعد أن بدأتَ تتكلم ونحن عائدون في الشاحنات.

قال نيك:

- كان السكر يتعتعني في كل هجوم.

قال بارا:

- لا أستطيع أن أفعل هذا. لقد شربتُ هكذا في العرض الأول، في العرض الأول فقط، وقد جعلني منزعجاً جداً فقط ثم شعرت بعطش مخيف.

- أنت لا تحتاج إلى شراب.

- أنتَ أشجع مني في أثناء أي هجوم.

قال نيك:

- لا. أنا أعرف كيف أكون وأنا أُفضّل أن أغرق بالسكر. لستُ خجلاً من هذا.

- لم أرَكَ سكراناً أبداً.

قال نيك:

- لا؟ أبداً؟ لم أكن كذلك حين سافرنا في تلك الليلة من ميستر إلى بورتوجراند ثم أردتُ أن أنام فاتخذتُ الدراجة غطاءً لي وسحبتها فوق جسمي حتى ذقني؟.

- لم يكن ذلك في الخطوط.

قال نيك:

- لنكفّ عن الحديث عن كيف كنتُ. إنه موضوع أعرف عنه أكثر من اللازم حتى أنني لا أريد أن أفكر فيه.

قال بارافيشيني:

- بوسعك البقاء هنا لوهلة. بوسعك أخذ غفوة إنْ شئت. فهم لا يفعلون الكثير لهذا أثناء القصف. كما أن الجو أشد حرارة مما يسمح بالخروج الآن.

- أرى أن لا موجب للعجلة.

- كيف حالك حقاً؟.

- بخير. أنا بخير تام.

- لا. أعني كيف حالك حقاً.

- لا. أنا بخير. إنني لا أستطيع أن أنام بلا نور من أي نوع كان. ذلك كل ما أعاني منه.

- لقد قلتُ بأنه كان لا بد من تَقْويرَها. أنا لستُ طبيباً، لكنني أعرف ذلك.

- حسناً، رأوا بأنه كان يحسن أن تُمْتَصّ، وذلك ما حصل لي. ما بك؟ أنا لا أبدو مجنوناً بالنسبة إليك، أليس كذلك؟.

- تبدو على أحسن حال.

قال نيك:

- إنه جحيم من الازعاج إنْ هم أصدروا شهادة بأنك مجنون. لن يثق بك أحد بعدئذ.

قال بارافيشيني:

- سأغفو قليلاً يا نيكولو. هذا المكان ليس مركز قيادة الكتيبة الذي عرفناه من قبل. نحن في انتظار سحبنا من هنا فقط. يجب ألا تخرج من هنا في هذه الحرارة الآن - إنه لسخف. استعمل ذلك السرير الخشبي.

- ربما أتمدد فقط.

تمدّدَ* نيك على السرير الضيق. كان مُحْبَطاً جداً لما كان يحس به من

مشاعر، وأكثر إحباطاً لأن حاله كانت واضحة حتى للنقيب بارافيشيني. لم يكن هذا المخبأ بحجم المخبأ الــذي أصيب فيــه مجنــدو ١٨٩٩، الخارجين من الجبهة مباشرة، بالهستيريا أثناء القصف قبل الهجوم، فطلب منه بارا أن يقودهم ليسيروا اثنين اثنين في الخارج ليبيّن لهم بأن شيئاً لن يحدث، وكان هو قد أحكم شدّ شريط الذقن في الخوذة على فمه ليبقي شفتيه ساكنتين. عارفاً بأنهم لن يستطيعوا الصمود أمام القصف حين يبدأ. عارفاً بأن القصف كان كله أجراساً رهيبة ـ وإنْ لم يستطع الكف عن البكاء، فأكسر أنفه لتقدِّم إليه شيئاً آخر يفكر فيه. سأطلق النار على واحد منهم، لكن الأوان فات. ستسوء حالهم كلهم. أكسر أنفه. لقد أجّلوه إلى الساعة الخامسة وعشرين دقيقة فبقيت لدينا أربع دقائق فقط. أكسر أنف ذلك اللوطي الآخر السخيف وأركل مؤخرته السخيفة وأطرده من هنا. أترى بأنهم سيجتازون القصف؟ وإن لم يصمدوا فأطلق النار على اثنين وحاول أن تخرج الآخرين بطريقة ما. ابق خلفهم أيها الرقيب. فلا فائدة من السير أمامهم فستكتشف بأن أحداً لا يتبعك. اضمن خروجهم وأنتَ تخرج. يا لها من أجراس دموية. حسناً. ذلك حسن. ثم قال، ناظراً إلى ساعة اليد، بتلك النغمة الهادئة، تلك النغمة الهادئة القيّمة: «سوفويا». جاعلاً اياها باردة، لا وقت للوصول إليها، لم يستطع أن يجد طريقه بعد الإنهيار، فقد انهارت نهاية واحدة كاملة، ذلك ما أفزعهم، مبرداً اياها على ذلك المنحدر في المرة الوحيدة التي لم يجعل رائحتها نتنة. وبعد أن عادوا، بدا أن صندوق التلفريك احترق، فتأخر نقل بعض الجرحى إلى أسفل التل أربعة أيام كما لم ينقل بعضهم إلى الأسفل، لكننا صعدنا وعدنا وهبطنا ـ إننا نهبط دائماً. وكان هناك جابي ديسليز، على نحو غريب جداً، والريش يغطيه، لقد دعوتني بالطفل المدلل قبل سنة قلت أيها الطفل الصغير إن من الجميل أن أرى طفلاً صغيراً والريش يكسوه، والريش منزوع عنه، يا جابي العظيم، بينما اسمي هاري بيلسير أيضاً، واعتدنا أن نخرج من الجانب البعيد من سيارات الأجرة عندما يصبح الطريق منحدراً ونحن نصعد إلى أعلى التل وكان بوسعه أن يرى ذلك التل كل ليلة حين حلم بالقلب المقدس ينتفخ أبيض مثل فقاعة صابون. كانت فتاته هناك أحياناً وأحياناً أخرى كانت مع شخص آخر ولم يكن يستطع فهم ذلك، لكن ذلك كان في الليالي التي كانت الأنهار تجري فيها بعرض أوسع وهدوء أكبر مما كان يجب أن تكون عليه كما كان في خارج فوسالتا بيض منخفض مطلياً باللون الأصفر تحيط به

* على القارىء أن يلاحظ أن هذه الفقرة وما يليها من فقرات هي مجرد هلوسة وصور وذكريات تدور في ذهن نيك الذي يعاني من انهيار عصبي. (المترجم).

أشجار صفصاف من جميع الجهات واسطبل منخفض وقناة، وكان قد ذهب إلى هناك آلاف المرات لكنه لم ير القناة، لكنها كانت هناك واضحة وضوح التل، إلا أنها كانت تخيفه فقط. لقد كان ذلك المنزل يعني له أكثر من أي شيء وكان يستحوذ عليه في كل ليلة. ذلك ما كان يحتاجه لكنه كان يخيفه خصوصاً حين يكون القارب مربوطاً هناك بهدوء بين شجر الصفصاف في القناة، لكن الضفاف لم تكن مثل ضفاف هذا النهر. كانت كلها أكثر انخفاضاً كما لو كانت في بورتوجراند، حيث رأوهم يخوّضون عائدين عبر الأرض المغمورة بالفيضان، رافعين بنادقهم عالياً إلى أن سقطوا معها في الماء. مَنْ الذي أمر ذلك الشخص؟ لو لم تختلط الأمور على هذا النحو اللعين لكان بوسعه أن يتتبعه حقاً. ذلك كان السبب الذي جعله يلاحظ كل شيء بمثل هذه التفاصيل ليبقيه واضحاً حتى يعرف المكان الذي كان فيه، لكن، الأمور اختلطت بلا سبب كما هو الحال الآن وهو يتمدد على سرير خشبي ضيّق في مركز قيادة الكتيبة وبارا يقود كتيبة وهو في زي امريكي دموي. اعتدل جالساً ونظر حوله، كانوا كلهم يراقبونه. كان بارا قد خرج، وتمدد مرة أخرى.

وجاءه جزء باريس في وقت مبكر ولم يكن خائفاً منه إلاّ حين هجرتْه وذهبتْ مع شخص آخر ومن الخوف من أن يأخذا نفس السائق مرتين. ذلك ما أخافه من ذلك. لم يَخَفْ قط من الجبهة. لم يعد يحلم بالجبهة الآن إطلاقاً لكن ما أخافه جداً إلى درجة لم يستطع التخلص منه هو ذلك البيت الأصفر الطويل وعرض النهر الآخر. وها هو قد عاد إلى هنا عند النهر، فقد عَبَرَ تلك المدينة نفسها ولم يكن فيها أي بيت. كما لم يكن النهر على ذلك النحو. إذن، أين ذهب كل ليلة، وما هو الخطر الذي تعرّض له، ولماذا كان سيستيقظ مبللاً جداً وخائفاً أكثر مما كان أثناء القصف، بسبب بيت وطاولة طويلة وقناة؟.

جلس وطوّح برجليه إلى الأسفل بحذر، فقد كانتا تتيبسان في أي وقت إنْ هو مدَّهما على استقامتهما مدة طويلة، ثم رَدّ على تحديقات المعاون وعاملي الاشارة وساعيين إثنين قرب الباب ثم وضع على رأسه خوذة الخندق المغطاة بالقماش.

قال:

ـ آسف لغياب الشيكولاته، وبطاقات البريد والسجائر. لكنني أرتدي الزي الموحد على أية حال.

قال الضابط المعاون:

ـ سيحضر الرائد حالاً.

والضابط المعاون في ذلك الجيش لا يكون ضابطاً مفوّضاً.

قال نيك لهم:

- ليس الزي صحيحاً تماماً. لكنه يوحي إليكم بالفكرة. سيحضر إلى هنا ملايين عديدة من الأمريكيين قريباً.

سأل الضابط المعاون:

- أترى بأنهم سيرسلون أمريكيين إلى هنا؟.

- أوه، طبعاً. أمريكيون بضعف حجمي، وأصحاء وبقلوب نظيفة، وينامون ليلاً، ولم يصابوا بجروح قط، ولم يطأطئوا رؤوسهم قط، ولم يفزعوا قط، ولا يشربون الخمر، وهم مخلصون للفتيات اللواتي تركوهن وراءهم، ولم يصب الكثير منهم بالفساد، شبان رائعون. سترون.

سأل الضابط المعاون:

- هل أنتَ ايطالي؟.

- لا. أنا أمريكي. أنظر إلى الزّي. سبيانوليني هو الذي خاطه لكنه ليس صحيحاً تماماً.

- أمريكي شمالي أم جنوبي؟.

قال نيك:

- شمالي.

أحس بها تأتيه الآن. سيهدأ.

- لكنك تتكلم الايطالية.

- لِمَ لا؟ ألديك مانع إنْ أنا تكلمتُ الايطالية؟ أليس من حقي الكلام بالايطالية؟.

- ولديك ميداليات إيطالية.

- الأشرطة والأوراق فقط. ستأتي الميداليات فيما بعد. أو أنكم تعطونها إلى أشخاص ليحتفظوا بها فيهجرون الجيش، أو أنها تضيع بين أمتعتكم. يمكنك شراء ميداليات أخرى في ميلانو. أن الأوراق هي المهمة. يجب ألا تستاءوا لذلك. ستحصلون أنتم أنفسكم على بعض الميداليات إنْ أنتم بقيتم في الجبهة مدة كافية.

قال الضابط المعاون بجفاء:

- أنا محارب قديم في حملة إرتيريا. وحاربت في طرابلس.

مدّ نيك يده:

- إنه لشيء عظيم أن أقابلك. لا بد أن تلك الأيام كانت أياماً شاقة. لقد لاحظتُ

الأشرطة. هل كنت في كارسو؟.

ـ لقد استدعيتُ للخدمة في هذه الحرب. دفعتي كانت قديمة جداً.

قال نيك:

ـ ذات وقت، كنت تحت السن القانوني، لكن الحرب أصلحتني الآن.

ـ لكن، لِمَ أنتَ هنا الآن؟.

قال نيك:

ـ أنا أستعرض الزيّ الأمريكيّ. ألا ترى بأنه عظيم الدلالة؟ إنه ضيّق قليلاً عند الياقة، لكن، سترى ملايين لا تعد ولا تحصى يرتدون هذا الزي، محتشدين مثل الجراد. الجندب، فأنتم تعرفون بأن ما نسميه جندياً في أمريكا هو في الحقيقة جرادة. فالجندب الحقيقي هو حشرة صغيرة وخضراء وضعيفة نسبياً. إلاّ أنه يجب ألاّ تخلطوا هذا بالجراد الذي يعيش سبع سنوات أو بزيز الحصاد الذي يطلق صوتاً ممطوطاً غريباً لا أستطيع تذكره لي في هذه اللحظة. إنني أحاول تذكره، لكنني لا أستطيع. إنني أكاد أسمعه ثم يتلاشى بعدئذ. ستعذروني إنْ أنا قطعتُ محادثتنا؟.

قال الضابط المعاون لأحد الساعيَين:

ـ شُفْ إنْ كنتَ تستطيع أن تعثر على الرائد.

ثم قال لنيك:

ـ أرى بأنك قد أُصبت بجراح.

قال نيك:

ـ في أماكن مختلفة. إنْ كنتَ مهتماً بالندوب فإنني أستطيع أن أريك بعض الجروح المثيرة للاهتمام لكنني أفضل أن أتحدث عن الجنادب. أعني ما تدعونها جنادب، والتي هي في الحقيقة جراد. لقد لعبتْ هذه الحشرات دوراً مهماً جداً في حياتي في وقت من الأوقات. قد يثير هذا اهتمامكم كما أن بوسعكم النظر إلى الزي بينما أنا أتكلم.

أشار الضابط المعاون بيده إلى الساعي الثاني الذي خرج.

ـ ثبّتوا أنظاركم على الزي. إن سبيانوليني خاطه كما تعرفون.

وقال نيك لجنود الاشارة:

ـ يمكنكم أن تنظروا إليه أنتم أيضاً. ليستْ لديّ رتبة حقاً. فنحن تحت إمرة القنصل الأمريكي. إنه لمن الطبيعي تماماً أن تنظروا. يمكنكم أن تحدّقوا، إنْ أردتم. سأحدثكم عن الجراد الأمريكي. لد فَضَّلْنا دائماً الجراد الذي ندعوه البني المتوسط. فهو يبقى في الماء على نحو أفضل من غيره كما أن الأسماك تفضله.

والأنـواع الكبيـرة والتي تطيـر تطلق ضجيجـا شبيها إلى حد ما بذلك الضـجيج الذي تصـدره الأفعى المجلجلة وهي تجلجـل جلجـلاتها، صوتاً جافاً جداً، ولها أجنحة ملّونـة زاهيـة، فبعضها حمراء زاهية والأخرى صفراء مقضّبة بالأسود، لكن أجنحتها تتفتت إلى قطـع صغيـرة في المـاء وتكـوّن طعمـاً سيئـاً جداً، بينمـا الجـراد البني المتوسط جندب ريّان مكتنز كثير العصارة مما يحملني على أن أوصي به إلى الحد الذي قد يوصي شخص ما بشيء لن تروه أبداً أيها السادة. لكن، لا بد أن أصرّ على أنكم لن تجمعـوا تمـويناً كافياً من هذه الحشرات ليوم صيد سمك بمطاردتكم إياها بأيـديكم أو بمحـاولتكم ضربهـا بمضرب. ذلك عمل هُراء وتضييع وقتٍ غير مجدٍ. وأكـرر القـول أيهـا السـادة بأنكم لن تصلوا إلى أيـة نتيجـة بهذه الطريقة. والإجراء السليم، الإجـراء الـذي يجب تعليمـه لكـل الضبـاط الصغـار في كل دورة تعليمية عسكرية صغيرة، إنْ كان لدي ما أقوله عن هذا، ومَنْ يعرف، لكن ما سيكون لدي هو استخدام شبكة عمودية أو شبكة مصنوعة من ناموسية عادية فيمسك ضابطان هذا الطول من الشبك من طرفين متقابلين، أو لنقل من كل نهاية من النهايتين، فينحنيان ويمسكـان نهـايـة قاع الشبكـة بيـد وقمة نهايتها باليد الأخرى ويجريان في الريح. فتنـدفـع الجنادب الطائرة مع الريح لتصدم طول الشبك وتُسجن في طياتها. ليست خدعـة أبـداً الإمساك بكمية كبيرة منها حقاً، وحسب رأيي، يجب ألا يكون ثمة أي ضابـط بلا طول من شبـك نامـوسية صالحة لارتجال إحدى هذه الشبكات العمودية لصيد الجنادب. آمل أن أكون قد أوضحتُ نفسي. هل من أسئلة؟ إنْ وجدتم في الـدرس شيئـاً غيـر واضـح ولم تفهمـوه فأرجو أنْ تسألوا أسئلة. إرفعوا أصواتكم. لا أسئلة؟ إذن، أود أن أنهي الكـلام بهـذه المـلاحظة. فحسب كلمات ذلك الجندي والسيد العظيم، سير هنري ويلسون: فأنتم أيها السادة لا بد أن تحكموا أو لا بد أن تُحكَمـوا. لأكـرر هذا، أيهـا السـادة، هناك شيء واحد أريدكم أن تتذكروه. شيء واحد أريدكم أن تأخذوه معكم حين تغادرون هذه الغرفة. أيها السادة، إما أنكم لا بد أنْ تُحكموا.. أو أنكم لا بد أنْ تُحكَموا. ذلك كل شيء أيها السادة. يوماً سعيداً.

خلع خوذتـه المغطـاة بالقمـاش، اعتمـرهـا ثانية ثم خرج من مدخل المخبأ المنخفض وهـو ينحني. كان بارا يقتـرب من خط الطريق مصحوباً بالساعيين. كان الطقس حاراً جداً تحت أشعة الشمس، فخلع نيك الخوذة.

قال:

ـ لا بد أن يكون ثمة جهاز يبلل هذه الأشياء. سأبلل هذا الشيء في النهر. إنطلق

صاعداً الضفة.

نادى بارافيشيني:

ـ نيكولو. نيكولو. إلى أين أنتَ ذاهب؟.

هبط نيك المنحدر ممسكاً الخوذة بيديه:

ـ لا داع لأن أذهب حقاً. إنها إزعاج لعين: إن كانت جافة أومبللة. هل تعتمر خوذتك طيلة الوقت؟.

قال بارا:

ـ طيلة الوقت. إنها تجعلني أصلعاً. تعال إلى الداخل.

في الداخل، طلب منه بارا الجلوس.

قال نيك:

ـ أنتَ تعرف أنها ليست جيدة لعينة. أذكر متى كانت مريحة حين استلمناها أول الأمر، لكنني رأيتها مليئة بالأدمغة مرات عديدة جداً.

قال بارا:

ـ نيكولو. أرى بأنك يجب أن تعود. أظن بأن من المستحسن ألاّ تذهب إلى خط القتال إلاّ بعد أنْ تكون لديك تلك التموينات. ليس ثمة شيء هنا لتفعله، فإن أنتَ تجولتَ هنا ومعك أي شيء يستحقّ تقديمه للرجال، فسيتجمعون حولك وقد يدعو هذا القصف. لا أريد أن يحدث هذا.

قال نيك:

ـ أعرف بأن هذا سخيف. لم تكن هذه فكرتي. سمعتُ بأن اللواء كان هنا ففكرتُ أن أراك أو أرى شخصاً آخر أعرفه. كان بوسعي الذهاب إلى زينزون أوإلى سان دونا. إنني أود الذهاب إلى سان دونا لأرى الجسر ثانية.

قال النقيب بارافيشيني:

ـ لا أريدك أنْ تحوم هنا بلا غرض.

قال نيك:

ـ حسناً.

أحسَّ بأنها ستأتيه ثانية.

ـ فهمت؟.

قال نيك:

ـ طبعاً.

حاول أن يصمد أمامها.

ـ لا بد أن ينفذ شيء من ذلك النوع ليلاً.

قال نيك:

ـ هذا طبيعي.

عرف بأنه لن يستطيع وقفها الآن.

قال بارا:

ـ أنتَ ترى، إنني أقود الكتيبة.

قال نك:

ـ ولِمَ لا تكون كذلك؟.

ها هي تأتيه.

ـ تستطيع القراءة والكتابة، أليس كذلك؟.

قال بارا بلطف:

ـ نعم.

ـ المشكلة أن لديك كتيبة صغيرة لعينة تقودها، وحالما تقوى ثانية فإنهم سيعيدون إليك سريتك. لِمَ لا يدفنون الموتى؟ لقد رأيتهم الآن. لا تهمني رؤيتهم ثانية. إنهم لا يستطيعون دَفْنَهم في أي وقتٍ بالقدر الذي يهمني الأمر وسيكون هذا أفضل كثيراً بالنسبة إليك. ستمرضون كلكم على نحو دموي.

ـ أين تركتَ دراجتك؟.

ـ داخل آخر منزل.

ـ أتظن بأنها ستكون بأمان؟.

قال نيك:

ـ لا تقلق. سأرحل خلال وهلة.

ـ استلقِ لوهلة قصيرة يا نيكولو.

ـ حسناً.

أغمض عينيه فرأى بدلاً من الرجل ذي اللحية الراكع على ركبتيه والناظر إليه من فوق مناظير البندقية بهدوء تام قبل الضغط على الزناد وانطلاق الوميض الأبيض وصدمة القذيفة الشبيهة بهراوة والخانقة والساخنة على الصخر بينما هم يمرون أمامه، رأى بيتاً أصفر طويلاً باسطبل منخفض ونهراً أعرض كثيراً مما كان واهداً.

قال:

ـ يا للمسيح. قد أذهب أيضاً.

نهض واقفاً.

قال :

- سأذهب يا بارا، سأعود راكباً الدراجة بعد ظهر اليوم. فإن وصلتْ أية تموينات، فإنني سأحضرها الليلة. وإن لم تصل فسأحضر ليلاً حين يكون لدي شيء لأحضره.

قال النقيب بارافيشيني :

- ما زال الطقس حاراً على ركوب دراجة.

قال نيك :

- لا داع لأن تقلق. أنا بخير الآن ولبرهة تماماً. لقد أصابتني نوبة لكنها كانت خفيفة. لقد أصبحتُ أخف كثيراً. أستطيع أن أعرف متى ستصيبني واحدة لأنني أتكلم كثيراً جداً.

- سأرسل ساعياً معك.

- أفضّل ألّا تفعل هذا. إنني أعرف الطريق.

- ستعود قريباً؟.

- طبعاً.

- دعني أرسل..

قال نيك :

- لا. كدليل على الثقة.

- حسناً. تشاو ciaou * إذن.

قال نيك :

- تشاو ciaou.

سار عائداً على الطريق الغائر إلى حيث كان قد ترك الدراجة. وبعد الظهر، يكون الطريق في الظل بعد أن يكون هو قد تجاوز الفناء. كما تكون وراء ذلك المكان أشجار على جانبي الشارع لم تقصف اطلاقاً. وعلى تلك البقعة من الأرض مروا بفوج فرسان تيريزا سافويا ذات مرة بينما كان أفراد ذلك الفوج يمتطون صهوات خيلهم في الثلج ومعهم رماحهم. وكانت أنفاس الخيل تكوّن ريشاً في الهواء البارد. لا، حدث ذلك في مكان آخر. أين كان ذلك؟.

قال نيك لنفسه :

- يحسن أن أصل إلى تلك الدراجة اللعينة. فأنا لا أريد أن أضيع الطريق المؤدية إلى فورناسي.

* بالايطالية في الأصل وتعني مع السلامة. (المترجم).

أم ملكــة

حين مات أبـوه، كان مجـرد ولـد صغيـر، فدفنـه مدير أعماله على نحو دائم. وذلك يعني بأن قطعـةَ الأرض التي دُفن فيهـا أصبحتْ ملكـاً دائمـاً له. لكن، حين ماتت أمه، فكّر مديره بأنه لا يمكنهما أن يستمرا في الخصام. كانا حبيبين، فمن المؤكد بأنه كان ملكة، ألم تَعرف ذلك، إنه كذلك طبعاً. وهكذا دفنها لمدة خمس سنوات فقط.

حسناً، حين عاد إلى المكسيك من إسبانيا، استلم الإخطار الأول. قال بأنه أول إشعـار بعـد إنقضـاء السنـوات الخمس ولا بد أن يعمـل على وضـع التـرتيبات اللازمة للاحتفاظ بقبر أمه. كانت عشرون دولاراً هي اللازمة لجعل القبر دائماً. كان صندوق المال معي فقلتُ له دعني أتولى الأمر يا باكو. لكنه قال لا، وسيتولى الأمر بنفسه. سيتولى الأمر في الحال. كانت أمه وأراد أن يقوم بالعمل بنفسه.

وبعـد أسبـوع، إستلم الإخطـار الثاني. تَلوتُه عليه وقلت بأنني ظننتُ بأنه قد تولّى الأمر.

قال، لا إنه لم يفعل ذلك.

قلت:

ـ دعني أقوم به. إن المبلغ هنا في صندوق المال.

قال، لا. لا يمكن لأحد أن يُملي عليه ما سيفعله. سيقوم بالعمل بنفسه حين يأزف الوقت. «ما العبرة من إنفاق نقود قبل الوقت المحدد لهذا؟».

قلت:

ـ حسناً. لكن، تأكد من تولي الأمر.

وأبـرم في ذلـك الـوقت عقداً للقيام بست حفلات مصارعة بسعر أربعة آلاف بيـزوس لكـل حفلة إضافة إلى حفلته الخيرية. كسبَ ما يزيد عن خمسةَ عشر ألف دولار هناك في العاصمة فقط. لقد كان شحيحاً، ذلك كل ما في الأمر.

ووصل الإخطار الثالث بعد مرور أسبوع آخر وتلوتُه عليه. جاء فيه أنه في حال ما إذا لم يسدّد الدفعة يوم السبت التالي فإن قبر أمه سيُفتح وتقذف ببقاياها في كومة العظـام العمـوميـة. قال بأنـه سيـذهب لتـولي الأمـر بعد ظهر ذلك اليوم وذلك حين يذهب إلى المدينة.

سألته:

- لِمَ لا تدعني أتولى الأمر؟.

قال:

- لا تتدخل في شؤوني. إنه شغلي وسأقوم به بنفسي.

قلت:

- حسناً، إنْ كان ذلك هو شعورك حول هذا. فقم بعملك بنفسك.

أخرج النقود من صندوق المال، مع أنه كان يحمل حينذاك مائة بيزوس أو أكثر طيلة الوقت، وقال بأنه سيتولى الأمر. خرج والنقود معه واعتقدتُ بأنه تولى الأمر وأنجز المهمة طبعاً.

بعد أسبوع، وصل إخطار بأنه لم يصلهم رد على الإنذار الأخير فألقيتْ بجثة أمه في كومة العظام العمومية.

قلت له:

- يا للمسيح. قلتَ بأنك ستدفع ذلك المبلغ وأخرجتَ النقود من صندوق المال لتقوم بالمهمة، ماذا حدث لأمكّ؟ يا إلهي، فكر بهذا! مزبلة العظام العامة وأمك! لِمَ لمْ تدعني أتولى الأمر؟ كنتُ سأرسل النقود حال وصول الإخطار الأول.

- إنّ هذا ليس شغلك. إنها أمي أنا.

- نعم، إنه ليس شغلي أنا، لكنه شغلك أنت. أي نوع من الدماء يجري في عروق رجل يسمح بحدوث شيء كهذا لأمه؟ أنتَ لا تستحق أن يكون لك أم.

قال:

- إنها أمي. إنها الآن عزيزة عليّ أكثر من أي وقت مضى. والآن، لن أفكر بها مدفونةً في مكان واحد فأحزن عليها. هي حولي الآن في كل مكان، في الهواء مثل الطيور والزهور. ستبقى معي باستمرار الآن.

قلت:

- يا للمسيح، أي نوع من الدماء يجري في عروقك؟! إنني لا أرغب حتى في أن أتكلم معك.

قال:

- إنها الآن حولي في كل مكان. لن أشعر بالحزن أبداً.

وكان يصرف كل أنواع المال حوله في ذلك الوقت، وعلى النساء محاولاً الظهور بمظهر الرجل العظيم وليخدع الناس، لكن ذلك لم يحدث أي تأثير على الناس الذين كانوا يعرفون عنه أي شيء. كان مديناً لي بستمائة بيزوس ولم يردّها إليّ. كان يردد: «لماذا تريدها الآن؟ ألا تثق بي؟ ألسنا أصدقاء؟».

ـ ليس الأمر متعلقا بصداقتنا وثقتي بك. كل ما في الأمر أنني كنت أدفع حساباتك من مالي الخاص حين كنتَ مسافراً، وأنا بحاجة إلى مالي الآن وعليك أن تردها إليّ.

ـ ليس لدي مال.

قلت:

ـ لديك. إنها في صندوق المال الآن وتستطيع دفعها لي.

قال:

ـ احتاج إلى ذلك المال لغرض من الأغراض. أنتَ لا تعرف مدى حاجتي إلى المال.

ـ ظللت هنا طوال الوقت الذي كنتَ فيه في إسبانيا، وكلّفتَني بدفع كل النفقات عن كل الأمور الطارئة. وكل ما تعلق بالبيت، ولم ترسل لي نقوداً بينما كنتَ في خارج البلاد وقد دفعتُ ما يزيد عن ستمائة بيزوس من مالي الخاص وأنا أحتاج الآن إلى هذه النقود وبإمكانك دفع هذا المبلغ لي.

قال:

ـ سأدفع لك قريباً. إنني بحاجة ماسة إلى المال الآن.

ـ لماذا؟.

ـ لعملي الخاص.

ـ لِمَ لا تدفع لي مبلغاً على الحساب؟.

قال:

ـ لا أستطيع: إنني بحاجة ماسة إلى ذلك المال. لكنني سأدفع لك.

صارع في إسبانيا مرتين فقط، فلم يحتملوه هناك واكتشفوا حقيقة أمره بسرعة، وكان قد فصّل سبع بدلات مصارعة جديدة، فقد كان من هذا الصنف من الرجال، ثم حزمها بطريقة سيئة جداً إلى درجة أن أربعاً منها تلفت من ماء البحر في رحلة العودة ولم يعد بامكانه ارتداءها فيما بعد.

قلتُ له:

ـ يا إلهي، تسافر إلى إسبانيا وتبقى هناك موسماً كاملاً وتصارع مرتين فقط. وتنفق كل النقود التي أخذتّها معك على بدلات أتلفها ماء البحر ولا تستطيع ارتداءها بعد ذلك. ذلك هو الموسم الذي أمضيته هناك ثم تأتي لتردد على مسامعي ما رددته عن عملك الخاص؟ لِمَ لا تدفع لي المال الذي تدين به إليّ حتى أستطيع تركك؟.

قال:

ـ أريدك هنا، سأدفع لك كلَ نقودك، لكنني بحاجة إلى المال الآن.

قلت:

ـ أنتَ بحاجة ماسة إليها لتدفعها لقبر أمك حتى ترتاح إلى الأبد فيه، أليس كذلك؟.

قال:

ـ أنا سعيد لما حدث لأمي. وأنتَ لا يمكنك أن تفهم.

قلت:

ـ أشكر المسيح على أنني لا أفهم. إدفع لي ما أنتَ مدين به إليّ وإلاّ أخذتُه من صندوق المال.

قال:

ـ سأبقي صندوق المال معي.

وبعد ظهر ذلك اليوم حضر مع صعلوك، رجل من بلدته كان مفلساً.

قال:

ـ ها هو فلاح بحاجة إلى نقود ليعود إلى بلدته لأن أمه مريضة جداً.

كان ذلك الرجل مجرد صعلوك متشرد، كما تعرف، شخصاً نكرة لم يره من قبل قط، لكنه كان أحد أبناء بلدته وأراد الظهور بمظهر مصارع الثيران العظيم الكريم أمام رجل من أبناء بلدته.

قال لي:

ـ أعطه خمسين بيزوس من صندوق المال.

قلت:

ـ لقد أخبرتني الآن بأنك لا تملك مالاً تدفعه لي، وها أنت الآن تنبري لاعطاء خمسين بيزوس لهذا الصعلوك.

قال:

ـ إنه من أبناء بلدتي وهو في ضيق.

قلت:

ـ أنتَ كلبة*.

وأعطيته مفتاح صندوق المال.

ـ أعطِه النقود بنفسك. أنا ذاهب إلى المدينة.

قال:

* لاحظ هنا بأنه يدعوه بكلبة، زيادة في الاحتقار. (المترجم).

ـ لا تغضب. سأدفع لك.

أخرجتُ السيارة لأتوجه بها إلى المدينة. كانت سيارته لكنه كان يعرف بأنني أقودها خيراً منه. كنت أقوم بكل ما كان يقوم به خيراً منه. كان يعرف هذا. لم يكن يعرف حتى القراءة والكتابة. أردتُ الخروج لأرى شخصاً ما ليدلني على ما يمكنني فعله لحمله على تسديد ديني. خرج وقال:

ـ أنا آتٍ معك وسأدفع لك. نحن صديقان حميمان. لا حاجة للخصام.

دخلنا المدينة بالسيارة وكنتُ أنا الذي يقودها. وقبل أن ندخل المدينة أخرج عشرين بيزوس.

قال:

ـ هاك النقود.

قلت:

ـ أيها الكلبة بلا أم.

وذكرتُ له ما يمكنه فعله بالنقود.

ـ تعطي خمسين بيزوس لذلك الصعلوك وتعرض عليّ بعد ذلك عشرين بيزوس في حين أنك مدين لي بستمائة. لن آخذ نيكلاً منك. تعرف ما يمكنك فعله بها.

نزلتُ من السيارة وأنا خالي الوفاض لا أملك بيزوساً واحداً ولم أكن أعرف أين سأنام في تلك الليلة. خرجتُ فيما بعد مع صديق وأخذتُ متاعي من عنده. ولم أتكلم معه منذ ذلك الوقت حتى هذه السنة. وقد صادفته يسير مع ثلاثة من أصدقائه في المساء وهو في طريقه إلى دار سينما كالاو في شارع جران في مدريد. مدّ يده نحوي.

قال لي:

ـ مرحباً يا روجير يا صديقي القديم. كيف حالك؟ يقول الناس بأنك تتكلم عني، وبأنك تردِّد كل الأقوال الظالمة عني.

قلت له:

ـ كل ما قلته بأنه لم يكن لديك أمٌ قط.

كان ذلك أسوأ ما يمكنك قوله لإهانة رجل في إسبانيا.

قال:

ـ ذلك صحيح. ماتت أمي المسكينة حين كنتُ صغير السن جداً حتى ليبدو كأن ليس لي أم أبداً. إنه لأمر محزن جداً.

هنـاك مَلِكـةٌ لك. لا يمكنـك لمسـهم*. لا شيء، لا شيء يمكنـه لمسهم. إنهم ينفقون النقود على أنفسهم أو غروراً، لكنهم لا يدفعون أبداً. حاوِلْ أن تطلب من أحدهم الدفع. ردَّدتُ على مسامعه ما كان يراود ذهني من أفكار وذلك في شارع جران أمـام ثلاثـة من أصـدقـائـه، لكنه ما يزال يتكلم معي حتى الآن حين ألتقي به وكأننا صديقان. أي نوع من الدماء تلك التي تجري في عروق رجل كذلك الرجل؟!.

* طريقة تعبير عن الاحتقار والشتم. (المترجم).

قارئـــة تكتـــب

جلستْ إلى الطاولة في غرفة نومها وجريدة مفتوحة أمامها ولم تكن تتوقف إلاّ لتنظر من خلال النـافـذة إلى الثلج الذي كان يتساقط ويذوب على الأسطح حال سقوطه. كتبتْ هذه الرسالة، وكتبتْها باطراد وبلا حاجة إلى شَطْب أو إعادة كتابة أي شيء.

روانوك ـ فيرجينيا
٦/ شباط ـ فبراير/ ١٩٣٣

عزيزي الطبيب:

هل تسمح لي بالكتابة إليك طالبة تقديم نصيحة مهمة جداً.. فلدي قرار لا بد أن أتخـذه ولا أعـرف الشخص الـذي يمكنني الثقة به أكثر من غيره، كما أنني لا أجـرؤ على سؤال والـدي ـ ولهذا لجأتُ إليك ـ ولأنني لا أحتاج إلى رؤيتك، فإنني أستطيـع وضـع ثقتي فيـك. والآن، ها هو وضعي ـ تزوجتُ شخصاً في خدمة الولايات المتحدة في ١٩٢٩، وقد أُرسل إلى الصين في السنة نفسـها إلى شنغهاي ـ وقد أمضى فيها ثلاث سنوات ـ ثم عاد إلى الوطن ـ فقد سُرِّح من الخدمة قبل بضعة شهـور ـ وذهب إلى بيت والـدتـه في هيلينا في آركانساس. وقد كتب إليّ لأعود إلى البيت ـ فذهبتُ، ووجـدتُ بأنـه يتعـاطى حقناً وكـان من الطبيعي أن اسألـه عن السبب، فوجدتُ بأنه يُعالجَ من مرض لا أعرف كيف اتهجأ كلمته لكنها تبدو وكأنها هذه الكلمـة: «الـزهـري» ـ أتعـرف ما أعني ـ والآن، أخبـرني: هل سيكـون من المأمون أن أعيش معه ثانية ـ إنني لم أتصل به في أي وقت من الأوقات منذ أن عاد من الصين. لقد أكد لي بأنه سيصبح بخير بعد أن ينتهي الطبيب منه ـ هل ترى بأن هذا صحيـح ـ كثيراً ما سمعتُ والـدي يردد بأن الشخص الـذي يقـع ضحيـة لهذا المـرض يتمنى أن يمـوت ـ إنني أصـدق والـدي لكنني أود أن أصـدق زوجي أكثر ـ أرجوك، أرجوك أن تخبرني: ماذا أفعل ـ إنّ لي ابنة ولدت بينما كان والدها في الصين ـ

وأنا أشكرك وأثق بنصيحتك ثقةً كاملة فأنا

ووقعت باسمها

قالت لنفسها : ربما يستطيع أن يخبرني بما يمكنني فعله. ربما يستطيع إخباري فصورته المنشورة في الجريدة توحي بأنه سيفعل هذا. يبدو أنه ذكي جداً، حقاً. ففي كل يوم يشير إلى شخص بما سيفعله . لا بد أنه يعرف . أريد أن أفعل كل ما هو صحيح . لقد انقضى وقت طويل . إنه لوقت طويل . وكان وقتاً طويلاً . لقد كان وقتاً طويلاً يا مسيحي. كان لا بد أن يذهب إلى حيثما يرسلونه ، أنا أعرف هذا ، لكنني لا أعرف لماذا كان لا بد أن يصاب به . لكنني أدعو المسيح لو أنه لم يكن قد أصيب به . لا يهمني ما فعله وأدى إلى أن يصاب به . لكنني أدعو المسيح لو أنه لم يكن قد أصيب به إطلاقاً . يبدو كأنه لم يكن يجب أن يصاب به . لا أدري ما أفعله . أدعو المسيح ألّا يصاب بأي نوع من الأمراض . أنا لا أعرف لماذا كان لا بد أن يصاب بأي مرض.

عربون وفاء لسويسرا

الجزء الأول

صورة السيد ويلير في مونترو

كان الجو داخل مقهى المحطة دافئاً ومضيئاً. وكان خشب الطاولات يلمع من المسح كما كانت عليها سلال من بسكويت عُقَديات في أكياس ورق مزجَّج. وكانت الكراسي مزينة بنقوش، بينما كانت المقاعد بالية ومريحة. وكانت على الحائط ساعة خشب مزينة بنقوش بينما كان في الطرف القصي من القاعة نضد حاجز مشرب. وكان الثلج يتساقط خارج النافذة.

كان حمالان من حمالي المحطة يجلسان إلى الطاولة الواقعة تحت الساعة ويشربان نبيذاً جديداً. دخل حمّال آخر وقال بأن قطار سيمبلون ـ الشرق السريع سيتأخر ساعة في سانت موريس. خرج. اقتربتْ النادلة من طاولة السيد ويلير. قالت:

ـ سيتأخر القطار السريع ساعة. أأحضر لك بعض القهوة؟.

ـ إذا رأيتِ بأنها لن تبقيني مستيقظاً.

سألتْ النادلة:

ـ عفواً.

قال السيد ويلير:

ـ أحضري إلي بعض القهوة.

ـ شكراً.

أحضرت القهوة من المطبخ ونظر السيد ويلير من النافذة إلى الثلج الساقط في الخارج في الضوء المنبعث من رصيف المحطة.

سأل النادلة:

ـ أتتكلمين لغات أخرى إضافة إلى الانجليزية؟.

ـ أوه. نعم يا سيدي. أتكلم الألمانية والفرنسية واللهجات المحلية.

ـ أترغبين في أن تشربي شراباً أو شيئاً آخر؟.

- أوه. لا يا سيدي. من غير المسموح لنا أن نشرب في المقهى مع الزبائن.
- ألا تريدين سيجاراً؟.
- أوه، لا يا سيدي. فأنا لا أدخن.

قال السيد ويلير:

- حسناً.

نظر إلى خارج النافذة ثانية، وشرب القهوة، ثم أشعل سيجارة.

نادى:

- فراولاين Fraulein*.
- ماذا تريد يا سيدي؟.

قال:

- أنتِ.
- يجب ألّا تسخر مني بهذه الطريقة.
- أنا لا أسخر منك.
- إذن، يجب ألّا تقول هذا.

قال ويلير:

- لا يتسع وقتي للمناقشة. سيصل القطار بعد أربعين دقيقة. إذا صعدتِ معي إلى الطابق العلوي فسأدفع لك مائة فرنك.
- يجب ألّا تقول مثل هذه الأشياء يا سيدي. سأطلب من الحمّال أن يتكلم معك.

قال ويلير:

- أنا لا أريد حمالاً. ولا رجل شرطة، ولا واحداً من هؤلاء الصبية الذين يبيعون السجائر. أريدك أنتِ.
- إنْ تكلمتَ بهذه الطريقة فلا بد أن تخرج من هنا. لا يمكنك البقاء هنا والكلام على ذلك النحو.
- لِمَ لا تبتعدي إذن؟ إنْ ابتعدتِ لن أستطيع التحدث إليكِ.

ابتعدت النادلة. راقبها السيد ويلير ليرى إنْ كانت تحدثتْ إلى الحمال. لم تفعل ذلك.

ونادى عليها:

- Mademoiselle مدموزيل**.

* بالألمانية في الأصل وتعني آنسة. (المترجم).

** بالفرنسية في الأصل وتعني آنسة. (المترجم).

اقتربت النادلة.

- أحضري لي قنينة سيون من فضلك.

- حسناً يا سيدي.

راقبها السيد ويلير تخرج ثم تدخل مع النبيذ وتضعه على طاولته. نظر في اتجاه الساعة.

قال:

- سأعطيك مائتي فرنك.

- من فضلك، لا تقل مثل هذه الأشياء.

- إن مائتي فرنك مبلغ كبير من المال.

قالت النادلة:

- سوف لن تقول أشياء كهذه.

بدأتْ تفقد انجليزيتها. نظر إليها السيد ويلير باهتمام.

- مائتا فرنك.

- أنتَ كريه.

- لِمَ لا تبتعدي إذن؟ لن أستطيع التحدث إليك وأنتِ لستِ هنا.

تركتْ النادلة الطاولة واقتربتْ من نضد حاجز المشرب. شرب السيد ويلير النبيذ وابتسم لنفسه بعض الوقت.

نادى:

- مدموزيل.

تظاهرت النادلة بأنها لم تسمعه.

نادى ثانية:

- مدموزيل.

اقتربت النادلة:

- تريد شيئاً؟.

- كثيراً جداً. سأعطيك ثلاثمائة فرنك.

- أنتَ كريه.

- ثلاثمائة فرنك سويسري.

ابتعدت وتابعها السيد ويلير بنظراته. فتح حمالُ الباب. كان الحمال المسؤول عن حقائب السيد ويلير.

قال بالفرنسية:

- القطار يقترب يا سيدي .

نهض السيد ويلير واقفاً .

نادى :

- مدموزيل .

اقتربتْ النادلة من الطاولة .

- كم ثمن النبيذ؟ .

- سبع فرنكات .

عد السيد ويلير ثمانية فرنكات وتركها على الطاولة . ارتدى معطفه وتبع الحمال إلى الرصيف حيث كان الثلج يتساقط .

قال :

- أريفوار مدموزيل Au revoir mademoiselle*.

راقبتْه النادلة وهو يغادر المكان . فكرت : إنه قبيح ، قبيح وكريه . ثلاثمائة فرنك مقابل شيء لا يتطلب جهداً . كم مرة مارستُ هذا بلا مقابل . وليس ثمة مكان هنا للجوء إليه . لو كان لديه عقل يعرف بأن ليس ثمة مكان هنا . ليس ثمة وقت وليس ثمة مكان للجوء إليه . ثلاثمائة فرنك لفعل ذلك . أي نوع من البشر أولئك الأمريكيون .

كان السيد ويلير يفكر وهو واقف على الرصيف الاسمنتي إلى جانب حقائبه ، ناظراً إلى سكك الحديد نحو النور الأمامي للقطار القادم من خلال الثلج : إنها رياضة غير باهظة التكاليف . فقد أنفقَ فعلاً ، إضافة إلى العشاء ، سبع فرنكات ثمن زجاجة نبيذ وفرنكاً واحداً كإكرامية . كانت خمسة وسبعون سنتيماً أفضل . لكان يشعر شعوراً أفضل الآن لو كانت الإكرامية خمسة وسبعون سنتيماً . فالفرنك السويسري يعادل خمسة فرنكات فرنسية . كان السيد ويلير متجهاً إلى باريس . وكان حريصاً جداً على نقوده ولم يكن يهتم بالنساء . لقد كان في تلك المحطة من قبل وكان يعرف بأن ليس ثمة طابق علوي يلجأ إليه . فالسيد ويلير لم يجازف بالاعتماد على الحظ قط .

* بالفرنسية في الأصل وتعني إلى اللقاء يا آنسة . (المترجم) .

الجزء الثاني

السيد جونسون يتحدث عنه في فيفي

كان داخل مقهى المحطة دافئاً ومضيئاً. وكانت الطاولات تلمع من المسح كما كانت على بعضها أغطية طاولات قماشية بيضاء مخططة، وعلى بعضها الآخر أغطية طاولات قماشية بيضاء مخططة، وعلى بعضها الآخر أغطية طاولات قماشية زرقاء وبيضاء مخططة، كما كانت عليها كلها سلال فيها بسكويت عُقديات بأكياس ورق مزجّج. كانت الكراسي مزّينة بالنقوش لكن المقاعد الخشبية كانت مهترئة ومريحة. كانت على الجدار ساعة، ونضد حاجز مشرب من الزنك في الطرف القصي من الحجرة، وكان الثلج يتساقط خارج النافذة. كان حمّالان من حمالي المحطة يجلسان إلى الطاولة الواقعة تحت الساعة ويشربان نبيذاً جديداً.

دخل حمّال آخر وقال بأن قطار سيمبلون ـ الشرق السريع سيتأخر ساعة في سانت موريس. اقتربتْ النادلة من طاولة السيد جونسون:

قالت:

ـ سيتأخر القطار السريع ساعةً يا سيدي، هل أُحضر لك بعض القهوة؟.

ـ إنْ لم يزعجك هذا كثيراً؟.

سألتْ النادلة:

ـ عفواً؟.

ـ سأتناول بعضها.

ـ شكراً.

أحضرت القهوة من المطبخ ونظر السيد جونسون من النافذة إلى الثلج المتساقط في النور المنبعث من رصيف المحطة.

سأل النادلة:

ـ هل تتكلمين لغات أخرى إضافة إلى اللغة الانجليزية؟.

ـ أوه، نعم. أتكلم الألمانية والفرنسية واللهجات المحلية.

ـ أتودين أن تشربي شيئاً؟.

ـ أوه، لا يا سيدي، ليس من المسموح لنا أن نشرب شيئاً في المقهى مع الزبائن.

ـ خذي سيجاراً؟.

ضحكتْ:

ـ أوه، لا يا سيدي. أنا لا أدخن يا سيدي.

قال جونسون:

ـ ولا أنا. إنها عادة قبيحة.

ابتعدت النادلة وأشعل جونسون سيجارة وشرب القهوة. أشارت ساعة الحائط إلى العاشرة إلا ربعاً. كانت ساعة يده أسرع منها قليلاً. كان موعد القطار في الساعة العاشرة والنصف ـ وتأخير ساعة أخرى يعني بأنه سيصل في الساعة الحادية عشرة والنصف. نادى جونسون النادلة:

ـ سينيورينا Signorina*.

ـ ماذا تريد يا سيدي؟.

سأل جونسون:

ـ ألا تودين اللهو معي؟.

احمر وجه النادلة:

ـ لا يا سيدي.

ـ لم أقصد أي شيء عنيف. ألا تودين تنظيم حفلة لنرى حياة الليل في فيفي؟ أحضري صديقة لك إنْ شئت.

قالت النادلة:

ـ يجب أن أشتغل. عندي نوبة عمل هنا.

قال جونسون:

ـ أعرف. لكن، ألا تستطيعين إيجاد بديل لك. اعتدن فعل هذا خلال الحرب الأهلية.

ـ لا يا سيدي. يجب أن أكون هنا بنفسي وشخصياً.

ـ أين تعلمتِ اللغة الانجليزية؟.

ـ في مدرسة بيرليتز يا سيدي.

قال جونسون:

ـ أخبريني عنها. هل كان طلاب بيرليتز عنيفين؟ ماذا عن كل العناق والتقبيل؟ هل كان هناك كثير من الفتيات الناعمات؟ هل صادفتِ سكوت فيتزجيرالد**؟.

ـ عفواً.

ـ أعني: هل كانت حياة الكلية أجمل أيام حياتك؟ أي فريق كان لبيرليتز في

* بالايطالية في الأصل وتعني آنسة. (المترجم).

** Scot Fitzgerald (١٨٩٦ ـ ١٩٤٠) اقترنت رواياته وقصصه وشخصه بعصر الجاز. (المترجم)

الخريف الماضي؟.

- أنتَ تمزح يا سيدي؟.

قال جونسون:

- قليلاً. أنتِ فتاة طيبة جداً. وأنتِ لا تريدين اللهو معي؟.

قالت النادلة:

- أوه، يا سيدي هل تريدني أن أحضر لك شيئاً؟.

قال جونسون:

- نعم. هل لك أن تحضري لي قائمة النبيذ؟.

- نعم يا سيدي.

اقترب جونسون من الطاولة التي يجلس إليها الحمالون الثلاثة ومعه قائمة النبيذ. رفعوا أبصارهم إليه. كانوا رجالاً كبار السن.

سأل:

- أتريدون أن تشربوا؟.

أومأ أحدهم برأسه وابتسم.

- Oui, Monsieur وي مسيو*.

- تتكلم الفرنسية؟.

- Oui, monsieur.

- ماذا ستشرب؟ هل تعرف الشمبانيا؟.

- Non, monsieur نومسيو**.

قال جونسون:

- هل من الضروري أن تعرفها.

نادى جونسون على النادلة.

- فراولاين Fraulein. سنشرب شمبانيا.

- أي شمبانيا تختار يا سيدي؟.

قال جونسون:

- الأفضل.

سأل الحمالين:

- أيها الأفضل؟.

---

* بالفرنسية في الأصل وتعني نعم يا سيد. (المترجم).

** بالفرنسية في الأصل وتعني لا يا سيد. (المترجم).

سأل الحمال الذي تكلم أولاً.

- Le meilleur الأحسن؟.

- مهما كان ثمنها.

أخرج الحمّال نظارة ذهبية الاطار من جيب معطفه وفحص القائمة. أجرى اصبعه على الأسماء والأسعار الأربعة المطبوعة على الآلة الكاتبة. وقال:

- سبورتسمان. سبورتسمان أفضلها.

سأل جونسون الحمالين الآخرين:

- توافقان أيها السيدان؟.

أومأ أحد الحمالين برأسه موافقاً. وقال الآخر بالفرنسية: «أنا لا أعرفها شخصياً لكنني كثيراً ما سمعتُ كلاماً عن سبورتسمان. إنها جيدة».

قال جونسون للنادلة:

- قنينة سبورتسمان.

نظر إلى السعر المذكور في بطاقة النبيذ: أحد عشر فرنكاً فرنسياً.

- اجعليهما قنينتيّ سبورتسمان.

وسأل الحمّال الذي اقترح نبيذ سبورتسمان:

- أتسمح لي بالجلوس هنا معكم؟.

- اجلس. تفضل ضع نفسك هنا.

ابتسم الحمّال له. كان يطوي نظارته ويضعها في علبتها.

- هل هو عيد ميلاد السيد؟.

قال جونسون:

- لا. إنها ليست مناسبة سعيدة. لقد قررتْ زوجتي الطلاق مني.

قال الحمال:

- هكذا. آمل ألاّ يحدث هذا.

هزّ الحمال الآخر رأسه، وبدا بأن الحمّال الثالث أطرش قليلاً.

قال جونسون:

- مما لا شك فيه بأنها تجربة شائعة، مثل أول زيارة لطبيب الأسنان أو مثل أول مرة تشعر بها فتاة بالحيض، لكنني انزعجتُ منها.

قال أكبر الحمالين سناً:

- هذا مفهوم. إنني أفهم هذا.

سأل جونسون:

ـ لم يُطلّق أي منكم أيها السادة؟ .

كفَّ عن التهريج اللغوي، وبدأ يتكلم بلغة فرنسية سليمة واستمر كذلك لبعض الوقت.

قال الحمّال الذي طلب سبورتسمان:

ـ لا. إنهم لا يطلّقون كثيراً هنا. ثمة رجال طلّقوا هنا لكنهم ليسوا كثيري العدد.

قال جونسون:

ـ معنا، الوضع مختلف. فكل شخص مطلّق عملياً.

أكدّ الحمّال:

ـ ذلك صحيح. قرأتُ هذا في الصحف.

تابع جونسون قوله:

ـ أنا متأخر إلى حد ما. هذه أول مرة أطلّق فيها. إنني في الخامسة والثلاثين من عمري.

قال الحمّال:

ـ ما زلتَ شاباً.

قال موضحاً للحمّالين الآخرين:

ـ إن السيد في الخامسة والثلاثين.

اومأ الحمّالان الآخران برأسيهما.

قال واحد منهم:

ـ إنه صغير السن جداً.

سأل الحمّال:

ـ وهذه هي أول مرة تطلّق فيها حقاً؟.

قال جونسون:

ـ بالضبط. أرجو أن تفتحي النبيذ يا آنسة.

ـ وهو يكلف غالياً؟.

ـ عشرة آلاف فرنك.

ـ نقود سويسرية؟.

ـ لا. نقود فرنسية.

ـ أوه، نعم. ألفا فرنك سويسري. الأمر سواء، إنه ليس رخيصاً.

ـ لا.

ـ لماذا يُقدم الإنسان عليه؟.

ـ يُطلب من الإنسان القيام به.
ـ لكن، لماذا يطلبن ذلك؟.
ـ ليتزوجن أشخاصاً آخرين؟.
ـ لكن هذا غباء.
قال جونسون:
ـ أتفق معك بالرأي.
ملأت النادلة الكؤوس الأربعة. ورفع الجميع كؤوسهم.
قال جونسون:
ـ في صحتك.
قال الحمّال:
ـ في صحتك يا سيد.
قال الحمّالان الآخران:
ـ نخبك.
كان مذاق الشمبانيا مذاق عصير فواكه قرنفلي حلو.
سأل جونسون:
ـ هل من عادتكم في سويسرا دائماً أن تجيبوا بلغة مختلفة؟.
قال الحمّال:
ـ لا. الفرنسية أكثر حضارة. إضافة إلى أن هذه منطقة من سويسرا الرومانية.
ـ لكنك تتكلم الألمانية؟.
ـ نعم. فقد جئتُ من حيثُ يتكلمون الألمانية.
قال جونسون:
ـ أرى هذا، وقلت بأنك لم تطلّق أبداً؟.
ـ لا. سيكون هذا باهظ التكاليف. إضافة إلى أنني لم أتزوج قط.
قال جونسون:
ـ آه. وهذان السيدان الآخران؟.
ـ انهما متزوجان.
سأل جونسون أحد الحمّالين:
ـ أيعجبك الزواج؟.
ـ ماذا؟.
ـ أتعجبك حالة الزواج؟.

ـ نعم، هذا طبيعي.
قال جونسون:
ـ بالضبط. وأنتَ أيها السيد؟.
قال الحمال الآخر:
ـ حسن، Ca va.
قال جونسون:
ـ بالنسبة إليّ، ليس حسناً.
قال الحمّال الأول موضحاً:
ـ السيد سيطلّق.
قال الحمال الثاني:
ـ أوه.
قال الحمال الثالث:
ـ آه. ها.
قال جونسون:
ـ حسناً، يبدو أن الموضوع قد استنفد.
ثم خاطب الحمّال الأول:
ـ أنتَ لست مهتماً بمشاكلي.
قال الحمّال:
ـ لكنني مهتم بها.
ـ حسناً، لنتكلم عن شيء آخر.
ـ كما تشاء.
ـ عمَّ يمكننا أن نتحدث؟.
ـ هل تلعب الرياضة؟.
قال جونسون:
ـ لا. لكن زوجتي تلعبها.
ـ ماذا تفعل للترفيه؟.
ـ أنا كاتب.
ـ هل يكسب ذلك مالاً كثيراً؟.
ـ لا. لكن حين تصبح مشهوراً فيما بعد، يكسب الكثير.
ـ مثير؟.

قال جونسون:

ـ لا، ليس مثيراً. أنا آسف أيها السادة، لكنني لا بد أن أترككم. هلاّ شربتم القنينة الأخرى؟.

ـ لكن القطار لن يصل إلاّ بعد ثلاثة أرباع الساعة.

قال جونسون:

ـ أعرف هذا.

حضرت النادلة ودفع ثمن النبيذ وعشاءه.

سألتْ:

ـ ستخرج يا سيدي؟.

قال جونسون:

ـ نعم. لأتمشى قليلاً. سأترك حقيبتي هنا.

ارتدى لفاعته ومعطفه واعتمر قبعته. كان الثلج يتساقط غزيراً في الخارج. التفت ناظراً من خلال النافذة إلى الحمّالين الثلاثة الجالسين حول الطاولة. كانت النادلة تملأ كؤوسهم بما بقي من نبيذ في الزجاجة المفتوحة. وأخذت الزجاجة المقفلة وأرجعتها إلى نضد حاجز المشرب. فكّر جونسون: سيكون نصيب كل واحد منهم ثلاثة فرنكات وبضعة سنتيمات. التفت إلى الأمام ومشى في اتجاه الرصيف. ظن وهو داخل المقهى بأن الكلام حول الموضوع سيخفف من حدته، لكن الكلام لم يخفف من حدته، بل جعله يحسّ بالقرف.

الجزء الثالث

إبن عضو زميل في تيريتيت

كان مقهى المحطة في تيريَتيت دافئاً أكثر من اللازم والأنوار ساطعة والطاولات لامعة من الصقل. وكانت على الطاولات سلال فيها بسكويت عُقديات في أكياس ورق مزجّج وقطع ورق توضع تحت كؤوس البيرة حتى لا ترسم الكؤوس المبللة حلقات على الخشب. كانت الكراسي مزّينة بنقوش لكن المقاعد الخشبية كانت بالية ومريحة تماماً. كانت على الحائط ساعة، كما كان في الطرف البعيد من الغرفة نضد حاجز مشرب، بينما كان الثلج يتساقط خارج النافذة. كان رجل عجوز جالساً إلى طاولة تحت الساعة يشرب قهوة ويقرأ جريدة المساء. دخل حمّال قاعة المحطة وقال بأن قطار سيمبلون ـ الشرق السريع سيتأخر ساعة في سانت موريس. اقتربت

النــادلــة من طاولـة السيـد هاريس. كان السيـد هاريس قد أنهى العشـاء في تلك اللحظة تماماً.

ـ سيتأخر القطار السريع ساعة يا سيدي. أتريد أن أحضر لك بعض القهوة؟.

ـ إذا أردتِ.

سألت النادلة:

ـ عفواً؟.

قال السيد هاريس:

ـ حسناً.

قالت النادلة:

ـ أشكرك يا سيدي.

أحضـرتْ القهـوة من المطبـخ ووضـع السيد هاريـس السكر فيها وسحق كتل السكر بملعقته، ونظر من خلال النافذة إلى الثلج المتسـاقط في الضوء المنبعث من رصيف المحطة.

سأل النادلة:

ـ هل تتكلمين لغات أخرى إضافة إلى الانجليزية؟.

ـ أوه، نعم يا سيدي. أتكلم الألمانية والفرنسية واللهجات المحلية.

ـ أيها تفضلين؟.

ـ كلها متشابهة جداً يا سيدي. لا أستطيع القول بأنني أفضل واحدة على الأخرى.

ـ أتشربين شيئاً أو قهوة؟.

ـ أوه، لا يا سيدي، ليـس مسموحاً لنا أن نشرب في المقهى مع الزبائن.

ـ ألا تريدين سيجاراً؟.

ضحكتْ:

ـ أوه، لا يا سيدي أنا لا أدخن.

قال هاريس:

ـ ولا أنا. أنا لا اتفق مع ديفيد بيلاسكو.

ـ عفواً.

ـ بيـلاسكـو. ديفيـد بيـلاسكـو. تستطيعين التعرف عليه لأن ياقته تكون دائماً إلى الخلف. لكنني لا أتفق معه. ثم انه ميّت أيضاً.

سألت النادلة:

ـ اعذرني يا سيدي.

قال هاريس :

ـ بالطبع .

مال بجسمه إلى الأمام في كرسيه ونظر إلى خارج النافذة . كان العجوز قد طوى جريدته في الجانب الآخر من الغرفة . نظر إلى السيد هاريس ثم حمل قهوته وطبقه واتجه إلى طاولة السيد هاريس :

قال باللغة الانجليزية :

ـ عفواً إنْ كنتُ أتطفل عليك ، لكن ، خطر في بالي بأنك قد تكون عضواً في الجمعية الجغرافية الوطنية .

قال هاريس :

ـ اجلس من فضلك .

جلس الرجل .

ـ ألا تريد قهوة أخرى أو ليكير؟ .

قال الرجل :

ـ شكراً .

ـ ألا تحب أن تشرب خمرة الكرز معي ؟ .

ـ ربما . لكن ، لا بد أن تشربها معي .

ـ لا ، أنا أصرّ .

نادى هاريس النادلة : أخرج العجوز من جيب معطفه الداخلي محفظة جيب جلدية الغلاف . أخرج رزمة أوراق محاطة بمطاط عريض وسحب عدة أوراق ، ثم اختار ورقة منها وناولها لهاريس .

قال :

ـ تلك شهادة عضويتي . أتعرف فريدريك ج . روسيل في أمريكا؟ .

ـ أخشى أنني لا أعرفه .

ـ أعتقد بأنه شخص بارز جداً .

ـ من أين هو؟ أتعرف من أية ولاية؟ .

ـ من واشنطون طبعاً . أليست هي المركز الرئيسي للجمعية؟ .

ـ أظن هذا .

ـ تظن هذا؟ ألستَ متأكداً؟ .

قال هاريس :

ـ كنتُ خارج البلاد مدة طويلة .

ـ أنت عضو في الجمعية، إذن؟ .
ـ لا . لكن أبي عضو فيها. كان عضواً فيها مدة سنين عديدة جداً .
ـ إذن فهو يعرف فريدريك ج. روسيل. إنه أحد مسؤولي الجمعية. ستلاحظ بأن السيد روسيل هو الذي رشّحني للعضوية .
ـ يسعدني هذا كثيراً .
ـ أنا آسف لأنك لست عضواً. لكنك تستطيع الحصول على الترشيح عن طريق أبيك؟ .

قال هاريس :

ـ أظن هذا. لا بد أن أفعل هذا حين أعود .

قال الرجل :

ـ أنصحك بفعل هذا. أنتَ ترى المجلة، طبعاً؟ .
ـ طبعاً .
ـ أرأيت العدد المزدان باللوحات الملّونة عن حيوانات شمال أمريكا؟ .
ـ نعم. إنه عندي في باريس .
ـ والعدد الذي يحتوي على مناظر لبراكين الاسكا؟ .
ـ ذلك كان مدهشاً .
ـ لقد استمتعتُ كثيراً جداً بصور الحيوانات المفترسة التي صوّرها جورج شيراس الثالث .
ـ كانت جميلة لعينة .
ـ عفواً .
ـ كانت ممتازة. ذلك الزميل شيراس. .
ـ أتدعوه ذلك الزميل؟ .

قال هاريس :

ـ نحن صديقان قديمان .
ـ أرى هذا. أنتَ تعرف جورج شيراس الثالث. لا بد أنه مثير جداً للإهتمام .
ـ نعم هو كذلك. هو أكثر الرجال الذين عرفتهم إثارة للإهتمام .
ـ أتعرف جورج شيراس الثاني؟ هل هو مثير للإهتمام أيضاً؟ .
ـ أوه، هو ليس مثيراً للاهتمام كثيراً .
ـ لا بد أنني ظننت بأنه مثير جداً للإهتمام .
ـ لتعرف، إنه أمر مضحك. إنه ليس مثيراً جداً للإهتمام. كثيراً ما تساءلت عن

السبب.

قال السيد:

- هم م. لا بد أنني ظننت بأن أي واحد من هذه الأسرة سيكون مثيراً للإهتمام.

سأل هاريس:

- أتذكر المنظر العام لصحراء الصحاري؟.
- صحراء الصحاري؟ كان ذلك قبل حوالي خمس عشرة سنة تقريباً.
- ذلك صحيح. كان ذلك الأثير لدى أبي.
- إنه لا يحب الأعداد الجديدة؟.
- ربما يحبها. لكنه كان مغرماً جداً بالمنظر العام للصحاري.
- كانت رائعة. لكنني أرى بأن قيمتها الفنية فاقت كثيراً فائدتها العلمية.

قال هاريس:

- لا أعرف هذا. الريح تذرو كل ذلك الرمل وذلك العربي وجَمَلُه راكعاً نحو مكة.
- وكما أتذكر أنا، فإن العربي كان يقف ممسكاً بالجمل.

قال هاريس:

- أنتَ محق تماماً. كنتُ أفكر بكتاب العقيد لورنس.
- أعتقد بأن كتاب لورنس يتناول بلاد العرب.

قال:

- تماماً. لقد كان العربي هو الذي ذكرني به.
- لا بد أنه شاب مثير للاهتمام.
- أعتقد هذا.
- أتعرف ما الذي يفعله الآن؟.
- إنه في سلاح الجو الملكي.
- ولماذا انضم إليه؟.
- إنه يحبه.
- أتعرف إنْ كان ينتمي إلى الجمعية الجغرافية الوطنية؟.
- إني لأتساءل إنْ كان كذلك.
- لا بد أنه سيكون عضواً ممتازاً. إنه من ذلك النوع من الأشخاص الذين يحتاجون لعضويته. سأكون سعيداً جداً بأن أرشحه، إنْ كنتَ ترى بأنهم يودون أن يقبلوه.
- أظن بأنهم يقبلونه.
- لقد رشحتُ عالماً من فيفي وزميلاً لي من لوزان وانتُخِبَ كلاهما. أظن بأنهم

سيسرون جداً إنْ أنا رشحتُ العقيد لورنس.

قال هاريس:

ـ إنها فكرة هائلة. أتتردد على هذا المقهى كثيراً؟.

ـ أحضر إلى هنا من أجل قهوة بعد العشاء.

ـ أأنتَ في الجامعة؟.

ـ لم أعد نشيطاً.

قال هاريس:

ـ أنا في انتظار القطار فقط. سأذهب إلى باريس وسأبحر من هافر إلى الولايات المتحدة.

ـ انني لم أزر أمريكا قط. لكنني أود زيارتها كثيراً جداً. ربما سأحضر اجتماعاً للجمعية ذات يوم. سأكون سعيداً جداً لو قابلتُ أبيك.

ـ أنا متأكد من أنه كان يحب أن يقابلك لكنه مات في السنة الماضية. أطلق النار على نفسه، أمر غريب حقاً.

ـ أنا آسف جداً حقاً. أنا متأكد من أن موته كان ضربةً للعلم إضافة لأسرته.

ـ تلقاه العلم تلقياً حسناً.

قال هاريس:

ـ هذه بطاقتي. كانت حروف اسمه الأولى ي.ج بدلاً من ي.د. أنا متأكد من أنه كان يحب أن يعرفك.

ـ سيكون هذا من دواعي سروري العظيم.

أخرج الرجل العجوز بطاقة من كتاب جيب وأعطاها لهاريس. وكان في البطاقة:

> د. سيجيسموند وايير: دكتوراة في الفلسفة
> عضو الجمعية الجغرافية الوطنية،
> واشنطون ـ مقاطعة كولومبيا،
> الولايات المتحدة الأمريكية.

قال هاريس:

ـ سأحافظ عليها كل المحافظة.

انتظار يوم واحـــد

دخـل الغـرفـة ليغلق النـوافـذ بينمـا كنا لا نزال في السرير، فلاحظتُ بأنه كان يبدو مريضاً. كان يرتعش ووجهه أبيض ويمشي ببطء كأن الحركة تؤلمه.

- ما بك يا شاتز؟.
- عندي صداع.
- يحسن أن تعود إلى السرير.
- لا. أنا بخير.
- إمض إلى السرير. سأراك بعد أن أرتدي ملابسي.

لكنني حين هبطتُ إلى الطـابق السفلي رأيتـه مرتـديـاً ملابسـه وجـالساً قرب النار، وهو يبدو ولداً في التاسعة مريضاً جداً ويائساً جداً. عندما وضعتُ يدي على جبهته، عرفتُ بأنه مصاب بالحمى.

قلت:

- اصعد وأمضِ إلى السرير. أنتَ مريض.

قال:

- أنا بصحة جيدة.

حين حضر الطبيب، قاسَ درجة حرارة الولد.

سألتُ:

- كم هي؟.
- مائة ودرجتان!.

في الطـابق السفلي، ترك الطبيب ثلاثـة أنـواع مختلفـة من الـدواء بثـلاث كبسـولات مختلفـة الألـوان مع تعليمات عن استعمالها. كان أحدها لخفض درجة الحـرارة والآخـر مسهِّلاً والثالث للتغلب على الحموضة. وقال موضحاً: إن جراثيم الانفلونـزا تعيش فقـط في ظروف حامضيـة. بدا أنـه يعرف كل شيء عن الانفلوانزا وقـال بأنـه ليس هنـاك موجب للقلق إذا لـم تتجـاوز درجـة حرارة الحمى مائـة وأربع درجـات. كانت هذه حالـة انفلونـزا وبـائيـة ولم يكن هنـاك أي خطـر إنْ لم يُصَبْ المريض بذات الرئة.

وفي الغـرفـة، سجّلتُ درجـة حرارة الولد ودوّنتُ ملاحظة عن الوقت المحدد لاعطاء الكبسولات المختلفة.

ـ أتريدني أن اقرأ لك؟ .

قال الولد:

ـ حسناً. إنْ أردت.

كان وجهه أبيض تماماً كما كانت تحت عينيه بقع سوداء. كان يستلقي في السرير ساكناً ويبدو ذاهلاً عن كل ما يجري حوله.

قرأتُ بصوت عالٍ من كتاب هوارد بايل: «كتاب القراصنة». لكنني لاحظتُ بأنه لم يكن يتابع ما كنت أقرأه عليه.

سألته:

ـ كيف حالك يا شاتز؟ .

ـ تماماً كما في السابق إلى حد الآن.

جلستُ على أسفل السرير وقرأتُ لنفسي برهة بينما كنت أنتظر الوقت المحدّد لاعطائه كبسولة أخرى. كان من الطبيعي أن ينام، لكنني لاحظتُ، حين رفعتُ نظري إليه، بأنه كان ينظر إلى أسفل السرير، كان ينظر نظرة غريبة جداً.

ـ لِمَ لا تحاول أن تنام؟ سأوقظك لتناول الدواء.

ـ أفضل البقاء مستيقظاً.

قال لي بعد برهة:

ـ لستَ مضطراً للبقاء هنا معي يا بابا إنْ كان هذا يزعجك.

ـ إنّ هذا لا يزعجني.

ـ لا. أعني أنك لستَ مضطراً للبقاء إنْ كان هذا سيزعجك.

فكرتُ بأنه ربما كان يهذي وخرجتُ لبرهة بعد أن أعطيته الكبسولات المحدّدة في الساعة الحادية عشرة.

كان يوماً صافياً بارداً وكانت الأرض قد غُطيَّتْ بجليد المطر الذي كان قد تجمد على نحو بدت فيه الأشجار العارية والشجيرات والأغصان المقطوعة وكل الأعشاب والأرض الجرداء مطليّة بالثلج. أخذتُ كلبَ الصيد الايرلندي الصغير للقيام بنزهة قصيرة على الطريق وعلى جدول متجمد، لكن، كان من الصعب الوقوف أو المشي على السطح الزجاجي، فزلّ الكلب الأحمر وانزلق وسقطتُ أنا مرتين بقوة، كما سقطتْ مني بندقيتي في إحدى المرات وانزلقتْ مبتعدة فوق الجليد.

طيّرنا سرباً صغيراً من طيور السمّان تحت منحدر مرتفع بأغصان متدلية وقتلتُ اثنين منها حين توارتْ عن الأنظار فوق قمة المنحدر. حطّتْ بعض طيور السرب

على الأشجار، لكن أغلبها تفرّق في كومات من الأغصان المقطوعة وكان لا بد أن تقفزَ على تلال الأغصان المغطاة بالثلج عدة مرات قبل أن تطير. وكان خروجها من أماكنها بينما أنتَ توازن نفسك على نحو مقلقل على الأغصان الليّنة المغطاه بالثلج يجعل إطلاق النار صعباً فقتلتُ اثنين واخطأت خمسة ثم انطلقتُ عائداً إلى البيت وأنا أشعر بالسرور لاكتشافي سربَ طيور قريباً من البيت وأشعر بالسعادة لبقاء الكثير منها ليوم آخر.

وأخبروني في البيت بأن الولد رفض السماح لأي شخص بأن يدخل غرفته.

قال:

- لا يمكنك الدخول. يجب ألّا تصاب بما أصبتُ به.

صعدتُ إليه ووجدته على نفس الحال التي تركتُه عليها تماماً، أبيض الوجه لكن قمتيّ خديه متوردتان بالحمى ولا يزال يحدّق، كما كان يحدّق في السابق، في أسفل السرير. أخذتُ درجة حرارته.

- كم هي؟.

قلت:

- بحدود المائة درجة.

كانت مائة ودرجتين وأربعة أعشار.

قال:

- كانت مائة ودرجتين.

- مَنْ قال هذا؟.

- الطبيب.

قلت:

- إن درجة حرارتك عادية. لا تدعو إلى القلق.

قال:

- لستُ قلقاً، لكنني لا أستطيع الكفّ عن التفكير.

قلت:

- لا تفكر. خذ الأمور ببساطة.

- انني آخذها ببساطة.

ونظر إلى الأمام مباشرة. كان من الواضح بأنه يخفي في نفسه، وبكتمان شديد، شيئاً.

- خذ هذه مع الماء.

ـ أتظن بأنها ستفيدني؟.
ـ طبعاً ستفيدك.

جلست وفتحت «كتاب القراصنة» وبدأتُ القراءة، لكنني لاحظت بأنه لم يكن يتابع ما كنتُ أقرأه، لذلك توقفتُ عن القراءة.

سأل:

ـ في أي وقت ترى بأنني سأموت؟.
ـ ماذا؟!.
ـ كم سأستغرق من وقت قبل أن أموت؟.
ـ لن تموت، ما بك؟.
ـ أوه، نعم. سأموت. لقد سمعتُه يقول مائة ودرجتين.
ـ لا يموت الإنسان من حمى بدرجة مائة ودرجتين. تلك طريقة سخيفة للكلام.
ـ أعرف بأنهم يموتون. لقد أخبرني الأولاد في المدرسة في فرنسا بأنه لا يمكنك أن تعيش بدرجة حرارة تصل إلى أربع وأربعين. لقد وصلتُ إلى مائة ودرجتين.

كان ينتظر أن يموت طيلة النهار، منذ التاسعة صباحاً.

قلت:

ـ يا شاتز المسكين. يا شاتز المسكين العجوز. إنها كالأميال والكيلومترات. لن تموت. إنه ميزان حرارة مختلف. إن سبعاً وثلاثين درجة في ذلك الميزان هي درجة الحرارة الطبيعية. أما في هذا النوع، فهي ثماني وتسعون.

تابعتُ قائلاً:

ـ إنها تماماً كالأميال والكيلومترات. أنتَ تعرف، مثل كم كيلومتراً نقطعها حين نقطع سبعين ميلاً في السيارة؟.

قال:

ـ أوه.

لكن تحديقته في أسفل السرير تراخت. كما خفّ توتره، ثم خفّتْ الحمى أخيراً في اليوم التالي وأخذ يصيح بسهولة لأشياء صغيرة لم تكن ذات بال.

تاريخ طبيعي للموتى

بدا لي دائماً بأن الحرب كانت قد حُذفت كميدان لملاحظات العالم الطبيعي . إن لدينا أوصافاً فاتنة وصحيحة لزهور وحيوانات باتاجونيا من تأليف المرحوم و. هـ . هدسون، كما أن الأب المبجل جيليرت وايت كتب، وعلى نحو أكثر إثارة للاهتمام، عن الهدهد في زيارات هذا الهدهد العَرَضية وغير المتتابعة، على الاطلاق، إلى سيلبون، بينما قدّم إلينا الأسقف ستانلي كتاباً قيّماً وشعبياً كذلك عن «تاريخ الطيور المألوف». ألا يمكننا أن نأمل بعد هذا كله أن نقدّم إلى القارىء وقائع قليلة معقولة ومثيرة للاهتمام عن الموتى؟ آمل ذلك.

عندما كان ذلك الرحّالة المثابر مانجو بارك يُغمى عليه في فترة حياته وهو في تيه الصحراء الأفريقية الشاسعة، عارياً ووحيداً، معتبراً أيامه معدودة وقد بدا له بأنه لم يبقَ لديه ما يفعله سوى أن يتمدد ويموت، لفتتْ نظره زهرةُ طحلب صغيرة ذات جمال خارق للعادة. فقال: «مع أن النبتة كلها ليست أكبر من أحد أصابعي، إلاّ أنني لا أستطيع تأمل تكوين جذورها وأوراقها وكؤوسها الدقيق دون الاعجاب بها. هل بوسع ذلك «الوجود» الذي زَرَع ورعى، إلى درجة الكمال وفي هذا الجزء المجهول من العالم، شيئاً، يبدو إلى هذا الحد من قلة الأهمية، أن ينظرَ بلا مبالاة إلى وضع ومعاناة مخلوقات تشكّلت على صورته نفسه؟ بالتأكيد لا. كما أن تأملات كهذه لن تسمح لي بأن أصل إلى اليأس، فنهضتُ واقفاً وانطلقتُ، دون مبالاة بالجوع والتعب، سائراً إلى الأمام، وأنا متأكد من أن الخلاص أصبح قاب قوسين أو أدنى: ولم يخب أملي».

وهل يمكن أن يُدرس أي فرع من التاريخ الطبيعي، بنفس نزعة الاندهاش والعبادة وعلى هذا النحو، كما يقول القسيس ستانلي، دون أن يزيد ذلك الايمان والحب والأمل الذي نحتاجه نحن أيضاً، ويحتاجه كل واحد منا في رحلتنا في تيه الحياة؟ فلنر اذن أي إلهام يمكننا إستخلاصه من الموتى.

يكون الموتى أثناء الحرب من ذكور الجنس البشري، مع أن هذا لا ينطبق على الحيوانات، فكثيراً ما رأيتُ أمهراً ميّتة بين الخيول. كما أن ثمة وجه آخر للحرب مثير للاهتمام وهو أن العالم الطبيعي يجد فيه وحده فرصة ملاحظة البغال الميتة. فأنا لم أرَ، خلال عشرين سنة من ملاحظة الحياة المدنية، بغلاً ميّتاً حتى أن شكوكاً بدأت تساورني حول حقيقة ما إذا كانت هذه الحيوانات فانية حقاً. إلا

انني رأيت في مناسبات نادرة حيوانات اعتبرتها بغالاً ميتة، لكن هذه البغال كانت تظهر دائماً بأنها مخلوقات حيّة حين كنت أقترب منها قرباً شديداً، حيث كانت تبدو حية وهي في وضع الراحة الكامل الذي تتخذه. لكن هذه الحيوانات تخضع في الحرب للموت بنفس قدر خضوع الحصان العادي جدلاً والأقل إحتمالاً منها للموت.

وكانت أغلبية البغال التي رأيْتها ميتة ملقاة على طرق جبلية أو منطرحة في قاع منحدرات حادة دُفعت منها لتخليص الطريق منها. وقد بدتْ منظراً مناسباً في الجبال حيث اعتاد الناس على وجودها هناك، كما بدت أقل تعارضاً مما بدت فيما بعد في سميرنا، حيث كَسَر اليونانيون كل سيقان حيوانات أمتعتهم ودفعوا بها بعيداً عن أرصفة الميناء إلى داخل المياه الضحلة لتغرق. وقد استصرختْ اعداد البغال والخيول مكسورة الأرجل الغارقة في المياه الضحلة «جويا»* ليصوِّرها. ومع أن من الصعب على الانسان القول، حرفياً، بأنها استصرخت «جويا» ليصوِّرها لأنه لم يكن هناك سوى «جويا» واحد فقط وكان قد توفي منذ وقت طويل، كما أنه من المشكوك فيه إلى حد بعيد أن تَستصرخ هذه الحيوانات، إن كانتْ قادرة على الاستصراخ، طالبةً عرضاً تصويرياً لمحنتها، إلاّ أنه من الأكثر إحتمالاً أن تستصرخ، إنْ كانت لديها القدرة على التعبير، طالبةً من شخص أن يخفف عنها حالها.

أما فيما يتعلق بجنس الموتى، فإنه لمن الواقع أن الانسان أصبح معتاداً جداً على رؤية أن الموتى كلهم ذكور حتى أن رؤية امرأة ميتة تشكل صدمة حقيقية له. وقد رأيتُ أول تغيُّر لجنس الموتى الاعتيادي بعد انفجار مصنع ذخيرة كان يقع في الريف قرب ميلانو في ايطاليا. وكنا قد وصلنا إلى موقع الكارثة في شاحنات على طرق مظلَّلة بأشجار الجوز، ومخدَّدة بخنادق تحتوي على كثير من كائنات حيّة دقيقة لم أستطع ملاحظتها بسبب سُحب الغبار الهائلة التي أثارتها الشاحنات. وبعد أن وصلنا إلى المكان الذي كان فيه مصنع الذخيرة، عُيِّنَ آخرون لاطفاء نار اشتعلتْ في عشب حقل مجاور، وحالما أُنجزتْ هذه المهمة، أُمرنا بالبحث عن جثث في المناطق المجاورة والحقول المحيطة. فوجدنا الكثير من هذه الجثث ونقلناها إلى مستودع جثث مرتجل، ولا بد أن أقرَّ بصراحة بأنني أُصبت بصدمة حين وجدتُ بأن هذه الجثث كانت نساءً وليست رجالاً. ولم تكن النساء في تلك الأيام،

* جويا، فرانسسكو دي جويا (١٧٤٦ ـ ١٩٢٨) رسام اسباني شجب في رسوماته الحرب والتعصب. (المورد ـ معجم الأعلام).

قد بدأن بقصّ شعورهن قصّاً قصيراً كما فعلن بعد سنين عديدة في أوروبا وأمريكا، فكان أكثر ما أزعجنا وجود هذا الشعر الطويل، وربما أحسسنا بهذا الانزعاج لأنه كان أمراً غير مألوف تماماً، كما أن ما كان أكثر إزعاجاً هو غياب هذا الشعر الطويل بين هذا الجمع الكبير منه أحياناً. وأذكر بأننا لم نجمع سوى نُتَفاً من الموتى بالرغم من أننا كنا نبحث بحثاً دقيقاً عن جثث كاملة. وكان الكثير من هذه النتف قد نُزعت من سياج أسلاك شائكة سميكة كان يحيط بموقع المصنع وكان من بين الأجزاء الموجودة هناك والتي التقطناها كثير من هذه النتف المنتزعة التي صَوَّرَتْ تصويراً دقيقاً قوة الانفجار الهائلة. فقد وجدنا كثيراً من النتف على مسافة بعيدة في الحقول، بعد أن حملها ثقلها إلى مسافة أبعد.

وأثناء عودتنا إلى ميلانو، تذكرتُ نقاشاً جرى بين واحد أو اثنين منا عن الحادث وقد اتفقنا بأن بُعد الحادث عن الواقعية وعدم وجود جرحى جرد المصيبة من رُعب كان يمكن أن يكون أعظم وقعاً على النفوس. كما أن الحادث كان فورياً وأن الموتى كانوا بعد ذلك لا يزالون يثيرون أقل ما يمكن من النفور أثناء حملهم والتعامل معهم مما جرَّد هذا الحادث تماماً من طبيعة تجربة ميدان المعركة. كما كان ركوبنا السار، مع أنه كان يعج بالغبار، عبر ريف لومبارديا الجميل تعويضاً عن منغصات واجبنا، وكنا قد اتفقنا كلنا، أثناء عودتنا وبينما كنا نتبادل انطباعاتنا، على أنه كان من حسن الحظ حقاً أن تَمَّتْ السيطرة على النار التي شبَّتْ قبيل وصولنا تماماً وبالسرعة التي تمت بها وقبل أن تصل إلى أي من مخزون الذخائر الهائل غير المنفجرة. كما اتفقنا أيضاً على أن جَمْعَ النتف كان عملاً خارقاً للعادة، وعلى أن من المدهش حقاً أن انفجار الجسم البشري لا يتم حسب خطوط تشريحية بل يُقَسَّم تقسيماً تمليه النزوة كالتشظي الحاصل في انفجار قنبلة شديدة الانفجار.

قد يَقصر العالم الطبيعي ملاحظاته على فترة زمنية واحدة محدودة حتى يصل إلى دقة الملاحظات، وسآخذ أولاً الفترة التي تلت الهجوم النمساوي في حزيران/يونيو ١٩١٨ في ايطاليا كمثال واحد على وجود موتى بأعداد كبيرة، فقد جرى انسحاب بالقوة ثم حصل تقدم فيما بعد لاستعادة الأرض المفقودة فبقيت المواقع بعد المعركة كما كانت في السابق ما عدا وجود الموتى. والموتى يتغيرون في المظهر إلى حد ما في كل يوم إلى أن يتم دفنهم. فتغيّر اللون في الأجناس القوقازية يكون من اللون الأبيض إلى اللون الأصفر ثم إلى الأصفر المخضرّ ثم إلى الأسود. وإذا تُرِك الموتى لفترة طويلة في الحرارة، يصبح اللحم البشري شبيهاً بقطران الفحم خصوصاً في الكسور والتمزق من الجسم، كما يظهر عليه تقرّح شب

قطراني. ويتضخم الموتى يوماً بعد يوم إلى أن يصبحوا أحياناً أضخم من بزّاتهم تماماً مالئين هذه البزات إلى أن يبدوا وقد انتفخوا إلى درجة الانفجار. وقد تزداد الأعضاء الفردية حجماً إلى حد لا يمكن تصديقه وتمتلىء الوجوه وتُشدّ وتتخذ شكلاً كروياً كالبالونات. والشيء المدهش التالي لتضخمهم التدريجي هو كمية الأوراق التي تتناثر حول الموتى. ويعتمد وضع الموتى النهائي، قبل أن تثور مسألة دفنهم، على موضع الجيوب في البزات. ولأن الجيوب في الجيش النمساوي تقع في مؤخرة البناطيل فإن كل موتاهم يطرحون، بعد مدة قصيرة من موتهم، على وجوههم كنتيجة لهذا وقد سُحبت جيوب مؤخراتهم إلى الخارج وتناثر كل ما تحويه جيوبهم من أوراق حولهم على العشب. فتكون الحرارة والذباب ووضع الجثث الدال على أصحابها في العشب وكمية الأوراق المتناثرة هي الانطباعات التي يحتفظ بها الانسان في ذهنه عنهم. إلا أن الانسان لا يستطيع استعادة ذكرى رائحة ميدان المعركة في الطقس الحار. فبوسعك أن تتذكر بأن ثمة رائحة كهذه كانت هناك، لكن شيئاً لا يثور في نفسك لتستعيد تلك الرائحة. فهي ليست كرائحة كتيبة قد تصل إليك فجأة وأنت تركب ترامواي فتنظر عبر الشارع وترى الرجل الذي أوصلها إليك. لكن الشيء الآخر يختفي اختفاء كاملاً كحالك حين كنتَ عاشقاً، فأنت تتذكر الأمور التي حدثت لكنك لا تستطيع أن تستعيد احساسك بها.

وقد يتساءل الانسان عما كان سيراه ذلك الرحالة المثابر مانجوبارك في ميدان معركة في طقس حار ليستعيد ثقته بنفسه. فبين القمح ينتشر دائماً خشخاش في نهاية حزيران/ يونيو وتموز/ يوليو كما أن أشجار التوت تكون مورقة ايراقاً كاملاً ويكون بوسع أي انسان أن يرى أمواج الحرارة ترتفع من مواسير البنادق حين تنصب عليها الشمس المتسللة عبر ستائر الأوراق، كما تكون الأرض قد تحوّلت إلى اللون الأصفر الزاهي عند حافة الحُفَر حيث كانت قنابل غاز الخردل قد انفجرت فتصبح رؤية المنزل العادي المحطم أبهج للعين من رؤية بيت تعرّض لقصف القنابل، لكن، قليلون هم المسافرون الذين سيستنشقون هواء ذلك الصيف المبكر استنشاقاً كاملاً وتخطر في بالهم أفكار كتلك الأفكار التي خطرت في بال مانجوبارك عن أولئك الذين تشكلوا على صورته الألهية.

إن أول ما تكتشفه في الموتى هو أنهم يموتون كالحيوانات بعد إصابتهم باصابة خطيرة. فيموت بعضهم بسرعة من جرح طفيف تظن بأنه لم يكن ليقتل أرنباً. يموتون من جروح خفيفة كما تموت أرانب أحياناً من ثلاث أو أربع حبّات خردق صغيرة تبدو كأنها لا تكاد تخترق جلدها. ويموت آخرون كالقطط، فبينما

كـون جمـاجمهم مكســورة وقطعة حديد في أدمغتهم، تراهم ينطرحون أرضاً وهم حيـاء مدة يومين كالقطـط التي تزحف إلى داخـل صنـدوق الفحم وقـد استقـرت رصـاصـة في دمـاغهـا فلا تمـوت إلاّ بعـد أن تقطّع رؤوسها. وبما لا تموت القطط حينـذاك، فالنـاس يقـولـون بأن لهـا تسع أرواح. أنا لا أعرف. لكن أغلب الرجال يمـوتـون كالحيـوانات وليس كالرجال. إنني لم أرَ قطُّ ما يدعى موتاً طبيعياً، فعزيب ذلـك إلى الحـرب، وعـرفت، كالرحالة المثابر مانجوبارك، بأن ثمة شيء آخر هنا، يغيِّب دائماً شيئاً آخر، وبعدئذ، رأيتُ موتاً طبيعياً.

والمـوت الطبيعي الـوحيـد الـذي رأيتُه، خارج نطاق فقدان الدم، والذي لم يكن سيئـاً، كان موتـاً ناتجـاً عن الانفلونـزا الاسبـانيـة، ففي مرض كهذا تغرق في المخاط، مختنقاً، لكن، كيف تعرف بأن المريض ميّت: إن المريض يتحول ثانية وفي النهـايـة إلى طفـل صغيـر بالـرغم من تمتعـه بقـوته الرجولية، فيملأ الملاءات بالكـامـل، كمـا تمتلىء أيـة أقمطـة، بشلال عريض نهائي أصفر يستمر في التدفق والتسـاقـط حتى بعـد أن ينفق. لذلك فأنا أريد أن أرى الآن موت أي شخص يدعو نفسـه بالانسـاني*، لأن رحّالةً مثابراً مثل مانجوبارك أو مثلي يعيش أو ربما سيعيش ليـرى المـوت الحقيقي لأعضـاء هذه الطـائفة الأدبية وليراقب خروجها النبيل الذي تخرجه. وقد خطر في بالي أثناء تأملاتي كعالم طبيعي بأنه بينما الاحتشام أمر رائع، إلاّ أنه لا بد أن يكون البعض غير محتشمين إذا أريد للعنصر البشري أن يستمر في الحيـاة لأن الـوضـع المقـرر للانجاب غير محتشـم، بل وغير محتشم إلى حد كبير، كمـا خطـر في بالي بأن النـاس هم أو كانـوا: أطفال تزاوج محتشم. لكن، وبغض النظر عن كيف بدأوا، فإنني آمل أن أرى نهاية عدد قليل منهم، وأتأمل كيف ستبلو الـديـدان ذلـك العُقم المحنـط لمـدة طويلة، وقـد حوّلت كراريسهم الغـريبـة كل شهواتهم إلى صدرٍ وحواشٍ.

فبينمـا قد يكـون من القانوني أن نتعامل مع هؤلاء المواطنين المصنّفين ذاتياً من خلال تاريخ طبيعي للموتى، حتى وإنْ كانَ هذا التصنيف لا يعني شيئاً في وقت نشـر هذا العمـل، إلاّ أن ذلـك سيكـون مجحفاً في حق الموتى الآخرين الذين لم يمـوتـوا في شبـابهم الاختياري، والذين لم يملكوا أية مجلة، والذين لم يقرأ الكثير منهم حتى ولا مقـالـة واحـدة قط بلا ريب، والذين رآهم الكاتب ملقون في الطقس

* نستميح القارىء عذراً لذكر ظاهرة منقرضة كهذه. وتشير هذه الاشارة، مثل كل اشارة إلى الأفكار السائدة، إلى تاريخ القصة، وقد أُستبقيَتْ لأهميتها التاريخية الطفيفة ولأن حذفها يُفسد الايقاع. (ملاحظة في النص الأصلي من المؤلف نفسه).

الحار مع رُبع باينت* من اليرقات تعمل حيث كانت أفواههم. ولم يكن الطقس الحار دائماً هو المؤثر على الموتى، ففي كثير من الأوقات يكون المطر هو الذي يغسل هؤلاء الموتى وينظفهم وهم ملقون في الأرض، فيجعل الأرض لينةً حين يُدفنون فيها، وقد يستمر أحياناً حتى تصبح الأرض طيناً فيخرجهم من باطن الأرض ويكون من الضروري دفنهم ثانية. أو تكون ملزماً في الشتاء وفي الجبال أن تدفنهم في الثلج وحين يذوب الثلج في الربيع، يُلزم شخص آخر أن يدفنهم ثانية. وفي الجبال أراضي دفن رائعة، والحرب في الجبال هي أجمل الحروب كلها، فقد دفنوا في إحدى هذه الحروب وفي مكان يدعى بوكول، لواءً أصابه قنّاص في رأسه وقتله. وهنا يقع خطأ أولئك الكتّاب الذين كتبوا كتباً تدعى: «القادة يموتون في أسرّتهم» لأن هذا اللواء مات في خندق حُفر في الثلج في أعالي الجبال، وهو يعتمر قبعة ألبينية عليها ريشة صقر وفي مقدمتها ثقب بوسعك وضع أصبعك الصغير فيه وثقب في مؤخرتها بوسعك وضع قبضتك فيه إنْ كانت قبضةً صغيرة وأردتَ وضعها هناك كما كان قد سفح الكثير من الدم في الثلج. لقد كان لواءً لعيناً رائعاً، وكذلك كان اللواء فون بيهر الذي كان يقود جنود فيالق جبال الألب البافارية في معركة كابوريتو وقد قتله في سيارة هيئة الأركان حرس المؤخرة الايطاليون بينما كان في السيارة متجهاً إلى أودين على رأس كتائبه، ولا بد أن تصبح عناوين كل مثل هذه الكتب: «القادة يموتون عادة في أسرّتهم»، إنْ كنا لا بد أن نتحرى أي نوع من الدقة في مثل هذه الأمور.

ويسقط الثلج في الجبال أحياناً على الموتى خارج مركز الإسعاف وعلى الجانب الذي يحميه الجبل من أي قصف. فقد حملوهم إلى كهف حُفر داخل سفح الجبل قبل أن تتجمد الأرض. وكان قد وضع في هذا الكهف رجل كسر رأسه كما يُكسر أص زهور، بالرغم من أنه ظل مثبّتاً بأغشية وبضمادات رُبطت بمهارة وابتلّتْ الآن وأصبحتْ قاسية، كما شوهت بُنية دماغه قطعةُ فولاذ استقرت فيه، فظل ممدداً مدة يوم وليلة ثم يوم آخر. وقد طلب حاملو النقّالات من الطبيب أن يدخل إلى الكهف ويلقي عليه نظرة. كانوا يرونه في كل مرة كانوا يدخلون فيها الكهف كما كانوا يسمعونه يتنفس حتى حين لم يكونوا ينظرون إليه. كانت عينا الطبيب حمراوين وجفناه منتفخين، وتكاد تكونان مغمضتين من تأثير غاز الدموع. نظر إلى الرجل مرتين، مرة في ضوء النهار ومرة أخرى في نور مصباح اليد. كان لا بد أن يُلحّ ذلك على «جويا» أيضاً، أعني، الزياره مع مصباح اليد. وبعد أن ألقى الطبيب

* باينت مكيال انجليزي = ٤٧٣, ٠ لتر. (المترجم).

نظرة ثانية عليه، صدّق حاملي النقالات حين قالوا بأن الجندي كان لا يزال حياً.

سأل:

ـ ماذا تريدونني أن أفعل له؟.

لم يكن هناك من شيء يريدون فعله. لكنهم طلبوا الأذن بعد وهلة في حملة إلى الخارج ووضعه مع المصابين بجروح خطيرة.

قال الطبيب الذي كان مشغولاً:

ـ لا. لا. لا. ما بكم؟ هل أنتم خائفون منه؟.

ـ نحن لا نحب أن نسمعه هناك مع الموتى.

ـ لا تصغوا إليه. إن أخرجتموه من هناك فستضطرون إلى إعادته إلى الداخل.

ـ لا يهمنا ذلك أيها الطبيب النقيب.

قال الطبيب:

ـ لا. لا. ألم تسمعوني أقول لا؟.

سأل ضابط مدفعية كان ينتظر تضميد جرح في ذراعه:

ـ لِمَ لا تعطيه جرعة زائدة من المورفين؟.

ـ أتظن بأن ذلك هو استعمال المورفين الوحيد الذي استعمله لأجله؟ أتريدني اجراء عمليات دون مورفين؟ لديك مسدس، أخرج وأطلق الرصاص عليه بنفسك.

قال الضابط:

ـ لقد سبق وأصيب بالرصاص. لو أصيب بعضكم أيها الأطباء بالرصاص لأختلف الأمر.

قال الطبيب وهو يلوّح بكلاّبة الجراحة في الهواء:

ـ أشكرك شكراً جزيلاً. أشكرك ألف مرة. ما رأيك بهاتين العينين؟.

وأشار بكلاّبه إلى عينيه وتابع:

ـ كيف تراهما؟.

ـ غاز دموع. ندعو الشخص محظوظاً إنْ أُصيب بغاز الدموع.

ـ لأنكم تتركون خطّ القتال. لأنكم تأتون إلى هنا ركضاً طالبين إزالة غاز الدموع. إنكم تفركون عيونكم بالبصل.

ـ لقد خرجتَ عن طورك. لن التفتَ إلى إهاناتك. فأنت مهزوز الأعصاب.

دخل حاملا نقّالة:

قال أحدهما:

ـ أيها الطبيب النقيب.

قال الطبيب:
- أخرجا من هنا.
وخرجا.
قال ضابط المدفعية:
- سأطلق الرصاص على المسكين. إنني رجل إنسانيّ. لن أدعه يعاني.
قال الطبيب:
- أطلق الرصاص عليه إذن. أطلق الرصاص عليه. تحمّل المسؤولية. أطلق الرصاص عليه. هيا، أطلق عليه الرصاص.
- أنتَ لست انساناً.
- عملي هو أن أعتني بالجرحى لا أن أقتلهم، ذلك عمل السادة العاملين في المدفعية.
- لِمَ لا تعالجه إذن؟.
- لقد عالجتُه. فعلتُ كل ما بوسعي فعله.
- لِمَ لا ترسله إلى أسفل الجبل في قطار الكابل.
- مَنْ أنتَ لتستجوبني؟ هل أنتَ رئيسي؟ هل أنتَ قائد مركز الإسعاف هذا؟ تفضل وأَجِبْ على سؤالي.
لَمْ يقل ملازم أول المدفعية شيئاً. كان كل الآخرين في الغرفة جنوداً ولم يكن بينهم أي ضابط آخر.
قال الطبيب وهو يرفع إبرةً بكلّابة الجرّاح عالياً:
- أجبني. قدّم إليّ جواباً.
قال ضابط المدفعية:
- إزنِ بنفسك.
قال الطبيب:
- إذن. إذن، فقد قلتَ ذلك. حسناً. حسناً. سنرى...
وقف ملازم أول المدفعية ثم مشى متجهاً نحوه:
قال:
- إزنِ بنفسك. إزنِ بنفسك. إزنِ بأمك. إزنِ باختك.
قذف الطبيب طبقاً مليئاً باليود في وجهه. تحسس الملازم جيبه بحثاً عن مسدسه حينما تقدم نحوه وقد أُصيبَ بالعمى. فقفز الطبيب وراءه بسرعة، ودفعه، ثم ركله عدة مرات حالما سقط على الأرض والتقط مسدسه بقفازيه المطاطيين.

جلس الملازم على الأرض رافعاً يده السليمة على عينيه.

قال:

ـ سأقتلك. سأقتلك حالما أتمكن من أن أرى

قال الطبيب:

ـ أنا الرئيس هنا. كل شيء مغفور له لأنك تعرف بأنني الرئيس. لا تستطيع أن تقتلني لأن المسدس معي. أيها الرقيب. أيها المعاون. أيها المعاون.

قال الرقيب:

ـ المعاون في القطار المعلّق.

ـ أمسح عينيّ هذا الضابط بالكحول والماء. أن فيهما يود. أحضر لي حوضاً لأغسل يديّ. سيكون هذا الضابط هو التالي.

ـ لن تلمسني.

ـ أمسكوا به بقوة. إنه مهتاج قليلاً.

دخل أحد حاملي النقالات:

ـ أيها الطبيب النقيب.

ـ ماذا تريد؟.

ـ الرجل في بيت الموتى..

ـ أخرج من هنا.

ـ مات أيها الطبيب النقيب. ظننتُ بأنك ستسر إنْ عرفتَ هذا.

ـ أنظر يا ملازمي المسكين. نحن نتناقش حول لا شيء. نحن نختلف في زمن الحرب حول لا شيء.

قال ملازم أول مدفعية:

ـ لأزنِ بك.

ما زال لا يستطيع أن يرى.

ـ لقد أعميتني.

قال الطبيب:

ـ هذا لا شيء. ستشفى عيناك. هذا لا شيء. نزاع حول لا شيء.

صاح الملازم أول فجأة:

ـ آي. آي. آي. أصبحتُ أعمى. لقد أعميتني.

قال الطبيب:

ـ أمسكوه جيداً. إنه يتألم كثيراً. أمسكوا به جيداً.

نبيذ وايومينج*

كان الوقت بعدَ ظهر يوم حار في وايومينج، وكانت الجبال تمتد إلى مسافة طويلة كما كان بوسعك أن ترى الثلوج على قممها، غير أنها لم تكن تلقي بأية ظلال، وكانت حقول الحبوب في الوادي صفراء، والطريق مترباً من السيارات المارة عليه، وكانت كل البيوت الخشبية عند حافة المدينة تُشوى في الشمس. وكانت ثمة شجرة تلقي ظلاً على شرفة محل فونتان الخلفية، فجلستُ هناك إلى طاولة وأحضرت لي السيدة فونتان كأس بيرة باردة من القبو. دارت سيارة مبتعدة عن الطريق الرئيسي واقتربتْ سائرة على الطريق الجانبي، ثم وقفت إلى جانب البيت. خرج منها رجلان ودخلا من البوّابة. فوضعتُ القنينة تحت الطاولة. نهضتْ السيدةَ فونتان واقفة.

قال أحد الرجلين عند باب السيارة:

- أين سام؟.

- ليس هنا. إنه في المناجم.

- لديكم بيرة؟.

- لا. ليس لدينا شيء منها. تلك كانتْ آخر قنينة. كلها نفدت.

- ما الذي يشربه هو؟.

- تلك كانت آخر قنينة. كلها نفدت.

- هيا. قدّمي إلينا بعض البيرة. أنت تعرفينني.

قال أحدهما:

- هيا، لنذهب إلى مكان يمكننا الحصول فيه على بعض البيرة الحقيقية.

ثم خرجا نحو السيارة. سار أحدهما مترنحاً. واهتزت السيارة عند تشغيلها واندفعت على الطريق وتابعت السير ثم ابتعدت.

قالت السيدة فونتان:

- ضع البيرة على الطاولة. ما بك؟ كل شيء على ما يرام. ما بك؟. لا تشرب والقنينة على الأرض.

قلت:

- لا أعرف مَنْ كانا.

* تتكلم السيدة فونتان هنا باللغة الفرنسية طيلة الوقت أو بلغة هي مزيج من الفرنسية والانجليزية أو بلغة انجليزية بتركيب لغوي فرنسي. (المترجم).

قالت :

ـ إنهما سكرانان. ذلك ما يثير المتاعب. فهما يذهبان إلى مكان آخر ويقولان بأنهما حصلا على البيرة من هنا. قد لا يتذكران.

كانت تتكلم بالفرنسية، لكنها فرنسية غير كاملة، حيث أنها كانت تستعمل كثيراً من الكلمات الانجليزية وبعض التراكيب الانجليزية.

ـ أين فونتان؟.

ـ يجني محصول الأعناب. أوه يا إلٰهي. إنه مهووس بالنبيذ.

ـ لكنك تحبين البيرة؟.

ـ نعم. إنني أحب البيرة، لكن فونتان مهووس بالنبيذ.

كانت امرأة عجوزاً مكتنزة لها بشرة ضاربة للحمرة ورأس أبيض. كانت نظيفة جداً كما كان البيت نظيفاً جداً ومرتباً. وكانت قد أتَتْ من مدينة لينز.

ـ أين أكلتَ؟.

ـ في الفندق.

ـ كُلْ هنا. يجب ألا تأكل في الفندق أو في المطعم. كُلْ هنا.

ـ لا أريد أن أثير المتاعب. إضافة إلى أن الطعام في الفندق لا بأس به.

ـ أنا لا آكل في الفندق إطلاقاً. قد يكون الطعام جيداً هناك. لكنني أكلتُ مرة واحدة في حياتي فقط في مطعم في أمريكا. تعرف ما قدّموه إليّ؟ قدّموا إليّ لحم خنزير نيّء.

ـ حقاً؟

ـ أنا لا أكذب عليك. كان لحم خنزير لم يُطبخ. وابني متزوج من أمريكية ويأكل البقول المعلّبة طيلة الوقت.

ـ كم مضى عليه وهو متزوج؟.

ـ آه. يا إلٰهي. لا أعرف. إن زوجته تزن مائتين وخمسة وعشرين رطلاً. إنها لا تشتغل. إنها لا تطبخ. وهي تقدّم إليه البقوليات المعلّبة.

ـ ماذا تفعل؟.

ـ تقرأ طيلة الوقت. لا شيء غير الكتب. طيلة الوقت تبقى ممددة على السرير وتقرأ الكتب. كما أنها لم تعد تستطيع إنجاب طفل آخر. إنها أسمن من اللازم. وليس فيها متسع.

ـ ما بها؟.

ـ إنها تقرأ كتباً طيلة الوقت. إنه ولد طيب. وهو يشقى بالعمل. لقد عمل في

المناجم. ويعمل الآن في مزرعة مواشي. إنه لم يعمل في مزرعة مواشي من قبل، إلّا أن صاحب المزرعة قال لفونتان بأنه لم يَرَ أي شخص من قبل يعمل في تلك المزرعة أفضل من ذلك الفتى. ثم يعود إلى البيت، ولا تطعمه أي شيء.

- لِمَ لا يطلقها؟.

- ليس لديه ما يكفي من النقود ليطلقها. إضافة إلى أنه مهووس بها.

- هل هي جميلة؟.

- هو يراها كذلك. حين أحضرها إلى البيت ظننتُ بأنني سأموت. إنه ولد طيب جداً ويشقى بالعمل طيلة الوقت ولا يلفّ ويدور ولا يثير أية متاعب. ثم يذهب أخيراً للعمل في حقول النفط ويعود بتلك الهندية التي كانت تزن حينذاك مائة وخمسة وثمانين رطلاً.

- هل هي هندية؟.

- إنها هندية حقاً. يا إلهي، نعم. وطيلة الوقت، تردد: إبن الكلبة، ولعنَه الله. وهي لا تشتغل.

- أين هي الآن؟.

- في دار عرض.

- أين ذلك؟.

- في دار عرض. سينما. كل ما تفعله هو القراءة والذهاب إلى دور العرض.

- ألديك المزيد من البيرة؟.

- يا إلهي، نعم بالتأكيد. تعال وتناول الطعام معنا الليلة.

- حسناً. ماذا يجب أن أحضر؟.

- لا تحضر شيئاً. لا شيء أبداً. ربما يحضر فونتان بعض النبيذ.

* * *

في تلك الليلة، تناولتُ العشاء في محل فونتان. أكلنا في غرفة الطعام وكان غطاء الطاولة نظيفاً. جَرّبنا النبيذ الجديد. كان خفيفاً جداً وصافياً وجيداً ولا يزال طعم العنب فيه. وكان يجلس إلى الطاولة فونتان وزوجته والولد الصغير أندريه.

سأل فونتان:

- ماذا فعلتَ اليوم؟.

كان رجلاً عجوزاً بجسم أنهكه العمل في المناجم، له شارب أشيب متهدل وعينان لامعتان، وكان من وسط فرنسا قرب سانت ايتيين.

- عملتُ بكتابي.

سألتِ السيدة فونتان :
ـ هل كتبك جيدة؟ .
وضَح فونتان لها قائلاً :
ـ هويعني بأنه يكتب كتاباً ككاتب. رواية.
سأل أندريه :
ـ بابا. أيمكنني الذهاب إلى دار العرض؟ .
قال فونتان :
ـ بالتأكيد.
التفت أندريه إليّ.
ـ كم ترى بأنني بلغتُ من العمر؟ أترى بأنني أبدو في الرابعة عشرة من عمري؟ .
كان ولداً صغيراً نحيلاً، غير أن وجهه بدا وكأنه في السادسة عشرة من عمره.
ـ تبدو في الرابعة عشرة.
ـ حين أذهب إلى دار العرض أجلس القرفصاء بهذه الطريقة وأحاول أن أبدو صغير السن.
كان صوته عالياً جداً ومتكسراً.
ـ إذا أعطيتهم ربع دولار يأخذونه كله، لكنني حين أُعطيهم خمسة عشر سنتاً فقط، يسمحون لي بالدخول.
قال فونتان :
ـ سأعطيك خمسة عشر سنتاً إذن.
ـ لا. أعطني ربعاً كاملاً. سأصرفه في الطريق.
قالت السيدة فونتان :
ـ يجب أن ترجع بسرعة بعد انتهاء العرض.
ـ سأرجع إلى البيت فوراً.
خرج أندريه من الباب. بدا الطقس يتحول إلى البرودة. ترك الباب مفتوحاً فدخلتْ نسمة باردة.
قالتْ السيدة فونتان :
ـ كُلْ. لم تأكل شيئاً.
كنتُ قد أكلتُ قطعتين من الدجاج والبطاطا المقلية بالطريقة الفرنسية وثلاثة أكواز من ذرة حلوة وبعض شرائح الخيار وطبقين من السَلَطة.
قال فونتان :

ـ ربما يريد بعض الكعك.

قالت السيدة فونتان:

ـ كان يجب أن أحضر بعض الكعك له. كُلْ جُبنة. كُلْ جُبنة. لم تأكل شيئاً. كان يجب أن أحضر كعكاً. يأكل الأمريكيون الكعك دائماً.

ـ أكلتُ جيداً.

ـ كُلْ. لم تأكل شيئاً. كُلْ هذه كلها. نحن لا نُبقي شيئاً على المائدة. كُلْ كُلَّ ما على الطاولة.

قال فونتان:

ـ كُلْ بعض السلطة.

قالتْ السيدة فونتان:

ـ سأحضر بعض البيرة. حين تعمل طيلة النهار في مصنع كتب فلا بد أن تشعر بالجوع.

قال فونتان:

ـ لم تفهم بأنك كاتب.

كان رجلاً عجوزاً كيّساً يعرف اللهجة العامية ويعرف الأغاني الشعبية التي كانت شائعة وقت خدمته العسكرية في نهاية تسعينات القرن التاسع عشر.

قال موضّحاً للسيدة فونتان:

ـ هو نفسه يكتب الكتب.

سألتْ السيدة فونتان:

ـ أنتَ نفسك تكتب الكتب؟.

ـ أحياناً.

قالت:

ـ آه. أوه. أنتَ نفسك تكتبها؟ أوه. حسناً. لا بد أنك تجوع لقيامك بهذا العمل أيضاً. كُلْ. سأبحث عن البيرة.

سمعناها تمشي على الدرج هابطة إلى القبو. ابتسم فونتان لي. كان متسامحاً مع الأشخاص الذين لم يمروا بتجاربه ولم يصلوا إلى المعرفة الدنيوية التي توصل إليها.

حين عاد أندريه إلى البيت من دار العرض، كنا ما نزال في المطبخ ونتحدث عن الصيد.

قالت السيدة فونتان:

ـ في عيد العمال، ذهبنا كلنا إلى كليَر كريك. يا إلٰهي، كان لا بد أن تذهب إلى هناك حقاً. ذهبنا كلنا في الشاحنة. ذهب الجميع في الشاحنة. ذهبنا يوم الأحد. كانت الشاحنة ملكاً لتشارلي.

قال فونتان:

ـ أكلنا وشربنا نبيذاً وبيرة، وكان معنا أيضاً رجل فرنسي جلب لنا معه شراب الابسينث. كان فرنسياً من كاليفورنيا.

ـ يا الله، لقد غنينا. كما حضر مزارع ليرى ما كان يجري فأعطيناه شيئاً ليشربه وبقي معنا لوهلة. وحضر بعض الايطاليين أيضاً وأرادوا البقاء معنا أيضاً. غَنّينا أغنية عن الايطاليين، لكنهم لم يفهموها. لم يفهموا بأننا لم نكن نريدهم بيننا، لكن، لم يكن بإمكاننا فعل شيء معهم، إلاّ أنهم ذهبوا بعد وهلة.

ـ كم سمكة اصطدتم؟.

ـ قليلاً جداً. قضينا وقتاً قصيراً نصطاد السمك، لكننا عدنا نغني مرة أخرى. غنينا كما تعرف.

قالت السيدة فونتان:

ـ وفي الليل، نامتْ كل النساء في الشاحنة ونام الرجل إلى جانب النار. وسمعتُ فونتان يخرج في الليل لاحضار بعض النبيذ فقلت له: «يا فونتان، أبقِ بعضها للغد. لن يكون لديهم شيء يشربونه في الغد وسيشعرون بالأسف».

قال فونتان:

ـ لكننا شربنا كل الشراب. ولم يبق شيء لليوم التالي:

ـ ماذا فعلتم؟.

ـ اصطدنا السمك بجد.

ـ سمكاً جيداً من نوع تروته. يا إلٰهي، نعم. كانت كلها متشابهة وتزن الواحدة نصف رطل وآونسة.

ـ كم تزن؟!.

ـ نصف رطل وآونسة واحدة. الوزن المناسب للأكل. كانت كلها بنفس الوزن، نصف رطل وآونسة واحدة.

سألني فونتان:

ـ كيف ترى أمريكا؟.

ـ إنها بلادي، كما تعرف. لذلك أحبها لأنها بلادي. غير أننا لم نأكل جيداً. في العام الماضي، نعم. لكن الآن، لا.

قالت السيدة فونتان :

ـ لا . لم تأكل جيداً.

هزّت رأسها . وتابعت :

ـ كان هناك الكثير من البولنديين أيضاً . عندما كنتُ صغيرة، قالتْ لي أمي : «أنت تأكلين كما يأكل البولنديين» . لم أكن أعرف أبداً من هو البولندي . لكنني الآن وفي أمريكا، أعرف من هو البولندي . يوجد هنا بولنديون كثيرون . يا إلهي ، كم هم قذرون! .

قلت :

ـ إنها بلاد رائعة لصيد الحيوانات والطيور والأسماك .

قال فونتان :

ـ نعم، وهذا هو أفضل ما في الحياة: الصيد والقنص. ما هو نوع البندقية التي لديك؟ .

ـ مضخّة، عيار اثنى عشر.

أومأ فونتان برأسه :

ـ إنها جيدة بندقية المضخة هذه .

قال أندريه بصوت الولد الصغير العالي :

ـ أريد أن أذهب إلى الصيد وحدي .

قال فونتان :

ـ لا تستطيع فعل هذا .

والتفت إليّ :

ـ إنهم متوحشون هؤلاء الأولاد، كما تعرف . إنهم متوحشون . إنهم يحبون اطلاق النار على بعضهم بعضاً.

قال أندريه بصوت حاد وهو مهتاج :

ـ أريد أن أطلق النار على جرذان الماء .

سألتُ :

ـ ما هي جرذان الماء؟ .

ـ لا تعرفها؟ من المؤكد بأنك تعرفها . ما يدعونها فئران المسك .

أخرج أندريه بندقية عيار اثنين وعشرين من الخزانة وأمسك بها بين يديه تحت النور.

قال فونتان موضحاً :

- هم متوحشون. إنهم يطلقون النار على بعضهم بعضاً.

قال أندريه بصوته الحاد:

- أريد أن أذهب لوحدي.

نظر بيأس إلى ماسورة البندقية.

- أريد أن أطلق النار على جرذان الماء. أعرف الكثير عن جرذان الماء.

قال فونتان:

- أعطني البندقية.

قال موضحاً لي ثانية:

- إنهم متوحشون. سيطلقون النار على بعضهم بعضاً.

أمسك أندريه بالبندقية بشدة:

- نريد أن نرى. لن نقوم بعمل شيء. نريد أن نرى.

قالت السيدة فونتان:

- إنه مهووس باطلاق النار. لكنه ما زال صغيراً جداً.

أرجع أندريه البندقية من عيار اثنين وعشرين إلى الخزانة.

قال باللغة الانجليزية:

- عندما أكبر، سأصطاد فئران المسك والأرانب الأمريكية أيضاً. في يوم ماء خرجتُ مع أبي فأطلق النار على أرنب أمريكي وأصابه إصابة طفيفة لكنني أصبته أنا إصابة مباشرة.

أومأت السيدة فونتان برأسها:

- هذا صحيح. لقد قتل أرنباً أمريكياً.

قال أندريه:

- لكنه أصابه أولاً. أريد الخروج وحدي والصيد وحدي. في السنة القادمة يمكنني فعل هذا.

اقترب من أحد الأركان وجلس ليقرأ كتاباً. رفعتُ الكتاب حين دخلنا عبر المطبخ لنجلس بعد العشاء. كان كتاباً مستعاراً من مكتبة عامة بعنوان: «فرانك في زورق حربي».

قالت السيدة فونتان:

- إنه يحب الكتب. وهذا أفضل من الجري من مكان إلى آخر ليلاً مع أولاد يكبرونه سناً ويقومون بسرقة الأشياء.

قال فونتان:

ـ الكتبُ جيدة. السيد يعمل بالكتب.

قالت السيدة فونتان:

ـ نعم. الأمر كذلك. لكن الكثير من الكتب أمر سيء. وهنا تعتبر الكتب مرضاً. مثل الكنائس. هنا الكثير من الكنائس. ليس في فرنسا غير الكاثوليك والبروتستانت، وقليل جداً من البروتستانت، ليس هنا غير الكنائس، حين حضرتُ إلى هنا قلت: يا إلٰهي، ما كل هذه الكنائس؟.

قال فونتان:

ـ هذا صحيح. هنا الكثير من الكنائس.

قالتْ السيدة فونتان:

ـ في أحد الأيام، حضرتْ فتاة فرنسية مع أمها، إبنة عم فونتان، وقالت لي: «ليس من المستحسن أن يكون الإنسان كاثوليكياً في أمريكا. ليس من المستحسن أن تكوني كاثوليكية. لا يحبّ الأمريكيون أن تكوني كاثوليكية. إن هذا مثل القانون الجاف». قلتُ لها: «ماذا ستكونين؟ هيه؟ يحسن أن تكوني كاثوليكية، إنْ كنتِ كاثوليكية». لكنها قالت: «لا. ليس الأمر حسناً أن تكوني كاثوليكية في أمريكا. لكنني أرى بأن من الأفضل أن تكون كاثوليكياً إنْ كنتَ كذلك. إن تغيير الدين ليس جيداً. يا إلٰهي، لا».

ـ أتذهبين إلى صلاة الأحد هنا؟.

ـ لا. لا أذهب إلى الصلاة في أمريكا. أذهب أحياناً فقط بين وقت وآخر وبعد مرور زمن طويل. لكنني لا أزال أدين بالكاثوليكية. ليس الأمر حسناً أن تغيّر دينك.

قال فونتان:

ـ يقال أن شميدت كاثوليكي.

قالت السيدة فونتان:

ـ يقال هذا، لكننا لا نعرف أبداً إنْ كان هذا صحيحاً. لا أعتقد بأن شميدت كاثوليكي. لا يوجد كثير من الكاثوليك في أمريكا.

قلت:

ـ نحن كاثوليكيين.

قالت السيدة فونتان:

ـ بالتأكيد. لكنكَ عشتَ في فرنسا. لا أعتقد بأن شميدت كاثوليكي. هل عاش في فرنسا؟.

قال فونتان:.

ـ البولنديون كاثوليكيون .
قالت السيدة فونتان :
ـ ذلك صحيح . يذهبون إلى الكنيسة ثم يتقاتلون بالسكاكين وهم في طريق عودتهم إلى بيوتهم ويقتلون بعضهم بعضاً طيلة يوم الأحد . لكنهم ليسوا كاثوليكيين حقيقيين . انهم كاثوليكيون بولنديون .
قال فونتان :
ـ كل الكاثوليك متشابهون . فكاثوليكي واحد مثل الآخر.
قالت السيدة فونتان :
ـ لا أصدق بأن شميدت كاثوليكي . ذلك أمر عجيب رهيب لو كان كاثوليكياً . أنا لا أعتقد هذا .
قلت :
ـ إنه كاثوليكي .
قالت السيدة فونتان وهي غارقة في التفكير:
ـ شميدت كاثوليكي . ما كنت لأصدق هذا . يا إلهي . إنه كاثوليكي ؟ .
قال فونتان :
ـ اذهبي يا ماري وابحثي عن بيرة ، فالسيد ظمآن وكذلك أنا .
قالت السيدة فونتان من الغرفة المجاورة :
ـ حسناً ، حالاً .
نزلتُ إلى الطابق السفلي وسمعنا صرير الدرج . جلس أندريه يقرأ في الركن . بينما جلستُ أنا وفونتان إلى الطاولة وصبّ البيرة في كأسينا من آخر قنينة تاركاً القليل في قعرها .
قال فونتان :
ـ هذه بلاد رائعة للصيد . أحب صيد البط كثيراً .
قلت :
ـ لكن في فرنسا صيد جيد جداً أيضاً .
قال فونتان :
ـ هذا صحيح . يوجد عندنا الكثيرَ جداً من الطرائد .
صعدت السيدة فونتان الدرج وقنينة البيرة في يديها . قالت : «إنه كاثوليكي يا إلهي . شميدت كاثوليكي» ! .
سأل فونتان :

- أترى بأنه سيصبح رئيساً للجمهورية؟.

قلت:

- لا.

* * *

بعد ظهر اليوم التالي، قدتُ السيارة إلى محل فونتان عبر ظلال المدينة ثم على الطريق المترب، دائراً على الطريق الجانبي، تاركاً إياها عند السياج. كان يوماً حاراً آخر. حضرتْ السيدة فونتان إلى الباب الخلفي. بدت كأنها السيدة سانتا كلوز، نظيفة ووردية الوجه وبيضاء الشعر، متهادية الخطى وهي تمشي.

قالت:

- يا إلهي. مرحباً. إنه يوم حار. يا إلهي.

عادت إلى داخل البيت لاحضار بعض البيرة. جلستُ في الشرفة الخلفية ونظرت من خلال الستار وأوراق الشجرة إلى الحرارة وإلى الجبال الواقعة بعيداً. كانت هناك جبال بنية اللون مثلّمة، وكانت فوقها ثلاث قمم ونهر جليدي يجري فيه ثلج بوسعك رؤيته من خلال الأشجار. بدا الثلج ناصع البياض وصافياً ولا واقعياً.. خرجت السيدة فونتان ووضعت القناني على الطاولة.

- ماذا ترى هناك؟.
- الثلج.
- شيء جميل الثلج.
- اشربي كأساً معي.
- حسناً.

جلستْ على كرسي إلى جانبي وقالتْ:

- شميدت، إن أصبح رئيساً للجمهورية فهل تعتقد بأننا سنحصل على البيرة والنبيذ؟.
- بالتأكيد. ثقي بشميدت.
- لقد دفعنا سبعمائة وخمسة وخمسين دولاراً كغرامات حين اعتقلوا فونتان. قبضتْ الشرطة علينا مرتين وقبضتْ الحكومات علينا مرة واحدة. كل المال الذي كسبناه طيلة عمل فونتان في المناجم وحينما كنت أقوم بالغسيل، دفعناها كلها. أدخلوا فونتان إلى السجن. إنه لم يؤذِ أحداً إطلاقاً.
- إنه رجل طيب. إنها جريمة.
- نحن لا نأخذ مبالغ كبيرة. دولاراً واحداً عن اللتر الواحد من النبيذ. وعشرة

سنتات مقابل قنينة البيرة. كما أننا لا نبيع البيرة قط إلّا بعد أن تصبح جيدة. ثمة محلات كثيرة تبيع البيرة بعد تخميرها مباشرة، لذلك فهي تصيب الكل بالصداع. ما الخطأ في ذلك؟ أدخلوا فونتان إلى السجن وأخذوا سبعمائة وخمسة وخمسين دولاراً.

قلتُ:

- إنه عمل شرير. أين فونتان؟.

- يبقى مع النبيذ الآن. لا بد أن يراقبه ليعرف لحظة تخمره.

ابتسمتْ. لم تعد تفكر بالمال.

- أنتَ تعرفه، إنه مهووس بالنبيذ. أحضر ليلة أمس قليلاً منه إلى البيت معه، ما شربتَه أنت، وقليلاً من النبيذ الجديد. آخر الجديد. ليس جاهزاً بعد لكنه شرب قليلاً منه، كما وضع قليلاً منه في قهوته هذا الصباح. في قهوته، كما تعرف. إنه مهووس بالنبيذ إنه هكذا. إن بلاده هكذا. لا يشرب الناس حيث أعيش في الشمال أي نبيذ. الكل يشرب البيرة هناك. حيث كنا نعيش، كان معمل تخمير كبير قريباً منا تماماً. وحين كنتُ فتاة صغيرة، لم أكن أحب رائحة حشيشة الدينار في العربات. ولا في الحقول. إنني لا أحب حشيشة الدينار. لا، يا إلهي، حتى ولا قليلاً. فطلب صاحب معمل التخمير مني ومن أختي أن نذهب إلى المعمل ونشرب البيرة، وبعد ذلك سنحب حشيشة الدينار. ذلك صحيح. بعدئذ أحببناها تماماً. لكن فونتان مهووس بالنبيذ. وكان قد قَتل في أحد الأيام أرنباً أمريكياً وطلب مني أن أطهوه مع الصلصة ومع النبيذ، أحضر صلصة سوداء مع النبيذ والزبدة والفطر والبصل وكل شيء فيها لتوضع مع الأرنب الأمريكي. يا إلهي، عملتُ صلصة جيدة، وأكلها كلها وقال: «الصلصة أطيب من الأرنب الأمريكي». الحياة في بلاده هكذا. هناك الكثير من الطرائد والنبيذ. لكنني أحب البطاطا والسجق* والبيرة. إن البيرة لذيذة. إنها مفيدة جداً للصحة.

قلت:

- إنها جيدة هي والنبيذ أيضاً.

- أنتَ مثل فونتان. لكن ثمة شيئاً هنا لم أرَله مثيلاً قط. لا أظن بأنك رأيته أنتَ كذلك. فهناك أمريكيون يأتون إلى هنا ويصبّون ويسكي في البيرة.

قلت:

- لا.

* السجق النقانق الكبيرة. (المترجم).

ـ نعم. يا إلٰهي، ذلك صحيح. وهناك أيضاً امرأة تقيّأت على الطاولة.
ـ كيف؟.
ـ هذا صحيح. تقيّأت على الطاولة. وبعد ذلك تقيّأت في حذائها. وبعد ذلك، رجعوا وقالوا بأنهم يريدون الحضور مرة أخرى ليقيموا حفلة أخرى في الأحد القادم. فقلت لهم: لا. وحين أتوا، أقفلتُ الباب.
ـ إنهم سيئون حين يسكرون.
ـ في الشتاء، وحين يذهب الفتيان للرقص، يأتون في سياراتهم وينتظرون في الخارج ويقولون لفونتان: «هيه يا سام، بعْ لنا قنينة نبيذ». أو يشترون البيرة، ثم يخرجون ويسكي من قنينة في جيوبهم ويصبونه في البيرة ويشربونها. يا إلٰهي، كان ذلك أول مرة أرى فيها مثل هذا في حياتي. يضعون الويسكي في البيرة؟ يا إلٰهي، أنا لا أفهم ذلك.
ـ يريدون أن يصابوا بالغثيان، وهكذا يعرفون بأنهم سكرى.
ـ حضر شخص ذات مرة هنا وطلب مني إعداد عشاء ضخم له ولأصدقائه، وقال بأنهم سيشربون قنينة أو قنينتين من النبيذ، وستأتي فتياتهم أيضاً ثم سيرقصون. قلت: ليكن. فأعددتُ عشاء ضخماً، وحين حضروا كانوا قد شربوا الكثير. ثم أخذوا يصبون الويسكي في النبيذ. يا إلٰهي، نعم. قلت لفونتان: «ستمرض الفتيات»، قال: «نعم». ثم تقيّأت هذه الفتيات، فتيات جميلات حقاً، فتيات لا بأس بهن. حاول فونتان قيادتهن من أذرعهن ليريهن أين يمكنهن التقيؤ في المرحاض. لكن الفتيان قالوا: لا، فالتقيؤ على الطاولة لا بأس به!.
ودخل فونتان، لكنها تابعت:
ـ حين عادوا ثانية، أقفلتُ الباب. قلت: «لا، ولا مقابل مائة وخمسين دولاراً». يا إلٰهي، لا.
قال فونتان:
ـ هناك كلمة بالفرنسية عن مثل هؤلاء الناس حين يتصرفون على ذلك النحو.
نهض واقفاً وقد بدا بالغ الكبر وتعباً من الحرارة.
ـ ما هي؟.
قال برقة:
ـ cochon كوشو*.
وتردد في استعمال كلمة قوية كهذه.

* بالفرنسية في الأصل وتعني: خنزير. (المترجم).

ـ كانوا كالخنازير.

إعتذر عن قوله:

ـ إنها كلمة قوية جداً. لكن التقيؤ على الطاولة . .

وهزَّ رأسه بحزن.

قلت:

ـ خنازير. هم كذلك ـ خنازير. قذرون.

كانت خشونة الكلمات مؤذية لفونتان. كان مسروراً أن يتكلم عن موضوع آخر.

ـ هناك أشخاص لطيفون جداً جداً وحسّاسون جداً من بين الذين حضروا أيضاً. هناك ضباط من الحصن. رجال لطفاء جداً. رجال طيبون. كل مَنْ كان في فرنسا يريد أن يحضر ويشرب النبيذ. انهم يحبون النبيذ حقاً.

قالت السيدة فونتان:

ـ كان هناك رجل واحد، ولم تكن زوجته تسمح له بالخروج إطلاقاً. لذلك كان يخبرها بأنه تعب، فيمضي إلى السرير، وحين كانت تذهب إلى دار العرض، كان ينزل إلى هنا مباشرة، وفي منامته في بعض الأحيان ملفوفاً بمعطف فوقها. كان يقول: «ماريا، بعض البيرة، لأجل الله». كان يجلس وهو في منامته ويشرب البيرة، ثم يذهب إلى الحصن ويعود إلى السرير قبل أن تعود زوجته إلى البيت من دار العرض.

قال فونتان:

ـ إنه أصيل، لكنه لطيف حقاً. إنه شخص لطيف.

قالت السيدة فونتان:

ـ يا إلهي، نعم، شخص لطيف حقاً. ويكون دائماً في السرير حين تعود زوجته من دار العرض.

قلت:

ـ لا بد أن أذهب غداً إلى Crow Reservation كراو ريزيرفيشين. سنذهب إلى هناك لافتتاح موسم صيد دجاج البراري.

ـ نعم؟ ستعود إلى هنا قبل أن تسافر. ستعود إلى هنا حقاً؟.

ـ طبعاً.

قال فونتان:

ـ سيكون النبيذ جاهزاً. سنشرب قنينة معاً.

قالت السيدة فونتان :

ـ ثلاث قناني .

قلت :

ـ سأعود .

قالت السيدة فونتان :

ـ نحن نعتمد عليك .

قلت :

ـ تصبحان على خير .

* * *

وصلنا في ساعة مبكرة من بعد الظهر من رحلة الصيد . فقد نهضنا في الخامسة صباحاً . وكنا قد اصطدنا جيداً في اليوم السابق ، لكننا لم نَر دجاجاً بريّاً في ذلك الصباح . وكنا نحس بالحرارة الشديدة ونحن في السيارة المكشوفة كما توقفنا لتناول غدائنا بعيداً عن الشمس تحت شجرة إلى جانب الطريق . كانت الشمس عالية وبقعة الظل صغيرة جداً . أكلنا بعض الشطائر وخُبيزات هشّة مع شطيرة محشوة عليها ، وكنا عطشى وتعبين فاحسسنا بالسرور حين إنتهينا أخيراً وعدنا إلى الطريق الرئيسي للرجوع إلى المدينة . وصلنا إلى مدينة كلاب بريّة فأوقفنا السيارة وأطلقنا النار على الكلاب البريّة من المسدسات . أصبنا اثنين لكننا كففنا عن إطلاق النار لأن الطلقات التي أخطأت هدفها طاشت مبتعدةً عن الصخور والقاذورات وغنت مبتعدة عبر الحقول ، كما كانت وراء الحقول بعض الأشجار ممتدة على طول مجرى ماء حيث كان هناك بيت ، فخشينا أن نثير المتاعب من الطلقات الطائشة المتجهة إلى البيت . لذلك واصلنا قيادة السيارة ، وأخيراً سرنا على الطريق المنحدر إلى الأسفل نحو بيوت المدينة النائية . كان بوسعنا أن نرى الجبال عبر السهل . كانت زرقاء في ذلك اليوم ، بينما كانت الثلوج تلمع كالزجاج على الجبال العالية . كان الصيف على وشك الانتهاء ، لكن الثلج الجديد لم يبق على الجبال العالية بل بقي هناك فقط الثلج والجليد القديمين اللذين أذابتهما الشمس ، فلمعا لمعاناً ساطعاً جداً ومن مسافة بعيدة جداً .

رغبنا في بعض البرودة والظل . فقد أحرقتنا الشمس وشقّقت هي والغبار القلوي شفاهنا . دُرنا إلى الطريق الجانبي نحو محل فونتان ، وأوقفنا السيارة خارج البيت ودخلنا . كان داخل غرفة الطعام نديّاً . وكانت السيدة فونتان وحيدة .

قالت :

ـ لدينا قنينتان من البيرة فقط. كلها نفدتّ. البيرة الجديدة ليستّ جيدة.
أعطيتها بعضَ الطيور.
قالت:
ذلك حسن. حسن. شكراً. ذلك حسن.
خرجتْ لتضع الطيور في مكان بارد. حين أنهينا البيرة نهضتُ واقفاً.
قلت:
ـ لا بد أن نذهب.
ـ تعود هذه الليلة حقاً؟ سيحضر فونتان النبيذ.
ـ سنعود إلى هنا قبل أن نسافر.
ـ ستسافران؟.
ـ نعم. لا بد أن نسافر في الصباح.
ـ من السيء أن تسافرا. تعالَ الليلة. سيحضر فونتان النبيذ. سنقيم احتفالاً قبل أن تسافرا.
ـ سنأتي قبل أن نسافر.

لكن، كانت لدينا بعدَ ظهر ذلك اليوم برقيات لا بد من إرسالها، وكان لا بد من اصلاح السيارة ـ فقد قطع حجر أحد إطاراتها وكان لا بد من إصلاحه ـ فاضطررت إلى التنقل داخل المدينة سيراً على الأقدام لانجاز أمور كان يجب إنجازها قبل سفرنا. فشعرت بالتعب الشديد حين حلّ وقت الغداء فلم أستطع الخروج. كما لم نكن نرغب في سماع لغة أجنبية. وكان كل ما نرغب فيه هو النوم مبكرين.

وفيما كنتُ مستلقياً على السرير قبل أن أنام، وبينما كان متاع الصيف كله مكوَّماً حولنا جاهزاً لحزمه، والنوافذ مفتوحة والهواء البارد يهب من الجبال على الغرفة، فكرتُ أنَّ من المخجل أنني لم أذهب إلى فونتان ـ لكنني سرعان ما استغرقتُ في النوم بعد وهلة. وانشغلنا في اليوم التالي وطيلة الصباح بحزم الأمتعة وإنهاء الصيف. وتناولنا الغداء واستعددنا للانطلاق في الساعة الثانية.

قلت:
ـ لا بد أن نذهب ونودع أسرة فونتان:
ـ نعم، لا بد من ذلك.
ـ أخشى أنهم انتظرونا الليلة الماضية.
ـ أعتقد بأننا كان بوسعنا الذهاب.

- يا ليتنا ذهبنا.

ودعنا الرجل الجالس إلى المكتب في الفندق وودعنا Larry لاري وأصدقاءنا الآخرين في المدينة ثم قدنا السيارة نحو محل فونتان. كانت السيدة والسيد هناك. سُرّا سروراً عظيماً لرؤيتنا. بدا فونتان عجوزاً وتَعِباً.

قالت السيدة فونتان:

- ظننا بأنكم كنتما ستأتيان ليلة البارحة. كان لدى فونتان ثلاث قناني من النبيذ. حين لم تأتيا، شربها كلها.

- نستطيع البقاء دقيقة فقط. جئنا لنودعكما فقط. أردنا الحضور ليلة أمس. اعتزمنا الحضور، لكننا كنا تعبين جداً بعد الرحلة.

قال فونتان:

- إذهبي واحضري بعض النبيذ.

- ليس ثمة نبيذ، لقد شربتَه كله.

بدا فونتان منزعجاً جداً.

قال:

- سأذهب لاحضار بعض النبيذ. سأغيب بضع دقائق. لقد شربته كله ليلة أمس. لقد أحضرناه لكما.

قالت السيدة فونتان:

- كنتُ أعرف بأنكما تعبان. قلت: «يا إلٰهي. إنهما تعبان جداً حتى أنهما لن يستطيعا الحضور». إذهب واحضرِ بعض النبيذ يا فونتان.

قلت:

- سآخذك معي في السيارة.

قال فونتان:

- حسن، بهذه الطريقة نصل بسرعة.

سرنا بالسيارة على الطريق ودرنا إلى شارع جانبي على بعد حوالي ميل.

قال فونتان:

- ستحبُ ذلك النبيذ. لقد طلع جيداً. يمكننا شربه للعشاء هذه الليلة.

توقفنا أمام منزل خشبيّ. طرق فونتان الباب. لم يكن ثمة جواب. دُرنا حول المنزل إلى الخلف. كان الباب الخلفي مقفولاً أيضاً. كما كانت تتناثر علب صفيح فارغة حول الباب الخلفي. نظرنا من النافذة. لم يكن في الداخل أحد. كان المطبخ وسخاً وزلقاً، لكن الأبواب والنوافذ كلها كانت مقفلة باحكام.

قال فونتان:
ـ إبنة الكلبة تلك. أين خرجت؟.
كان بائساً.
قال:
ـ أعرف أين أجد مفتاحاً. ابقيا هنا.
رأيته يتجه نحو المنزل التالي أسفل الطريق، طرق الباب وتكلم مع امرأة خرجت منه، وأخيراً عاد. كان معه مفتاح. جرّبناه على الباب الأمامي ثم الخلفي، لكنه لم يعمل.
قال فونتان:
ـ إبنة الكلبة تلك، لقد ذهبت إلى مكان ما.
وكان بوسعي أن أرى، بالنظر من النافذة، المكانَ الذي خُزن فيه النبيذ. وكان بوسعك وأنت لصق النافذة شمّ داخل المنزل. فقد كانت تنبعث منه رائحة لذيذة ومثيرة للغثيان قليلاً كمنزل هنود. أمسك فونتان بلوح خشب محلول فجأة ثم أخذ يحفر في الأرض إلى جانب الباب الخلفي.
قال:
ـ يمكنني الدخول. إبنة الكلبة، يمكنني الدخول.
كان في فناء البيت المجاور الخلفي رجل يصلح احدى العجلتين الأماميتين في سيارة فورد قديمة.
قلت:
ـ يحسن ألّا تفعل هذا. سيراك ذلك الرجل. إنه يراقب.
انتصب فونتان واقفاً وقال:
ـ سنجرب المفتاح مرة أخرى.
جرّبنا المفتاح لكنه لم يفتح. دار نصف دورة في كل من الاتجاهين.
قلت:
ـ لن نستطيع الدخول. يحسن أن نعود.
عرض فونتان رأيه.
ـ سأحفر تحت الباب الخلفي.
ـ لا. لن أدعك تجرب هذا.
ـ سأفعل هذا.
قلت:

ـ سيراك ذلك الرجل فيقبضون عليك.

عدنا إلى السيارة وقدتها عائدين إلى بيت فونتان بعد أن توقفنا في الطريق لنرجع المفتاح إلى صاحبته. لم يقل فونتان شيئاً سوى إطلاق الشتائم بالانجليزية. أصبح غير متماسك ومحطماً. دخلنا إلى بيت فونتان.

قال:

ـ إبنة الكلبة تلك. لم نستطع الحصول على النبيذ. نبيذي الذي صنعته.

إمحّتْ كل السعادة عن وجه السيدة فونتان. جلس فونتان في ركن ورأسه بين يديه.

قلت:

ـ لا بد أن نسافر. لن يشكّل النبيذ أي فرق. إشربا نخبنا حين نسافر.

قالت السيدة فونتان:

ـ أين ذهبُت تلك المجنونة؟.

قال فونتان:

ـ لا أعرف. لا أعرف أين ذهبتْ. والآن ستذهبان بلا أي نبيذ.

قلت:

ـ ذلك حسن.

قالت السيدة فونتان:

ـ ذلك ليس حسناً.

وهزّتْ رأسها.

قلت:

ـ لا بد أن نذهب. مع السلامة وحظاً سعيداً. نشكركما على الأوقات السعيدة.

هز فونتان رأسه. كان يشعر بالخزي. بدت السيدة فونتان حزينة.

قلت:

ـ لا تستاءا بسبب النبيذ.

قالت السيدة فونتان:

ـ أرادكما أن تشربا نبيذه. بوسعكما العودة في السنة القادمة.

ـ لا. ربما في السنة التالية لها.

قال فونتان لها:

ـ أرأيتِ؟.

قلت:

ـ وداعاً. لا تفكرا بالنبيذ. إشربا بعضه نخبنا بعد ذهابنا.

هزّ فونتان رأسه. لم يبتسم. فهو يعرف متى يكون محطماً.

قال فونتان لنفسه:

ـ إبنة الكلبة تلك!.

قالت السيدة فونتان محاولة تعزيته:

ـ كانت لديه ثلاث قناني ليلة أمس.

هزّ رأسه.

قلت:

ـ مع السلامة.

ترقرقت دموع في عينّي السيدة فونتان.

قالتْ:

ـ مع السلامة.

أحسست بالأسف لفونتان.

قلنا:

ـ مع السلامة.

كنا كلنا مستائين جداً. كانا يقفان في فتحة الباب حين ركبنا السيارة وشغّلت المحرك. لوحنا لهما. ظلا يقفان معاً وهما حزينان في شرفة المدخل، كما بدا فونتان هرماً وبدت السيدة فونتان حزينة. لوّحت لنا ثم دخل فونتان البيت. درنا لنسير على الطريق.

ـ انهما مستاءان جداً. وفونتان في حالة مريعة.

ـ كان يجب أن نذهب إليهما ليلة أمس.

ـ نعم. كان يجب أن نذهب.

سرنا عبر المدينة وانطلقنا سائرين على طريق ممهد لنخرج منها، وكانت على جانبي الطريق جذامات حبوب الحقول بينما كانت الجبال تمتد إلى اليمين. بدت كأنها أرض اسبانية، لكنها كانت وايومينج.

ـ آمل أن يحالفهما حظ طيب.

قلت:

ـ لن يتحقق هذا، ولن يصبح شميدث رئيساً للجمهورية.

انتهت الطريق الاسمنتية. وأصبح الطريق مرصوفاً بالحصى الآن ثم غادرنا السهل وشرعنا نصعد بين سفحيّ تلّيْن، ثم تلّوى الطريق وأخذنا نصعد. كانت تربة

التلال حمراء بينما كانت المريمية تنمو على شكل أجمات رمادية، وكان بوسعنا أن نرى ما امتـد عبـر التـلال ومـا وراء سهل الوادي في اتجاه الجبال. وكانت تقع على مسافة أبعد الآن. فبدت أكثر شبهاً باسبانيا منها في أي وقت آخر، وانعطف الطريق وصعـد ثانيـة، فرأينا أمامنا بعض طيور الطيهوج تثير الغبار في الطريق. طارت حين اقتـربنـا منها، وأجنحتها تصطفق بسرعة، ثم طارت بانحدارات طويلة وحطَّتْ على سفح التل تحتنا.

- إنها كبيرة جداً وجميلة. إنها أكبر من طيور الحجل الأوروبية.
- يقول فونتان: إنها بلاد رائعة للصيد.
- وحين ينتهي الصيد.
- سيكونان قد ماتا حينذاك.
- لن يموت الولد.

قلت:

- ليس ثمة ما يبرهن على أنه لن يموت.
- كان يجب أن نذهب إليهما ليلة أمس.

قلت:

- أوه. نعم، كان يجب أن نذهب إليهما.

المقامر والراهبة والمذياع

احضـروهمـا في حوالي منتصف الليـل، فسمع الكل على طول الممر، ومنذ ذلك الوقت وطوال الليل، الروسيّ يصرخ:

سأل فرايزر ممرضة الليل:

ـ أين أُصيب؟.

ـ في الفخذ، على ما أظن؟.

ـ ماذا بشأن الشخص الآخر؟.

ـ أوه. سيموت على ما أخشى.

ـ أين أُصيب؟.

ـ مرتان في البطن. وقد وجدوا واحدة من الرصاصتين فقط.

كان كلاهمـا عامليّ شمنـدر، مكسيكيّ وروسي، وكـانـا يجلسـان ويشربان القهوة في مطعم مفتوح طوال الليل، حين دخل شخص من الباب وبدأ يُطلق النار على المكسيكي. فزحف الروسي تحت طاولة، إلّا أن رصاصة طائشة أُطلقت على المكسيكي الملقى على الأرض المصاب برصاصتين إلى بطنه أصابته أخيراً. ذلك ما ذكرته الجريدة.

وأخبـر المكسيكيّ الشـرطـة بأنْ ليس لديه أية فكرة عن الشخص الذي أطلق عليه النار. واعتقدَ بأنه حادث عرضي.

ـ حادة عرضي يُطلق عليك فيه ثماني طلقات ويصيبك باثنتين، هناك؟.

قال المكسيكي الذي كان يحمل اسم كاييتانو رويز.

ـ *Si, senór.

قال للمترجم:

ـ كان ما أصابني حادث، أيها السيد،

سأل رقيب الشرطة السرية وهو ينظر إلى الجانب الآخر من السرير إلى المترجم:

ـ ماذا قال؟.

ـ قال بأنه كان حادثاً.

قال الشرطي السري:

* بالاسبانية في الأصل وتعني: نعم يا سيد. (المترجم).

- أخبره بأن يقول الحق، وبأنه سيموت.
قال كاييتانو:
- لا. قُل له بأنني مريض جداً وأُفضّل ألاّ أتكلم كثيراً.
قال المترجم:
- يقول بأنه يقول الحق.
ثم تكلم شخصياً إلى الشرطي السري.
- هو لا يعرف مَنْ الذي أطلق عليه النار. لقد أطلقوا عليه النار من الخلف.
قال الشرطي السري:
- نعم. أفهم ذلك، لكن، لماذا أصابته كل الرصاصات من الأمام؟.
قال المترجم:
- ربما كان قد دار حول نفسه بسرعة.
قال الشرطي السريّ وهو يكاد يهز أصبعه على أنف كاييتانو، الذي برز أصفر شمعياً من وجهه الميت الذي كانت فيه عيناه حيّتين كعينيّ صقر.
- اسمع، أنا لا يهمني أبداً مَنْ أطلق عليك النار، لكنني لا بد أن أُنهي هذا. ألا تريد أن يُعاقَب الرجل الذي أطلق عليك النار؟.
قال للمترجم:
- أخبِرْه بهذا.
- يقول لي بأن لا بد أن تخبره عَمَّنْ أطلق عليك النار.
قال كاييتانو الذي كان تعباً جداً:
- Mandarlo al carajo.
قال المترجم:
- قال بأنه لم يَر الشخص قط. أخبرك بصدق بأنهم أطلقوا عليه النار من الخلف.
- إسأله مَنْ أطلق النار على الروسي.
قال كاييتانو:
- الروسيّ المسكين، كان على الأرض وذراعاه تحيطان برأسه. بدأ يطلق صرخات هستيرية حين أطلقوا النار عليه وظلّ يُطلق الصرخات منذ تلك اللحظة. يا للروسي المسكين.
- يقول بأنه كان شخصاً لا يعرفه. قد يكون نفس الشخص الذي أطلق عليه النار.
قال الشرطي السري:
- اسمع. هذه ليست مدينة تشيكاجو. وأنتَ لستَ رجل عصابات. يجب ألاّ

تتصرف كما لو كنتَ تمثل في فيلم سينمائي. من الصواب أن تخبرنا عن الذي أطلق عليك النار. أي شخص سيخبر عن الشخص الذي يطلق عليه النار. ذلك أمر من الصحيح فعله. لنفرض أنك لم تخبر عنه وأطلق بعدئذ النار على شخص آخر. لنفرض أنه سيطلق النار على امرأة أو طفل. لا يمكنك تركه يهرب مع ذلك.

قال للسيد فرايزر:

- قل له هذا. أنا لا أثق بذلك المترجم اللعين.

قال المترجم:

- أنا شخص يُعتمد عليه.

نظر كاييتانو على السيد فرايزر.

قال فريزر:

- اسمع amigo*. يقول الشرطي بأننا لسنا في تشيكاجو لكننا في هايلي في مونتانا. وأنتَ لستَ رجل عصابات والأمر لا يمت إلى السينما بصلة.

قال كاييتانو بلطف:

- أصدقه. Yo lo creo

- يستطيع الإنسان أن يبلّغ عن الذي يهاجمه بشرف. الكل يفعل هذا هنا، كما يقول. هو يقول: ماذا يحدث إذا أطلق هذا الرجل النار على امرأة أو طفل بعدما أطلق النار عليك؟.

قال كاييتانو:

- أنا لستُ متزوجاً.

- إنه يقول: أية امرأة وأي طفل.

قال كاييتانو:

- الرجل ليس مخبولاً.

أنهى السيد فرايزر كلامه.

- يقول بأن عليك أن تبلّغ عنه.

قال كاييتانو:

- أشكرك. أنتَ أحد المترجمين العظام. أنا أتكلم الانجليزية، لكن على نحو سيء. أنا أفهمها فهماً حسناً. كيفَ كسرتَ رجلك؟.

- سقوط عن حصان.

- يا له من حظ سيء. أنا آسف جداً. أتؤلمك كثيراً؟.

* بالاسبانية في الأصل وتعني: صديق، أي يا صاح. (المترجم).

- ليس الآن. في بادىء الأمر، نعم.

قال كاييتانو:

- إسمع amigo. أنا ضعيف جداً. ستعذرني. أنا أعاني من ألم شديد أيضاً، ما يكفي من الألم. من المحتمل جداً أن أموت. أرجوك أن تخرج الشرطي من هنا لأنني تعب جداً.

تحرَّك كما لو كان سينقلب إلى الجانب الآخر، ثم تماسك وبقي ساكناً.

قال السيد فرايزر:

- أخبرتُه بكل شيء كما قلتُه بالضبط وطلب مني أن أخبرك بأنه لا يعرف مَنْ أطلق عليه النار حقاً وبأنه ضعيف جداً ويتمنى لو تحقق معه فيما بعد.

- ربما يكون ميّتاً فيما بعد.

- ذلك ممكن جداً.

- لذلك أردتُ أن أحقق معه الآن.

قال المترجم:

- أقول لك بأن شخصاً أطلق عليه النار من الخلف.

قال الشرطي السري:

- أوه. لأجل المسيح.

ووضع كراس الملاحظات في جيبه.

* * *

كان الرقيب السري يقف في الممر مع المترجم إلى جانب كرسي السيد فرايزر المتحرك.

- أظن بأنك تصدّق أنتَ أيضاً بأن شخصاً أطلق عليه النار من الخلف؟.

قال فرايزر:

- نعم. شخص أطلق النار عليه من الخلف. ماذا يهمك من هذا كله؟.

قال الرقيب:

- لا تزعل. ليتني أستطيع أن أتكلم الاسبانية.

- لِمَ لا تتعلم؟.

- يجب ألّا تستاء. لا يُمتعنّي إستجواب ذلك الاسباني قط. لو كنتُ أستطيع أن أتكلم الاسبانية لاختلف الأمر.

قال المترجم:

- لستَ بحاجة إلى أن تتكلم الاسبانية. أنا مترجم يُعتمد عليه تماماً.

قال الرقيب:

ـ أوه. من أجل المسيح. حسناً، إلى اللقاء سأحضر لأراك.

ـ شكراً. أنا في الداخل دائماً.

ـ أظن بأنك بخير. كان ذلك من سوء الطالع حقاً. الكثير من سوء الحظ.

ـ تحسّنتْ رجلي الآن منذ أن رُبط العظم.

ـ لكن ذلك استغرق وقتاً طويلاً. وقت طويل، طويل.

ـ لا تدع أي شخص يطلق النار على ظهرك.

قال:

ـ ذلك صحيح. ذلك صحيح. حسناً، أنا سعيد بأنك غير مستاء.

قال السيد فرايزر:

ـ إلى اللقاء.

لم ير السيد فرايزر كاييتانو ثانية خلال مدة طويلة، لكن الأخت سيسليا كانت تُحضر أخباراً عنه كل صباح. قالت بأنه كان عديم الشكوى وأصبح في حال سيئة جداً الآن. فقد أصيب بالتهاب الصفاق وأعتقدوا بأنه لن يعيش. قالت الأخت سيسليا: يا لكاييتانو المسكين. لديه يدان جميلتان ووجه جميل وهو لا يشكو أبداً. كانت الرائحة الآن رهيبة حقاً. قالت: كان يشير إلى أنفه بأحد أصابعه ويبتسم ويهز رأسه. إنه منزعج من الرائحة. قالت الأخت سيسليا: إنها تحرجه. أوه إنه مريض رائع. كان يبتسم دائماً. لم يكن ليذهب إلى الاعتراف أمام القسيس لكنه وعد بأن يصلي، ولم يكن يزوره أي شخص مكسيكي منذ أن أُدخل المستشفى. كان الروسي سيخرج في نهاية الأسبوع. وقالت الأخت سيسليا: لم أحسّ بأي ميل نحو الروسي. يا للرجل المسكين، لقد قاسى هو أيضاً. لقد كانت رصاصة مشحّمة وقذرة وقد تلوّث الجرح، لكنه يثير ضجة كبيرة جداً وأنا أُحب المرضى الذين حالتهم خطيرة. كاييتانو ذلك، مريض مرضاً خطيراً، أوه لا بد أنه مريض مرضاً خطيراً حقاً، خطيراً بدرجة كبيرة، إنه مهذّب ورقيق البنيان، ولم يقم بأي عمل يدوي أبداً. إنه ليس عامل شمندر. أنا أعرف بأنه ليس عامل شمندر. يداه ناعمتان جداً وليس فيهما جسآت*. أنا أعرف بأنه شخص سيء من نوع ما. سأذهب إلى الكنيسة لأصلي من أجله. مسكين كاييتانو، لقد أمضى وقتاً رهيباً ولم يُصدر أي صوت. ما الذي دعاهم لاطلاق النار عليه؟ أوه، كاييتانو المسكين! سأذهب الآن وأصلي من أجله.

*الجسأت: البقع الجلدية المتصلّبة. (المترجم).

وذهبتْ إلى الكنيسة وصلَّتْ من أجله.

* * *

لا يعمل جهاز المذياع جيداً في ذلك المستشفى إلاّ وقت الغسق. قالوا بأن هذا راجع إلى وجود الكثير من المواد الخام في الأرض أو إلى شيء متعلق بالجبال، إلاّ أنه لم يكن يعمل جيداً، على أية حال إلاّ بعد أن يبدأ الظلام بالهبوط في الخارج، لكنه كان يعمل جيداً طوال الليل، وكان بوسعك أن تسير إلى مسافة أبعد إلى الغرب وتلتقط محطة أخرى حين تتوقف محطة من المحطات. وكانتْ آخر محطة تستطيع أن تصل إليها هي سيتل، في واشنطون، فحين يشيرون إلى انقطاع الارسال في الساعة الرابعة صباحاً تكون الساعة الخامسة صباحاً في المستشفى وذلك نتيجة للفرق في التوقيت، وفي الساعة السادسة تستطيع التقاط صخب وقصف الساهرين في مينيا بوليس. وكان ذلك نتيجة للفرق في الوقت أيضاً. وقد اعتاد السيد فرايز على أن يفكر في الساهرين حتى الصباح وهم يصلون إلى الاستوديو ويتصور كيف يبدون وهم يخرجون من سيارة أجرة قبل طلوع نور النهار في الصباح وهم يحملون آلاتهم الموسيقية. قد يكون ذلك خطأ فيبقون آلاتهم في المكان الذي يسهرون فيه، لكنه كان يتصورهم دائماً مع آلاتهم الموسيقية. إنه لم يزر مينيا بوليس واعتقد بأنه ربما لن يذهب إلى هناك أبداً، لكنه كان يعرف كيف تبدو في ذلك الصباح الباكر.

وكان بوسعك أن ترى خارج نافذة المستشفى حقلاً بحشائش متداعية تبرز من تحت الثلج، وهضبة صلصالية جرداء شديدة الانحدار. وقد رغب الطبيب في أن يرى السيد فرايزر في صباح أحد الأيام طائريْ تدرج كانا في الثلج، وحين سحب السرير نحو النافذة، سقط مصباح القراءة عن حديد إطار السرير وضرب رأس فرايزر. لا يبدو هذا مضحكاً الآن كما كان كذلك حينذاك، فقد كان الجميع ينظرون من خلال النافذة، وكان الطبيب الذي كان أمهر الأطباء، يشير إلى طيور التدرج ويسحب السرير نحو النافذة حين سقطتْ قاعدة المصباح الرصاصية فجأة على السيد فرايزر وصرعته بعد أن ضربت قمة رأسه. بدا هذا نقيضاً للعلاج أو للغرض الذي يدخل الناس المستشفى من أجله، واعتقد الكل بأن الأمر كان مضحكاً جداً كنكتة ضد السيد فرايزر والطبيب. فكل شيء يجري ببساطة أكثر من المستشفى، بما في هذا النكت.

وبوسعك أن ترى المدينة من خلال النافذة الأخرى إنْ أُدير سريرك. ويكون قد تجمَّع فوقها دخان ضعيف، وترى جبال داوسون الشبيهة بجبال حقيقيّة مكسوة

بثلج الشتاء. ذلكما كانا المنظرين اللذين يمكن مشاهدتهما من هناك لأنّ الكرسي المتحرك لا ينتقل إلى أماكن أخرى. يحسن حقاً أن تبقى في سريرك إنْ كنتَ في مستشفى، فرؤ يتك منظرين من غرفة تتحكم بدرجة حرارتها ولمدة كافية من الزمن لإمعان النظر فيهما أفضل بكثير من رؤ يتك أي عدد من المناظر تشاهدها لبضع دقائق من غرف خاوية حارة تنتظر شخصاً آخر أو كانت قد أُخليت منذ لحظات وتُدفع إلى داخلها وإلى خارجها وأنتَ على كرسيِّك المتحرك. وإذا بقيتَ مدة كافية في غرفة، يكتسب المنظر، مهما تكن طبيعته، قيمة عظيمة ويصبح مهماً جداً ولن تغيِّره حتى حين تنظر إليه من زاوية مختلفة. هناك أشياء معيَّنة، تصبح مغرماً بها، كما هو الحال مع المذياع، فترحب بها وتستاء من الأشياء الجديدة. وكانت الألحان الأكثر رواجاً في ذلك الشتاء: «غنِّ شيئاً بسيطاً» و«الفتاة رتيبة النغم» و«أكاذيب بيضاء صغيرة». لم تكن ثمن ألحان أخرى مرضية مثلها، حسبما رأى السيد فرايزر. وكان لحن: «تلميذة صغيرة في مدرسة مختلطة» لحناً جميلاً أيضاً، لكن محاكاة الكلمات الساخرة التي خطرتْ في بال السيد فرايزر على نحو حتمي أصبحت فاحشة باطراد وعلى نحو متزايد حتى لم يعد أحد يتذوقها، فهجرها أخيراً وترك الأغنية تعود إلى كرة القدم.

في الساعة التاسعة صباحاً، يبدأون بتشغل جهاز أشعة «س» فيصبح المذياع، الذي لم يكن يلتقط سوى هايلي حينذاك، عديم النفع. لقد احتج الكثير من أهالي هايلي الذين يملكون أجهزة مذياع على أشعة «س» في المستشفى الذي يُفسد استقبالهم الصباحي، لكن، لم يُتخذ أي إجراء مع أن الكثيرين شعروا بأن من المخزي ألاّ يستعمل المستشفى جهازه في وقت لا يستعمل الناس فيه أجهزة مذياعهم.

وفي حوالي الوقت الذي أصبح من الضروري قفل المذياع، دخلت الأخت سيسليا.

سأل السيد فرايزر:

ـ كيف حال كايبتانو يا أخت سيسليا؟.

ـ أوه. إنه سيء جداً.

ـ هل فقد عقله؟.

ـ لا، لكنني أخشى أن يموت.

ـ كيف حالك؟.

ـ أنا قلقة جداً عليه، هل تعرف بأن أحداً لم يزره على الاطلاق؟. قد يموت

ككلب بسبب إهتمام كل أولئك المكسيكيين به. إنهم رهيبون حقاً.

- هل تريدين المجيء لسماع المباراة بعد ظهر اليوم؟.

قالت:

- أوه. لا. سانفعل جداً. سأكون في الكنيسة لأصلي.

قال السيد فرايزر:

- يجب أن نسمعها بوضوح. سيلعبون في الساحل وسيوصلها فرق التوقيت متأخرة على نحو يسمح لنا بالتقاطها بوضوح.

- اوه. آه، لا أستطيع هذا. كادت بطولة العالم أن تقضي عليّ. حين كان دور الضرب لنادي «اثليتيكس» كنتُ أصلي بصوت عالٍ: «أوه يا إلٰهي، وجِّه عيونهم الضاربة! آه يا إلٰهي، ليسجل أحدهم رمية صائبة! أوه يا إلٰهي ليسددوا ضربة بأمان!». وحين احتلوا القواعد في الشوط الثالث كان ذلك أكثر مما يمكنني احتماله، كما تذكرون: «أوه، يا إلٰهي ليضربها خارج أرض الملعب. أوه يا إلٰهي، ليقذف بها فوق السياج دون أن يعيقها عائق». وأنتم تعرفون بأن دور الضرب قد حل لصالح نادي «كاردينال»، وساء الحال إلى حد رهيب. «أوه يا إلٰهي، أعمِ أبصارهم عنها. أوه يا إلٰهي لا تدعهم حتى يلمحوها. يا إلٰهي لتَطُش ضرباتُهم». وهذه المباراة أسوأ. إنها نوتردام. سيدتنا. لا، سأكون في الكنيسة. من أجل سيدتنا. إنهم يلعبون من أجل سيدتنا. أتمنى لو كتبتَ شيئاً في وقت ما من أجل سيدتنا. يمكنك فعل هذا. أنتَ تعرف بأنك يمكنك فعل هذا يا سيد فرايزر.

قال السيد فرايزر:

- أنا لا أعرف شيئاً عن اللعبة حتى أكتب عنها. سبق وكُتب عنها كل شيء تقريباً. لن تحبي الطريقة التي أكتب بها. وهي لن تهتم بما أكتب أيضاً.

قالت الأخت:

- ستكتب عنها أحياناً. أعرف بأنك ستفعل هذا. يجب أن تكتب عن سيدتنا.

- يحسن أن تصعدي وتسمعي المباراة.

- سيكون هذا فوق طاقتي. لا، سأكون في الكنيسة أفعل ما أستطيع فعله.

كانت قد مضتْ خمس دقائق بعد ظهر ذلك اليوم وهم يلعبون حين دخل أحد الناقهين الغرفة، وقال: «تريد الأخت سيسليا أن تعرف كيف تسير المباراة؟».

- أخبرها بأنهم في حالة هبوط.

وبعد فترة وجيزة دخل الناقِهُ الغرفةَ مرة أخرى.

قال السيد فرايزر:

- قل لها بأنهم يلعبون لإنهائهم.

وبعد فترة قصيرة، قرع الجرس لاستدعاء الممرضة التي كانت في نوبة عمل في الطابق الأرضي: «هل لكِ أن تذهبي إلى الكنيسة أو ترسلي بكلمة إلى الأخت سيسيليا تبلغها بأن نوتردام تغلّبوا عليهم بأربع عشرة نقطة مقابل لا شيء في نهاية الربع الأول وبأن الأمور تسير على ما يرام. بوسعها الكفّ عن الصلاة».

وبعد دقائق معدودة، دخلت الأخت سيسيليا الغرفة. كانت منفعلة جداً، «ماذا تعني أربع عشرة مقابل لا شيء؟ أنا لا أعرف شيئاً عن هذه اللعبة. ذلك تَقَدم آمن وجيد في البيسبول. لكنني لا أعرف شيئاً عن كرة القدم. قد لا تعني شيئاً. سأعود إلى الكنيسة مباشرة وأصلي حتى تنتهي».

قال فرايزر:

- لقد هزمْوهم. أُعدكِ بأنهم سيهزموهم. إبقي واسمعي معي.

قالت:

- لا. لا. لا. لا. لا. لا. لا. سأذهب الآن إلى الكنيسة مباشرة لأصلي.

وأخذ فرايزر يرسل خبراً إليهما كلما سجّل فريق نوتردام هدفاً، وأخيراً أرسل النتيجة النهائية بعد مضي وقت طويل على حلول الظلام.

- كيف حال الأخت سيسليا؟.

قالت:

- كلهم في الكنيسة.

ودخلت الأخت سيسليا الغرفة في الصباح التالي، كانت مسرورة جداً وعظيمة الثقة بنفسها.

قالت:

- كنتُ أعرف بأنهم لن يستطيعوا أن يهزموا سيدتنا. لم يستطيعوا. وتحسنت حال كاييتانو أيضاً. إنه أحسن كثيراً. وسيستقبل زوّاراً. لن يستطيع رؤيتهم بعد، لكنهم سيحضرون وهذا سيحسّن حاله ويؤكد له بأن أهله لم ينسوه. لقد ذهبتُ ورأيت أوبريين ذلك في مركز الشرطة وطلبتُ منه أن يرسل بعض المكسيكيين لزيارة كاييتانو المسكين، إنه لأمر شرير ألّا يحضر أحد ليراه.

في حوالي الساعة الخامسة من عبد ظهر ذلك اليوم، دخل ثلاثة مكسيكيين الغرفة.

سأل أكبرهم حجماً وكانت له شفتان غليظتان وكان سميناً تماماً:

ـ أتسمحون؟.

أجاب السيد فرايزر:

ـ لِمَ لا؟ اجلسوا أيها السادة. هل تشربون شيئاً؟.

قال الضخم:

ـ شكراً جزيلاً.

قال أدكنهم سمرة وأصغرهم حجماً:

ـ شكراً.

قال النحيل:

ـ لا، شكراً، إنها تصعد إلى رأسي.

ونقر على رأسه.

أحضرت الممرضة بعض الكؤوس. قال السيد فرايزر: «أرجو أن تعطيهم القنينة».

قال موضحاً: «إنها من ريد لودج».

قال الضخم:

ـ نوع لودج الأحسن. أفضل بكثيرَ من بيج تيمبر ذلك.

قال أصغرهم حجماً:

ـ هذا واضح. وتكلّف أكثر أيضاً.

قال الضخم:

ـ لرِيد لودج أسعار مختلفة.

سأل الشخص الذي لم يشرب:

ـ كم انبوباً للمذياع؟.

ـ سبعة.

قال:

ـ جميل جداً. كم يكلف؟.

قال السيد فرايزر:

ـ لا أعرف. إنه مُستأجَر.

ـ أنتم أيها السادة أصدقاء كاييتانو؟.

قال الضخم:

ـ لا. نحن أصدقاء الشخص الذي جرحه.

قال أصغرهم:

ـ أرسلتنا الشرطة إلى هنا.

قال الضخم:

ـ لدينا محل صغير، هو وأنا.

مشيراً إلى الشخص الذي لم يشربْ.

ـ وهو يملك محلاً صغيراً أيضاً.

مشيراً إلى الشخص الصغير الأسمر.

ـ قالت لنا الشرطة بأننا يجب أن نأتي ـ فجئنا.

ـ أنا سعيد لمجيئكم.

قال الضخم:

ـ ونحن كذلك.

ـ هلّا شربتم كوباً صغيراً آخر؟.

قال الضخم:

ـ لِمَ لا؟.

قال الأصغر:

ـ عن اذنك.

قال النحيل:

ـ لا أريد، إنها تصعد إلى رأسي.

قال أصغرهم:

ـ إنها رائعة جداً.

سأل فرايزر الشخص النحيل:

ـ لِمَ لا تجرب بعضه، ليصعد القليل إلى رأسك؟

قال النحيل:

ـ بعد ذلك يأتي الصداع.

سأل فرايزر:

ـ ألا تستطيعون إرسال أصدقاء كاييتانو ليزوروه؟.

ـ ليس له أصدقاء.

ـ لكل إنسان أصدقاء.

ـ هذا الشخص، لا.

ـ ماذا يشتغل؟.

ـ إنه لاعب ورق.

ـ هل هو ماهر؟.
ـ أعتقد هذا.
قال الأصغر:
ـ مني أنا، ربح مائة وثمانين دولاراً. والآن، لم يعد في العالَم مائة وثمانون دولاراً.
قال النحيل:
ـ مني أنا، ربح مائتين وأحد عشر دولاراً. ركِّز ذهنك على ذلك الرقم.
قال السمين:
ـ لم ألعب معه إطلاقاً.
اقترح السيد فرايزر:
ـ لا بد أنه غني جداً.
قال المكسيكي الصغير:
ـ إنه أفقر منا. لا يملك سوى القميص الذي على لحمه.
قال فرايزر:
ـ وذلك القميص قليل القيمة الآن. مقطّع ومهلهل.
ـ هذا واضح.
ـ مَنْ أطلق عليه النار، كان لاعب ورق؟.
ـ لا، كان عامل شمندر، كان لا بد أن يترك المدينة.
قال الأصغر:
ـ فكر في هذا. كان أحسن عازف قيثارة في هذه المدينة. أجملهم عزفاً.
ـ يا للعار.
قال الأضخم:
ـ أعتقد هذا. يا للطريقة الرائعة التي يلمس بها القيثارة.
ـ لم يبق عازفو قيصارة مهرة.
ـ حتى ولا شبح عازف قيثارة.
قال الرجل النحيل:
ـ هناك عازف أكورديون له قيمة.
قال الضخم:
ـ هناك قليل من الناس يعزفون على آلات مختلفة. تحب الموسيقى؟.
ـ كيف لا أحبها؟.
ـ سنأتي ذات ليلة مع آلاتنا الموسيقية؟ هل تعتقد بأن الأخت ستسمح بهذا؟ تبدو

ودودة جدا؟ .

ـ أنا متأكد من أنها ستسمح بهذا حين يصبح كاييتانو قادراً على سماعها.

سأل النحيل:

ـ هل هي مخبولة قليلاً؟ .

ـ مَنْ؟ .

ـ تلك الأخت.

قال السيد فرايزر:

ـ لا. إنها امرأة رائعة عظيمة الذكاء والعطف.

قال النحيل:

ـ أنا لا أثق بكل القسس والرهبان والأخوات.

قال أصغرهم:

ـ كانت لديه تجارب سيئة حين كان يافعاً.

قال النحيل بفخر:

ـ لقد كنتُ قندلفتاً. والآن أنا لا أومن. كما لا أذهب إلى صلاة الأحد.

ـ لماذا؟ أتصعد إلى رأسك؟ .

قال النحيل:

ـ لا. الكحول هي التي تصعد إلى رأسي. الدين أفيون الفقراء.

قال فرايزر:

ـ كنتُ أظن بأن الماريوانا أفيون الشعوب.

قال الضخم:

ـ أدخنتَ الأفيون؟ .

ـ لا.

قال:

ـ ولا أنا. يبدو بأنه سيء جداً. يبدأ به الانسان ثم لا يستطيع الكفّ عنه. إنه رذيلة.

قال النحيل:

ـ كالدين.

قال أصغر المكسيكيين:

ـ هذا الرجل شديد العداء ضد الدين.

قال السيد فرايزر متأدباً:

- من الضروري أن يكون الانسان شديد العداء ضد أحد الأشياء.

قال النحيل:

- أحترِم أولئك الذين يعمر قلوبهم إيمان حتى وإنْ كانوا جهلة.

قال فرايزر:

- حسناً.

سأل المكسيكي الضخم:

- ما الذي يمكننا إحضاره لك؟ أينقصك شيء؟.
- يسرني أن أشتري بعض البيرة إنْ وُجدتْ بيرة جيدة.
- سنحضر بيرة.
- كوب آخر قبل أن تذهبوا؟.
- إنه جيد جداً.
- نحن نسرقك.
- لا أستطيع شربه. إنه يصعد إلى رأسي. ثم أُصاب بصداع سيء ويصيبني مغصٌ في معدتي.
- مع السلامة أيها السادة.
- مع السلامة شكراً.

خرجوا وحل وقت العشاء ثم ظهر بأن المذياع كان في أهدأ حال ممكن وما زال مسموعاً وأخذتْ المحطات تطلق إشارات النهاية حسب هذا الترتيب: دينفير ثم مدينة سولت ليك ثم لوس انجلس وسيتل. لم يكوِّن السيد فرايزر أية صورة عن دينفير من المذياع. كان بوسعه أن يرى دينفير من دينفير بوست ويصحح الصورة من جريدة روكي ماونتين نيوز. كما لم يحس قط بمدينة سولت لايك أو لوس انجلوس مما سمعه عن ذينك المكانين. كل ما أحسَّ به حيال مدينة سولت لايك هو أنها كانت نظيفة، لكنها مملة، إلاّ أن قاعات رقص كثيرة جداً في فنادق كبيرة جداً في لوس انجلوس قد ذُكِرَتْ لإغرائه بزيارتها. لم يكن بوسعه الاحساس بها بالرغم من قاعات الرقص فيها. لكنه عرف سيتل جيداً، وعرف سيارات الأجرة الكبيرة البيضاء (وكل واحدة منها مجهزة بمذياع) والتي ركبها للوصول كل ليلة إلى نزل الطريق الواقع على الجانب الكندي حيث كان يلاحق دورة حفلات المختارات الموسيقية التي كانوا يطلبون سماعها بالهاتف. كان يعيش في سيتل من الساعة الثانية مساء فصاعداً كل ليلة، مستمعاً إلى قطع الموسيقى التي كان يطلبها أناس مختلفو المشارب وكانت واقعية كميناً بولس حيث يترك الساهرون أسرَّتهم كل صباح للقيام

بالرحلة نحو الاستوديو. لقد بدأ السيد فرايزر يغرم بسيتل في ولاية واشنجتون.

* * *

أتى المكسيكيون وأحضروا بيرة لكنها لم تكن جيدة. رآهم السيد فرايزر لكنه لم يحس برغبة في الحديث وحين ذهبوا عرف بأنهم لن يحضروا ثانية. فقد توترت أعصابه ونفر من رؤية الناس وهو على هذه الحال. ساءت أعصابه عند نهاية خمسة أسابيع، وبينما كان يحس بالسرور كان سوء حال أعصابه يستمر طيلة تلك المدة فقد كان ينفر من أن يجبر على اجراء نفس التجربة وهو يعرف النتيجة سلفاً. لقد اجتاز السيد فرايزر حالة كهذه من قبل بأمان. وكان المذياع هو الشيء الجديد الوحيد بالنسبة إليه. كان يستمع إليه طوال الليل، فيخفض صوته إلى درجة أنه كان لا يكاد يسمعه كما كان يتعلم أن يستمع إليه دون تفكير.

* * *

دخلتْ الأخت سيسليا الغرفة في حوالي الساعة العاشرة صباحاً في ذلك اليوم وأحضرتْ البريد. كانت متأنقة جداً، وكان السيد فرايزر يحب أن يراها ويسمعها تتكلم، لكن البريد الذي كان مفروضاً أن يصل من عالم مختلف، كان مهماً.

قالت:

- تبدو أحسن كثيراً. ستغادرنا قريباً.

قال فرايزر:

- نعم. تبدين سعيدة جداً هذا الصباح.

- أوه، نعم. أشعر هذا الصباح كأنني سأصبح قديسة.

أخذ السيد فرايزر على حين غرة بهذا الكلام.

استطردت الأخت سيسليا قائلة:

- نعم. ذلك ما أريد أن أكونه. قديسة. منذ أن كنتُ طفلة صغيرة جداً أردتْ أن أكون قديسة. حين كنتُ فتاة فكرتُ بأنني لو تخليت عن العالم ودخلت ديراً فإنني سأكون قديسة. ذلك ما أردتُ أن أكونه، وذلك ما فكرتُ بأن لا بد أن أفعله حتى أصبح قديسة. توقعتُ أن أصبح قديسة. كنت متأكدة تماماً من أنني سأصبح قديسة. لقد اعتقدتُ للحظة قصيرة جداً بأنني قديسة. كنتُ سعيدة جداً وبدا الأمر بسيطاً جداً وسهلاً جداً. حين استيقظتُ في الصباح توقعتُ أن أصبح قديسة، لكنني لم أصبح كذلك. لم أصبح قديسة قط. أريد أن أكون قديسة. كل ما أريده هو أن أصبح قديسة. ذلك هو ما أردتُه طيلة حياتي. وفي هذا الصباح، أشعر كأنني سأصبح قديسة. أوه، آمل أن أصبح قديسة.

- ستصبحين قديسة. كل شخص يحقق ما يريده. ذلك ما يذكرونه لي دائماً.
- لا أعرف الآن. حين كنت فتاة بدا الأمر بسيطاً جداً. كنتُ أعرف بأنني سأصبح قديسة. وآمنت فقط بأن ذلك يحتاج إلى وقت حين اكتشفتُ بأنه لم يحدث فجأة. يبدو لي الآن بأنه شبه مستحيل.
- أقول بأنَ لديك فرصة جيدة.
- أترى هذا حقاً؟ لا، لا أريد أن أتشجع فقط. لا تشجعني فقط. أريد أن أصبح قديسة. أريد أن أصبح قديسة.

قال السيد فرايزر:

- ستصبحين قديسة طبعاً.
- لا، ربما لن أصبح. لكن، أوه، لو أمكنني فقط أن أصبح قديسة! سأكون سعيدة تماماً.
- لديك فرصة ثلاثة إلى واحد لتصبحي قديسة.
- لا. لا تشجعني. لكن، أوه لو أمكنني فقط أن أصبح قديسة! لو أمكنني فقط أن أصبح قديسة.
- كيف حال صديقك كاييتانو؟.
- ستتحسن صحته، لكنه مشلول. فقد أصابت إحدى الرصاصتين العصب الرئيسي الممتد داخل فخذه وشلّت، تلك الساق. اكتشفوها فقط حين تحسّنت صحته إلى درجة تسمح له بالمشي.
- قد يتجدد العصب.

قالت الأخت سيسليا:

- إنني أصلي لكي يحصل ذلك. لا بد أن تراه.
- ليس عندي الرغبة في رؤ ية أي شخص.
- أنتَ تعرف بأنك تود أن تراه. يمكنهم جره على العجلات إلى هنا.
- حسناً.

* * *

جروه إلى الداخل وكان نحيلاً وجلده شفافاً، وشعره أسود بحاجة إلى قصّ، وعيناه تضحكان، لكن أسنانه كانت سيئة حين يبتسم.

- *Hola amigo! Que tal?.

قال السيد فرايزر:

* بالاسبانية في الأصل: مرحباً يا صاح، كيف حالك؟.

ـ كما ترى. وأنت؟.
ـ حيّ وبرجل مشلولة.
قال السيد فرايزر:
ـ سيء. لكن العصب يمكن أن يتجدد ويصبح قوياً كالحديد.
ـ هذا ما يقولونه لي.
ـ ماذا عن الألم؟.
ـ ليس الآن. كنتُ مخبولاً من الألم في البطن لمدة قصيرة. ظننتُ بأن الألم وحده سيقتلني.
كانت الأخت سيسليا تراقبهما والسعادة تغمرها.
قال السيد فرايزر:
ـ قالت لي بأنك لم تصرخ قط.
قال مستنكراً.
ـ كثير من الآخرين في الجناح لم يصرخوا. ما هي درجة الألم الذي تعاني منه؟.
ـ شديد إلى حد كاف. من الواضح أنه ليس شديداً كألمك. حين تخرج الممرضة كنتُ أبكي مدة ساعة أو ساعتين. إن هذا يريحني. إن أعصابي سيئة الآن.
ـ عندك المذياع. لو كان لديّ غرفة خاصة وجهاز مذياع لبكيتُ وزعقتُ طوال الليل.
ـ أشك بهذا.
ـ طبعاً سأفعل هذا. إنه مفيد للصحة جداً. لكنك لا تستطيع أن تفعل هذا والكثير من الناس حولك.
قال السيد فرايزر:
ـ على الأقل ما زالتْ يداك سليمتين. أخبروني بأنك تكسب عيشك بيديك.
قال وهو ينقر على جبهته:
ـ والرأس. غير أن الرأس لا يعادل تينك اليدَين.
ـ حضر ثلاثة من أبناء بلدك إلى هنا.
ـ أرسلتهم الشرطة ليزوروني.
ـ جلبوا بعضَ البيرة.
ـ من المحتمل أنها كانت سيئة.
ـ كانت سيئة.
ـ في هذه الليلة، أرسلتهم الشرطة ليعزفوا تحت نافذتي.

ضحك، ثم خبط على بطنه:

ـ لكنني لا أستطيع الضحك بعد. فهم أجل محتوم كموسيقيين.

ـ والشخص الذي أطلق النار عليك؟.

ـ أبله آخر. ربحتُ منه ثمانية وثلاثين دولاراً بلعب الورق. هذا مبلغ لا يقتل انساناً من أجله.

ـ أخبرني الثلاثة بأنك كسبتَ الكثير من النقود.

ـ وأنا أفقر من الطيور.

ـ كيف؟.

قال:

ـ أنا مثالي مسكين. وأنا ضحية أوهام.

ضحك، ثم كشّر وخبط معدته:

ـ أنا مقامر محترف لكنني أحبّ أن أقامر. أن أقامر حقاً. قليل من المقامرة عمل ملتوٍ كله. فأنتَ تحتاج إلى الحظ لتقامر مقامرة حقة. ليس لدي حظ.

ـ إطلاقاً؟.

ـ إطلاقاً. فأنا بلا حظ تماماً. اسمع، ذلك الشخص الذي أطلق عليَّ النار. هل يستطيع إطلاق النار؟ لا. أول طلقة أطلقها لم تُصب شيئاً. والثانية اعترضتْ الروسي المسكين. كان ذلك سيبدو حظاً حسناً. ماذا حدث؟ أصابني مرتين في البطن. إنه رجل محظوظ. وأنا ليس لدي حظ. لم يكن ليستطيع إصابة حصان حتى وإنْ كان ممسكاً بركابه. كل ذلك حظ.

ـ ظننتُ بأنه أصابك أولاً ثم أصاب الروسي بعد ذلك.

ـ لا، أصاب الروسي أولاً، ثم أنا بعده. لقد أخطأتْ الجريدة.

ـ لِمَ لم تطلق عليه النار؟.

ـ أنا لا أحمل مسدساً إطلاقاً. لو حملتُ مسدساً فإنني، مع حظي السيء، شأُشنق عشر مرات في السنة. أنا لاعب ورق رخيص، ذلك هو أنا فقط.

كفَّ عن الكلام ثم تابع قائلاً:

ـ عندما أكسب بعض المال أقامر وعندما أقامر أخسر. انسحبتُ في دوريكسب ثلاثة آلاف دولار ودخلت في دوريكسب ستة دولارات. والنرد لصالحي. وذلك أكثر من مرة.

ـ لماذا تستمر في اللعب؟.

ـ إذا عشتُ بما فيه الكفاية فإن الحظ سيتغير. لقد لازمني سوء الحظ مدة خمس

عشرة سنة حتى الآن. لو حالفني الحظ مرة فإنني سأصبح غنياً جداً.

وكشّر قائلاً:

ـ أنا مقامر ماهر، سأستمتع حقاً لو أصبحتُ غنياً.

ـ هل يسوء حظك في كل دورات اللعب؟.

ـ مع كل شيء ومع النساء.

وابتسم ثانية مظهراً أسنانه السيئة:

ـ حقاً؟.

ـ حقاً.

ـ وماذا هناك لتفعله.

ـ الاستمرار، ببطء، وانتظار الحظ ليتغير.

ـ لكن، مع النساء؟.

ـ ليس من مقامر محظوظ مع النساء. إنه كثير التركيز. إنه يعمل ليلاً. حين يجب أن يكون مع المرأة. لا يمكن لرجل يعمل ليلاً أن يتمسك بامرأة لها أية قيمة.

ـ أنتَ فيلسوف.

ـ لا، أيها السيد. أنا مقامر مدن صغيرة. مدينة صغيرة ثم مدينة أخرى وأخرى ثم مدينة كبيرة ثم عَودٌ على بدء.

ـ ثم طلقة في البطن!.

قال:

ـ لأول مرة. حدث هذا مرة واحدة فقط.

قال السيد فرايزر:

ـ أتعبك بالحديث؟.

قال:

ـ لا. لا بد أنني أتعبك.

ـ وساقك؟.

ـ ليس لي كبير نفع من هذه الساق. فأنا بخير بساق أو بلا ساق. سأكون قادراً على توزيع الورق.

قال السيد فرايزر:

ـ أتمنى لك حظاً سعيداً فعلاً، ومن كل قلبي.

قال:

ـ نفس الحظ لك، وأن يزول ألمك.

ـ لن يستمر بالتأكيد. إنه يزول. إنه ليس بذي أهمية.

ـ ليزول بسرعة.

ـ والمك كذلك.

* * *

وفي تلك الليلة، عزف المكسيكيون على الأكورديون وآلات موسيقية أخرى في الجناح وكان العزف مرحاً ووصل ضجيج شهيق وزفير الأكورديون والأجراس وآلات النقر والطبل إلى ممر الجناح. وكان في ذلك الجناح لاعب روديو* حضر إلى المستشفى مكسور الظهر في منتصف الليل بعد أن سقط سقطة عنيفة بعد ظهر يوم حار مترب تحت أنظار جمهور غفير، وكان سيتعلم العمل في صناعة الجلود وتركيب عصي الخيزران للكراسي حين تتحسن صحته ويغادر المستشفى. وكان هناك نجار سقط عن السقالات وكسر كلا كاحليه وكلا معصميه. لقد هبط مثل هرّ لكن دون مرونته. كان يمكنهم تجبيره بالكامل حتى يستطيع أن يعمل ثانية، لكن هذا سيستغرق وقتاً طويلاً. وكان هناك صبي من مزرعة في حوالي السادسة عشرة من عمره، برجل مكسورة جُبِّرت تجبيراً سيئاً وكان سيعاد كسرها. وكان هناك كاييتانو رويز، وهو مقامر مدن صغير برجل مشلولة. وكان بوسع السيد فرايزر أن يسمعهم كلهم من الممر وهم يضحكون ويمرحون مع الموسيقى التي يعزفها المكسيكيون الذين أرسلتهم الشرطة، كان المكسيكيون يتمتعون بوقتهم. فقد دخلوا الغرفة وهم منفعلون جداً ليروا السيد فرايزر وقد كانوا يريدون أن يعرفوا إنْ كان ثمة أي لحن يريدهم أن يعزفوه، كما حضروا طوعاً مرتين أخريين ليعزفوا ليلاً.

وكان السيد فرايزر حين عزفوا لآخر مرة مستلقياً في غرفته والباب مفتوح، فأصغى إلى الموسيقى الصّاجة السيئة، كما لم يستطع منع نفسه من الكف عن التفكير. فحين أرادوا أن يعرفوا ما رغب في أن يعزفوه له، طلب منهم عزف قطعة «كوكاراتشا» التي كانت لها خفة ورشاقة شريرتين كتلكما اللتين لكثير من النغمات التي يتحرق الناس شوقاً لسماعها. عزفوا بصخب وعاطفية. وكان اللحن بالنسبة إلى عقل السيد فرايزر أفضل من أغلب الألحان المشابهة له، إلاّ أن تأثيره كله كان نفس التأثير.

وبالرغم من عرض هذه العاطفية، استمر السيد فرايزر في التفكير. كان في العادة يتجنب التفكير كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، إلاّ حينما كان يكتب، لكنه كان يفكر الآن بأولئك الذين يعزفون وبما كان قد قاله الرجل الضئيل.

* روديو Rodeo مباراة عرض براعة تجري بين رعاة البقر. (المورد).

الدين أفيون الشعوب. لقد آمن ذلكَ الحارس المصاب بعسر الهضم بذلك. نعم، والموسيقى أفيون الشعوب. لم يفكر العجوز الذي يصعد إلى الرأس بذلك. والآن، الاقتصاد أفيون الشعوب. جنباً إلى جنب مع الوطنية التي هي أفيون الشعوب في ايطاليا والمانيا. ماذا عن الجماع الجنسي، هل كان ذلك أفيون الشعوب؟ لبعض الشعوب طبعاً. لبعض أفضل الشعوب. لكن الشراب هو أفيون شعوب مطلق، أوه، أفيون رائع. مع أن البعض يفضل جهاز المذياع، أفيون شعوب آخر، أفيون رخيص يستعمله هو في هذه اللحظة تماماً. ومع هذه الأشياء تندرج المقامرة، كأفيون شعوب، إنْ كان هناك أي أفيون، وواحد من أقدم الأفايين. والطموح كان أفيوناً آخر، أفيون شعوب، مع الايمان بأي شكل جديد لحكومة من الحكومات. ما أدرته هو حد أدنى من الحكومة، حكومة أقل دائماً. والحرية التي آمنا بها، أصبحت الآن اسم منشورات ماك فادين. آمنا بذلك مع أنهم لم يكتشفوا إسماً جديداً لها إلى حد الآن. لكن، ما هو الأفيون الحقيقي؟ ما الذي كان أفيون الشعوب الحقيقي، الفعلي؟ إنه يعرفه تماماً. لقد اختفى الآن تماماً، قاطعاً مسافة قصيرة حول الركن في ذلك الجزء الجيد الاضاءة من عقله والذي كان هناك بعد شرب كأسين أو أكثر من الشراب في المساء، الذي يعرف بأنه كان هناك (لم يكن هناك بالفعل طبعاً). ما الذي كانه؟ كان يعرف تماماً. ما الذي كانه؟ الخبز كان أفيون الشعوب طبعاً. هل سيتذكر ذلك وهل سيؤدي إلى معنى في وضح النهار؟ الخبز أفيون الشعوب.

قال السيد فرايزر للممرضة حين حضرت:

- اسمعي. أدخلي ذلك المكسيكي النحيل إلى هنا هل تسمحين؟.

قال المكسيكي عند باب الغرفة:

- هل أعجبك العزف؟.
- كثيراً جداً.

قال المكسيكي:

- إنه لحن تاريخي. إنه لحن الثورة الحقيقية.

قال السيد فرايزر:

- اسمع. لماذا لا بد أن تُجري العمليات الجراحية على الشعوب بلا مخدّر؟.
- لا أفهم.
- لِمَ لا تكون كل أفايين الشعوب جيدة؟ ما الذي تريد أن تفعله بالشعوب؟.
- يجب إنقاذهم من الجهل.

ـ لا تتكلم هراء. التعليم أفيون شعوب. لا بد أن تعرف ذلك. فلديك القليل.
ـ أنتَ لا تؤمن بالتعليم؟.

قال السيد فرايزر:

ـ لا. بالمعرفة، نعم.
ـ أنا لا أتابعك.
ـ أنا لا أتابع نفسي بسرور في أحيان كثيرة.

سأل المكسيكي بقلق:

ـ تريد سماع معزوفة الـ «كوكاراتشا» مرة أخرى؟.

قال السيد فرايزر:

ـ نعم. أعزف الـ «كوكاراتشا» مرة أخرى. إنها أفضل من المذياع.

فكر فرايزر: الثورة ليست أفيوناً، الثورة تطهير، نشوة، يمكن إطالتها فقط بالطغيان. الأفايين هي لما قبل ولما بعد. كان يفكر تفكيراً حسناً، تفكيراً حسناً جداً إلى حد ما.

فكر: سيذهبون بعد وهلة وسيأخذون معهم الـ «كوكاراتشا». ثم سيلقي نظرة سريعة على القاتل العملاق، ويشغِّل المذياع، يمكنك تشغيل المذياع بصوت خافت جداً إلى درجة أنك لا تكاد تستطيع أن تسمع إلّا بصعوبة.

آبـــاء وأبنـــاء

كانت هنـاك علامـة تحـويلة في وسـط شارع هذه المـدينة الصغيرة الرئيـسـي ، لكن الـواضـح أن السيـارات اجتـازت الطـريق ظنـاً منهـا أنـه كان تحت بعض التصليح واستُكمـل، وتـابـع نيكـولاس آدمـز قيـادة سيـارتـه عبر المدينة في الشارع الخاوي المرصوف بالطوب حتى أوقفته اضواء المرور المومضة مضيئةً ومنطفئةً في يوم الأحد هذا الخـالي من حركـة المـرور، والتي ستُـزال في السنـة القـادمـة حين لا تُسـدَّد الدفعات على الجهاز، وتابع السير تحت أشجار المدينة الصغيرة الكثيفة التي هي جزء من قلبـك إنْ كانت المـدينـةُ مدينتُـك ومشيتَ تحت هذه الأشجـار، لكن هذه الأشجـار كانت ، بالنسبـة إلى غريب عن المـدينـة ، كثيفـة جداً حتى أنهـا تحجب الشمس وترطب البيوت ، وتابع السير مبتعداً عن آخر بيت واندفع على الطريق العام الذي أخذ يعلو وينخفض باستقامة إلى الأمام وقد أحاط به طين أحمر شُقّ شقاً دقيقاً إلى الأيـام وأشجـار حديثـة النمـو على أشجـار قديمـة من كلا الجـانبين . لم تكن المنطقـة موطنـة ، لكن الـوقت كان في منتصف الخـريف فكـانت كل هذه المنطقة الـريفيـة صالحـة لقيادة السيارة خلالها ومشاهدتَها . كان القطن قد جُني بينما كانت ثمة بقع ذرة في الأراضي المكشوفة ، وكان بعضها قد قُطع مخلّفاً آثار ذرة السيرغوم الحمـراء كمـا لاحـظ نيـك وهـو يقود سيارته بيسـر وابنه ينام على المقعد إلى جانبه ، بسبب سفرهما طيلة النهار، عارفاً المدينة التي سيصل إليها لقضاء الليل ، الحقول التي ينمـــو فيهـا فول الصـويـا أو البـازلاء ، وكيف كانت الأجمـات والأرض مجنيـة المحـاصيـل تمتـد ، وأين كانت الأكـواخ والبيوت بالنسبة إلى الحقول والأجمات ، متجـولاً في الـريف في ذهنـه وهـو يمـر بـه ، قائسـاً كل أرض مكشـوفة ليضع الطُعم ويختبىء محدداً أين تجد سربَ طيور وأي طريق ستطير فيه هذه الطيور.

فأنتَ لا بد أن تكـون بين السُمّـان ومخبأهـا المعتـاد حين تصطـادهـا ، فهي ستندفع نحوك ، حين تكتشفها الكلاب أو حين ترفرف هي بأجنحتها ، فيرتفع بعضها طائراً عالياً ويسفّ بعضها قرب أذنيك ، آزّة في حجم لم تَرَها عليه في الهواء من قبل وهي تمر بك ، فيكون التصرف الوحيد أمامك هو أن تستدير وتتلقاها وهي تبتعد قبل أن تُعـدَّ أجنحتهـا وتنـدفـع إلى داخـل الأجمة مكوّنة زاوية أثناء طيرانها . وفيما كان نيكولاس آدمز يجول في هذه المنطقة الريفية بحثاً عن طِيور السُمّان كما علّمه أبوه ، أخـذ يفكـر بأبيـه . حين بدأ يُفكـر بأبيـه ، كانت عينا أبيه أول ما فكر فيهما . فأنت لا

تفكر أبداً بهيكله الضخم ولا بحركاته السريعة ولا بكتفيه العريضين ولا بأنفه الأقنى الصقري ولا بلحيته التي تغطي الذقن الضعيفة. أنتَ تفكر دائماً بعينيه. كانتا محميَّتين في رأسه بتشكيل الحاجبين، وكانتا مستقرتين على عمقٍ كبير كأنه كان حماية خاصة أُستنبط من أجل جهاز بالغ القيمة. إنهما تريان من مسافة طويلة وبأسرع مما تستطيع العين البشرية أن ترى وكانتا أعظم هبة لدى والده. كان أبوه يرى كما يرى كبش كبير القرنين كصقر تماماً.

حين كان يقف مع أبيه على أحد شواطىء البحيرة، وكانت عيناه قويتان جداً حينذاك، كان أبوه يقول: «طارتْ فوق العَلَم». لم يكن نيك يرى العلم على عموده. وكان والده يقول: «ها هي اختك دوروثي، لقد رفعتْ العلم وهي تسير على الرصيف».

كان نيك ينظر عبر البحيرة ويرى خط الشاطىء الطويل المكسو بالغابة، والأشجار العالية خلفه، ولسان البر الذي يحمي الخليج، وتلال المزرعة المكشوفة، وبياض كوخهم بين الأشجار، لكنه لم يكن بوسعه أن يرى عمود العلم، أو أي رصيف، كان يرى فقط بياض الشاطىء ومنحنى الشاطىء.

- أترى الغنم على سفح التل نحو لسان البر؟.

- نعم.

كانت بقعة مبيضة قليلاً على خضرة التل الرمادية.

قال أبوه:

- أستطيع أن أعدّها.

كان أبوه عصبياً جداً ككل الرجال الذين يتمتعون بقدرة تفوق الحاجات البشرية. وكان عاطفياً أيضاً، وقاسياً ومتعسفاً ككل العاطفيين. كما كان يعاني من سوء الطالع كثيراً، كما لم يكن ذلك ناتج عن خطة. فقد مات في فخ ساعَدَ هو نفسه قليلاً في نصبه، وكان الجميع قد خانوه بطرقهم المختلفة قبل أن يموت. فالعاطفيون يُخانون مرات عديدة. لم يتمكن نيك من الكتابة عنه إلى حد الآن، مع أنه سيفعل هذا فيما بعد، لكن رفيف طيور سُمَّان الريف جعلته يتذكره كما كان حين كان نيك صبياً وكان عظيم الامتنان له لأمرين اثنين: صيد السمك والرماية. كان أبوه قديراً في هذين المجالين قدر عدم قدرته في الجنس، مثلاً، وكان نيك سعيداً لأن الأمر سار على ذلك النحو، فلا بد أن يعطيك شخص ما بندقيتك الأولى أو الفرصة للحصول عليها واستعمالها، كما لا بد أن تعيش حيث تكون طرائد أو أسماك إنْ كان لا بد أن تتعلم عنها، وها هو الآن وقد بلغ الثامنة والثلاثين وهو يحب

صيد الأسماك وصيد الحيوانات تماماً كما أحبها حين خرج مع والده لأول مرة. كانت عاطفة لم تضعف اطلاقاً وكان عظيم الامتنان لوالده لأنه انشأه على معرفتها.

أما الأمر الآخر الذي لم يكن والده قديراً فيه، فأنت مزوّداً بكل المعدات التي ستكون لديك في حياتك كما أن كل رجل يتعلم كل ما يتحتم عليه معرفته عنه بلا أية فضيحة: ولا يشكل المكان الذي تعيش فيه أي فرق. تذكر بوضوح تام المعلومتين اللتين قدمهما له أبوه حول ذلك الموضوع ففي أحد الأيام وحينما كانا يصطادان معاً، أطلق نيك النار على سنجاب أحمر وهو على شجرة شوكران. فسقط السنجاب جريحاً، لكنه عضه في ضرة إبهامه حين أمسك به نيك.

قال نيك:

- اللوطي الصغير القذر.

وضرب برأس السنجاب على الشجرة وهو يقول:

- أنظر كيف عضني.

نظر أبوه وقال:

- مصه ونظفه وضع عليه بعض اليود حين نصل إلى البيت.

قال نيك:

- اللوطي الصغير.

سأله أبوه:

- أتعرف ما تعني كلمة لوطي؟.

قال نيك:

- إننا ندعو أي شيء باللوطي.

- اللوطي هو الذي يعاشر الحيوانات جنسياً*.

قال نيك:

- لماذا؟.

قال أبوه:

- لا أعرف لكنها جريمة بشعة.

أثار هذا خيال نيك وأرعبه وفكر بحيوانات مختلفة لكن، لم يبدُ أي حيوان منها جذاباً أو عملياً وكان ذلك كل ما أورثه أبوه له من معرفة جنسية مباشرة ما عدا موضوع آخر. ففي صباح أحد الأيام قرأ في جريدة بأن انريكو كاروزو قُبض عليه

* على القارىء أن يلاحظ أن المعلومات التي قدّمها أبوه له خاطئة في هذه النقطة والنقطة التالية الخاصة بالمغني كاروزو. (المترجم).

وهو يهرس.

ـ ما هو الهرس؟.

أجابه أبوه:

ـ واحدة من أبشع الجرائم!.

صوّر خيال نيك المغنيّ صاحب الصوت التينور* العظيم يمارس شيئاً غريباً، ومستهجناً وشنيعاً بمهراس بطاطا مع سيدة جميلة شبيهة بصور آنا هيلد داخل صناديق السيجار. فقرر، وهو يحسّ بالرعب، أنه سيحاول الهرس لمرة واحدة على الأقل حين يكبر إلى حد كاف.

وقد لخص أبوه الموضوع برمته بقوله أن العادة السرية تؤدي إلى العمى والجنون والموت، بينما يُصاب الرجل الذي يخرج مع المومسات بأمراض تناسلية بشعة وأن ما لا بد أن تفعله هو أن تنفض يديك من الناس كلهم. ومن جهة أخرى، كان لأبيه أجمل عينين رآهما في حياته، وقد أحبه نيك حباً عظيماً ولمدة طويلة. والآن وبعد أن عرف كيف كانت الأمور، وحتى بعد أن تذكر الأيام السالفة، وقبل أن تسوء الأمور لم يكن ما تذكره جيداً. لو كتب عنها لتخلّص منها. فقد تخلّص من أمور كثيرة بالكتابة عنها. لكن الوقت كان ما زال مبكراً لذلك. لا يزال هناك الكثير جداً من الناس. لذلك قرّر أن يفكر في شيء آخر. لم يكن هناك ما يفعله بخصوص أبيه وفكر بهذا في كثير من الأوقات. لم ينطمس في ذهنه العمل الرائع الذي فعله متعهد الدفن على وجه أبيه، بينما كان كل ما بقي منه واضحاً تماماً، بما في هذا المسؤوليات. لقد حيّا متعهد الدفن. وكان المتعهد فخوراً ومسروراً تماماً. لكن، لم يكن المتعهد هو الذي كان قد أعطاه ذلك الوجه الأخير. لقد قام المتعهد فقط ببعض إصلاحات معيّنة مُنَفَّذة بتهور وذات ميزة فنية مشكوك فيها. فقد كان الوجه يصنع نفسه بنفسه وقد صنع نفسه لمدة طويلة. فقد تشكّل على نحو لا يتغير خلال السنين الثلاث الأخيرة. لقد كانت قصة جيدة إلاّ أن ثمةَ الكثير جداً من الناس الأحياء الذين لا بد أن يكتب عنهم أولاً مما يجعله يؤجل الكتابة عن هذه القصة.

لقد اكتسب نيك ثقافته الخاصة في تلك الأمور المبكرة في غابات الشوكران خلف مخيم الهنود. وكان يوصل إليه ممر يجري من الكوخ خلال الغابة إلى المزرعة وبعد ذلك يلف طريق حول السبخات إلى المخيم. يا ليته يستطيع الآن تحسس ذلك الممر كله بقدمين حافيتين. فهناك أولاً طين أبر الصنوبر في غابة الشوكران خلف الكوخ حيث تفتتت قطع الأخشاب الساقطة إلى غبار خشب وتدلّت

* tenor درجة من درجات الصوت بين مغني الأوبرا من الرجال وهو أعلى أصوات الرجال.

قطع الخشب المشظاة كرماح أصابها البرق. لقد عبرتَ الخليج الصغير على زند خشب ولو أنك خطوت مبتعداً لكان هناك ركام قذارة المستنقع السوداء. وتسلقتَ سياجاً خارجاً من الغابة فكان الممر صلباً تحت الشمس عبر الحقل المغطى بالعشب المقطوع ونبات حمّاض الغنم وآذان الدب النامي وإلى اليسار يقع مستنقع قاع الخليج اللزج حيث يتغذى طير السقساق الأمريكي. وكان بيت الربيع يقع في ذلك الخليج. كما كان تحت الحظيرة سماد طازج دافيء بينما كان السماد الآخر القديم قد شُوي وجفّت قمته. وكان ثمة سياج آخر والممر الصلب الحار من الحظيرة حتى البيت، والطريق الرملي الساخن الجاري هبوطاً إلى الغابة، عابراً الخليج، وعلى جسر هذه المرة، حيث كانت تنمو عشبة البرك التي كنتَ تغمرها بالكيروسين لتصنع منها مشاعل لجذب السمك ليلاً.

ثم يتفرع الطريق الرئيسي إلى اليسار، سائراً بمحاذاة الغابة متسلقاً التل بينما تدخل أنتَ في الغابة على الطين الصلصالي الواسع وطريق الطين الصفحي، ندياً تحت الأشجار. وقد وُسِّع عرضه ليزلقوا عليه لحاء شجر الشوكران الذي يقطعه الهنود. كان لحاء الشوكران مكوّماً في صفوف من أكداس طويلة، مسقوفة بكثير من اللحاء، كالبيوت، بينما زنود الخشب المقشورة ملقاة في أكوام ضخمة وصفراء حيث كانت الأشجار قد قُطعت. لقد تركوا الزنود تتعفن في الغابة، وهم حتى لم يزيلوها من المنطقة ولا حرقوا قممها. لقد كان اللحاء هو ما كانوا يريدونه للدباغة في مدينة بوين، حاملين اياه عبر البحيرة على الثلج في الشتاء، فصارت الغابة تنقص أكثر فأكثر كل سنة كما زادت مساحة السبخات المكشوفة الحارة عديمة الظلال والمكسوة بالأعشاب.

لكن، بقيت غابات كثيرة، غابات عذراء حيث الأشجار تنمو عالية قبل أن تكون لها أية فروع وسرتَ على الأرض السمراء النظيفة المليئة بالأبر الربيعية الخالية من أية أشجار صغيرة وكانت باردة حتى في أشد الأيام حرارة، وهناك تمدد ثلاثتهم متكئين على جذع شجرة شوكران أعرض من سريرين والنسيم يهب عالياً على القمم والضوء الندّي يصل إليهم كبقع، وقال بيلي:

- تريد ترودى ثانية؟.

- تريدين؟.

- أوه هوه.

- لنذهب.

- لا، هنا.

ـ لكن بيلي . .
ـ لا يهمني بيلي . هو أخي .

* * *

بعدئذ، جلسوا ثلاثتهم مصيخي السمع ليحددوا مكان سنجاب أسود في الفروع العلوية حيث لا يمكنهم أن يروه . كانوا ينتظرون أن ينبح ثانية لأنه حين ينبح يهز ذيله فيطلق نيك النار إلى حيث يرى أية حركة . كان أبوه يعطيه ثلاثة خراطيش فقط في اليوم ليصطاد بها، وكانت لديه بندقية بماسورة واحدة طويلة جداً من عيار عشرين .

قال بيلي :

ـ ابن الكلبة لا يتحرك .

قالت ترودي :

ـ أطلق النار يا نيكي، أخِفْه . نراه يقفز . ثم أطلق النار عليه ثانية .

كان كلاماً طويلاً بالنسبة إليها .

قال نيك :

ـ لدي طلقتان فقط .

قال بيلي :

ـ ابن الكلبة .

جلسوا ثانية متكئين على الشجرة وهم هادئون . كان نيك يشعر بالخواء والسعادة .

ـ يقول إيدي بأنه سيحضر في إحدى الليالي لينام مع أختك دوروثي .

ـ ماذا؟ .

ـ هو قال .

هزّتْ ترودي رأسها .

قالت :

ـ ذلك كل ما يريد فعله .

كان إيدي أخاها الأكبر غير الشقيق . كان في السابعة عشرة .

ـ لو أتى إيدي جيلبي في أي وقت ليلاً وحتى ليتكلم فقط مع دوروثي، فأنتِ تعرفين ما سأفعله به . سأقتله على هذا النحو .

أعدّ نيك البندقية ثم جَذَب الزناد وهو لا يكاد يصوّب البندقية، مفجراً حفرة كبيرة بحجم يدكَ في رأسِ أو بطن إيدي جيلبي المهجّن إبن الحرام .

- كذلك. سأقتله كذلك.

قالت ترودي:

- يحسن ألا يأتي إذن.

ووضعت يدها في جيب نيك.

قال بيلي:

- يحسن أن يأخذ حذره.

- إنه مخادع كبير.

كانت ترودي تبحث بيدها في جيب نيك.

- لكن، لا تقتله. ستثير كثيراً من المتاعب.

قال نيك:

- سأقتله على ذلك النحو.

تمدد إيدي جيلبي على الأرض وقد اخترقت صدره كله الرصاصات. وضع نيك قدمه عليه بفخر.

قال بسعادة:

- سأسلخ فروة رأسه.

قالت ترودي:

- لا، ذلك قذر.

- سأسلخ فروة رأسه وأرسلها لأمه.

قالت ترودي:

- أمه ميتة. لا تقتله، يا نيكي. لا تقتله من أجلي.

- بعد أن أسلخ فروة رأسه سأرمي بها إلى الكلاب.

كان بيلي مغتماً جداً وقال بكآبة:

- يحسن أن يأخذ حذره.

قال نيك:

- ستمزقه الكلاب ارباً اربا.

وقد أشاعت الصورة السرور في نفسه. ثم، وبعد أن سلخ فروة رأس ذلك المرتد المهجّن، وقف مراقباً الكلاب تمزقه دون أن يطرأ على وجهه أي تغيير، وسقط إلى الخلف واتكأ على الشجرة، وقد أمسكت ترودي برقبته بشدة، وهي تكاد تخنقه صائحة: «لا. تقتله! لا تقتله! لا. لا. لا. نيكي. نيكي. نيكي».

- ما بك؟.

ـ لا تقتله.
ـ لا بد أن أقتله.
ـ ما هو إلاّ مخادع كبير.
قال نيكي:
ـ حسناً، لن أقتله إلاّ إذا حام حول البيت. أتركيني.
قالت ترودي:
ـ ذلك حسن. أتريد فعل أي شيء الآن؟ أُحس بأنني في حالة جيدة.
ـ إذا ابتعد بيلي من هنا.
لقد قتل نيك إيدي جيلبي، ثم صفح عنه وأبقى على حياته، فأصبح الآن رجلاً.
ـ إذهب يا بيلي. أنت تتسكع طيلة الوقت. إذهب.
قال بيلي:
ـ ابن الكلبة. لقد تعبتُ. لماذا جئنا؟ نصطاد أم ماذا؟.
ـ يمكنك أخذ البندقية. فيها طلقة واحدة.
ـ حسناً. لدي بندقية كبيرة سوداء حقاً.
قال نيك:
ـ سأصرخ.

* * *

وفيما بعد، كان قد مر وقت طويل ظل بيلي خلاله بعيداً.
ـ أتعتقد بأننا سننجب طفلاً؟.
طوت ترودي ساقيها السمراوين بسعادة وتمسحت به. ابتعد شيء داخل نيك منفصلاً بعيداً عنه.
قال:
ـ لا أظن هذا.
ـ ننجب الكثير من الأطفال، ما الجحيم في هذا.
سمعا بيلي يطلق النار.
ـ اتساءل إنْ كان قد اصطاد شيئاً.
قالت ترودي:
ـ لا تُلق بالاً.
أتى بيلي من بين الأشجار. كانت البندقية على كتفه وكان يحمل سنجاباً

أسود من قائمتيه الأماميتين.

قال:

- أنظر. إنه أكبر من قطة. انتهيتما؟.

- أينَ لقيته؟.

- هناك. رأيته يقفز أولاً.

قال نيك:

- لا بد أن نعود إلى البيت.

قالت ترودي:

- لا.

- لا بد أن أذهب إلى البيت للغشاء.

- حسناً.

- أتريد أن تصطاد غداً؟.

- نعم.

- يمكنك أخذ السنجاب!.

- حسناً.

- تخرج بعد العشاء؟.

- لا.

- كيف حالك؟.

- حسن.

- حسناً.

قالت ترودي:

- أعطني قبلة على وجهك.

الآن، وبينما كان نيك راكباً السيارة على الطريق العام والظلام يخيم، انتهى نيك من التفكير في أبيه. نهاية النهار لا تجعله يفكر به اطلاقاً. نهاية النهار دائماً تعود إلى نيك وحده وهو لا يحس بأنه على ما يرام قط إلاّ حين يكون وحيداً في نهاية النهار. كان والده يعود إليه في خريف السنة، أو في بداية الربيع حين تنتشر طيور الشنقب الصغيرة في البراري، أو حين يرى أكوام الذرة، أو حين يرى بحيرة، أو إذا رأى حصاناً وعربة، أو حين يرى أو يسمع الأوز البري، أو في مخبأ بط، متذكراً الوقت الذي يسقط فيه صقر خلال الثلج المدوِّم لضرب شرك مغطى بقماش القنّب، مرتفعاً وأجنحته تخفق، وقد علق مخلبه بالقنّب. وكان أبوه معه فجأة في البساتين

المهجورة والحقول حديثة الحرث، وفي الأجمات، على تلال صغيرة أو حين يسير عبر العشب الميت، حينما يقطع الخشب أو ينقل الماء قرب طواحين الحنطة وطواحين التفاح والسدود مع إشعال النيران في الهواء الطلق دائماً. والمدن التي عاش فيها لم تكن مدناً يعرفها أبوه. فبعد أن بلغ السابعة عشرة من عمره لم يشاركه في أي شيء.

كان الصقيع يتجمع في لحية أبيه في البرد ويعرق بغزارة في الحر. كان أبوه يحب العمل تحت الشمس في المزرعة لأنه لم يكن مضطراً إلى ذلك كما كان يحب العمل اليدوي، والذي لم يكن نيك يحبه. لقد أحبَّ نيك أباه، لكنه كان يكره رائحته، وحين اضطر إلى أن يرتدي ملابس أبيه الداخلية التي ضاقت على أبيه، أثارت فيه الغثيان فخلعها ووضعها تحت حجرين في الخليج وادّعى بأنه فقدها. لقد أخبر أباه بشعوره نحوها حين أجبره على ارتدائها، لكن والده أخبره بأنها غُسلت حديثاً. قد كانت كذلك. وحين طلب من أبيه أن يشمّها، نشقها أبوه بحنق وقال بأنها نظيفة ونقية. وحين عاد نيك من صيد الأسماك بدونها وقال بأنه فقدها ضُرب بالسوط لأنه كذب.

وجلس بعدئذ داخل سقيفة الخشب وبابها مفتوح، وبندقيته محشوّة ومُعَدَّة لإطلاق النار، ناظراً من هناك إلى أبيه الذي كان يجلس في شرفة مدخل البيت يقرأ الجريدة وفكر: «أستطيع تفجيره إلى الجحيم. أستطيع قتله». أحس أخيراً بأن غضبه ينفثىء ثم أحس بغثيان طفيف من البندقية التي أعطاها له أبوه. وبعدئذ، ذهب إلى المخيم الهندي، سائراً في الظلام ليتخلص من الرائحة. كان ثمة شخص واحد في عائلته يحب رائحته، إحدى أخواته. لكنه كان يتجنب كل اتصال بكل الآخرين. لقد تبلّد ذلك الاحساس حين أخذ يدخن. إنها حاسة جيدة. إنها جيدة لكلب سلوقي لكنها لا تفيد الانسان.

- كيف كان الحال يا أبي حينما كنتُ ولداً صغيراً وأخذتَ تصيد مع الهنود؟.

- لا أعرف.

أجفل نيك. لم يكن قد لاحظ بأن الولد كان مستيقظاً. نظر إليه وهو يجلس إلى جانبه على المقعد. لقد أحس بأنه وحيد تماماً مع أن هذا الولد كان معه. تساءل: كَمْ مضى من الوقت؟. قال:

- اعتدنا قضاء طيلة النهار ونحن نصطاد سناجب سوداء. وكان والدي يعطيني كل يوم ثلاث طلقات فقط لأنه قال بأن ذلك سيعلمني الصيد جيداً وبأن من السيء أن يتنقل الصبي من مكان إلى آخر مطلقاً النار طيلة الوقت. كنت أخرج مع ولد يدعى

بيلي جيلبي وأخته ترودي. وقد اعتدنا الخروج كل يوم تقريباً في صيف واحد.

- تلك أسماء مضحكة للهنود.

قال نيك:

- نعم، أليست هي كذلك؟.

- لكن، قل لي، كيف كان شكلهم؟.

قال نيك:

- كانوا من قبيلة أجيب ويز. وكانوا لطفاء جداً.

- لكن، كيف كانت صحبتهم؟.

قال نيك آدمز:

- من الصعب ذكر هذا.

أبوسعِكَ أن تقول بأنها فعلتْ ما لم تفعله أية إنسانة أخرى وعلى نحو أفضل ولأول مرة وبأن تذكر ساقيها السمراوين الريانين، وبطنها المنبسط، ونهديها الصلبين الصغيرين، وذراعيها المتمسكين جيداً، ولسانها الباحث بسرعة، وعينيها المنبسطتين، وطعم فمها الطيب، ثم غير المريح، والمحكم، والحلو، والرطب، والجميل، والمتشدّد، والموجع والمليء، والأخير، واللامنتهي، واللامنتهي أبداً، واللاواصل إلى النهاية أبداً، والمنتهي فجأة، والطائر العظيم الذي يطير كبومة في الشفق، وفي نور النهار فقط في الغابة وقد التصقت إبر الشوكران ببطنك. فحين تذهب إلى حيث كان يعيش الهنود فأنتَ تشمهم وقد رحلوا فلا لا تزيلُ كلُ قناني قاتلة الألم الفارغة ولا الذبابُ الأزرائحةَ العشب الحلو، ولا رائحةَ الدخان ولا الروائح الأخرى الشبيهة بجلد طائر سنونو محنّط منذ وقت قصير. ولن تزيلها أية نكات عنهم كما لن تأخذ الهنديات العجائز تلك الرائحة بعيداً معهن. ولا الرائحة الزكية المثيرة للغثيان التي تنبعث منهن. ولا ما فعلته أخيراً. لم يكن الأمر كيف انتهوا. لقد انتهوا كلهم على نفس النحو. منذ مدة طويلة على نحو جيد. وأصبح الآن غير جيد.

وعن الشيء الآخر، فحين تطلق النار على طير طائر فإنك تطلق النار على كل الطيور الطائرة. فهي كلها مختلفة وتطير بطرق مختلفة لكن الاحساس واحد والطائر الأخير رائع كالأول. بوسعه شكر أبيه على هذا.

قال نيك للولد:

- قد لا تحبهم. لكنني أعتقد بأنك ستحبهم.

- عاش جدي معهم حين كان صبياً أيضاً، أليس كذلك؟.

ـ نعم. حين سألته كيف كانوا، قال بأنه كان له أصدقاء كثيرين من بينهم.
ـ هل سأعيش معهم؟.
قال نيك:
ـ لا أعرف. هذا يعود إليك.
ـ كم سيكون عمري حين أحصل على بندقية واستطيع أن أصيد وحدي؟.
ـ في سن الثانية عشرة إن رأيتُ بأنك حَذِر.
ـ أتمنى لو كنتُ في الثانية عشرة الآن.
ـ ستكون كذلك قريباً.
ـ كيف كان جدي؟ لا أستطيع تذكره، أذكر فقط بأنه أعطاني بندقية هواء وعلماً أمريكياً حين حضرتُ من فرنسا في ذلك الوقت. كيف كان يبدو؟.
ـ من الصعب وصفه. كان صياداً عظيماً وصائد سمك عظيماً وكانت له عينان رائعتين.
ـ هل كان أعظم منك؟.
ـ كان أفضل مني كثيراً بالرماية وكان أبوه رامي جناح عظيماً أيضاً.
ـ أنا متأكد من أنه لم يكن أعظم منك.
ـ أوه. نعم، كان أفضل مني. كان يطلق النار بسرعة وروعة. أفضل أن أراه وهو يطلق النار على أن أرى أي رجل آخر عرفته من قبل. كان دائماً محبطاً جداً من طريقة إطلاقي النار.
ـ لِمَ لا نذهب للصلاة على قبر جدي؟.
ـ نحن نعيش في جزء مختلف من البلاد. إنها منطقة بعيدة جداً عن هنا.
ـ لم يكن ذلك ليشكل فرقاً في فرنسا. كنا سنذهب إليه في فرنسا. اعتقد بأنه لا بد أن أذهب لأصلي على قبر جدي.
ـ سنذهب في وقت من الأوقات.
ـ آمل ألاّ نعيش في مكان لا أستطيع أن أذهب منه لأصلي على قبرك حين تموت.
ـ لا بد أن نرتب هذا.
ـ ألا ترى بأنه يمكن أن نُدفن كلنا في مكان مناسب؟ يمكننا أن ندفن كلنا في فرنسا. سيكون ذلك حسناً.
قال نيك:
ـ لا أريد أن أُدفن في فرنسا.
ـ حسناً، لذلك لا بد أن نجد مكاناً مناسباً في أمريكا. ألا يمكننا كلنا أن نُدفن في

المزرعة؟ .

ـ تلك فكرة .

ـ فيكون بوسعي عندئذ التوقف والصلاة على قبر جدي وأنا في طريقي إلى المزرعة .

ـ أنتَ عمليّ إلى حد بعيد .

ـ حسناً، إنني لا أشعر بالارتياح لأنني لم أزر قبر جدي قط .

قال نيك :

ـ لا بد أن نذهب لزيارته . أرى بأننا لا بد أن نذهب .

المحتويات	صفحة

صدر عن دار النسر للنشر والتوزيع
عمان/ الأردن ص.ب ٩١٠٥٨٦ هاتف/ ٦٥٩٤٦٠

كتب النسر ـ قصص وروايات عالمية

التزجمة الكاملة لروائع الأدب العالمي

١ ـ الخاسر ينال كل شيء	جراهام جرين
٢ ـ الرجل الثالث	جراهام جرين
٣ ـ غيرة	ألان روب جرييه
٤ ـ في الدارة فوق التل	سومرست موم
٥ ـ رجل عجوز	وليم فوكنر (نوبل ١٩٤٩)
٦ ـ لورد الذباب	وليم جولدينج (نوبل ٨٣)
٧ ـ الـورثـة	وليم جولدينج (نوبل ٨٣)
٨ ـ المهر الأحمر	جون شتاينبك (نوبل ٦٢)
٩ ـ كلوديل	أرسكين كالدويل
١٠ـ إنْ كنتَ تملك وإنْ كنتَ لا تملك	ايرنست همنجواي (نوبل ٥٤)
١١ـ وأنا أحتضر	وليم فوكنر(نوبل ٤٩)
١٢ـ رجال بلا نساء(قصص ـ طبعة ثانية منقحة)	ايرنست همنجواي (نوبل ٥٤)
١٣ـ حياة فرانسيس ماكومبير القصيرة السعيدة وقصص أخرى ـ طبعة ثانية منقحة	ايرنست همنجواي

ويصدر عن نفس السلسلة :

ـ في زماننا (قصص طبعة ثانية منقحة)	ايرنست همنجواي
ـ يد الله الأكيدة	ارسكين كالدويل
ـ الحب الزوجي	البرتومورافيا
ـ الجوع	كنوت هامبسون (نوبل ٢٠)

= كما صدرت عن دار النسر: تموجات مهيبة (قصص) تأليف سمير عزت نصار.

أعمال ايرنست همنجواي :

روايـــات :

- دفقات الربيع (١٩٢٦) The Torrents of Spring
- الشمس تشرق أيضاً (المهرجان) The Sun Also Rises (Fiesta)
- وداع للسلاح (١٩٢٩) A Farewell to Arms
- إنْ كنتَ تملك وإنْ كنتَ لا تملك* (١٩٣٧) To have and Have not
- لمن يقرع الجرس (١٩٤٠) For Whom the Bell Tolls
- عبر النهر وبين الأشجار (١٩٥٠) Across the River and in to the Trees
- الرجل العجوز والبحر (١٩٥٢) The Old Man and the Sea
- جزر في التيار (١٩٧٠) Islands in the Stream

قصـــص :

- في زماننا* (١٩٢٥) In Our Time
- رجال بلا نساء* (١٩٢٧) Men Without Women
- حياة فرانسيس ماكومبير القصيرة السعيدة* (١٩٣٩) The Short Happy Life of Francis Macomber and other stories

مسرحية :

- الطابور الخامس (١٩٣٨) The Fifth Column

موضوعات عامة :

- موتٌ بعد الظهر (١٩٣٢) Death in the Afternoon
- تلال افريقيا الخضراء (١٩٣٥) The Green Hills of Africa
- وليمة متنقلة (١٩٦٤) A Moveable Feast

* صدرت هذه الكتب عن دار النسر للنشر والتوزيع / عمان .



هـذه القـصص

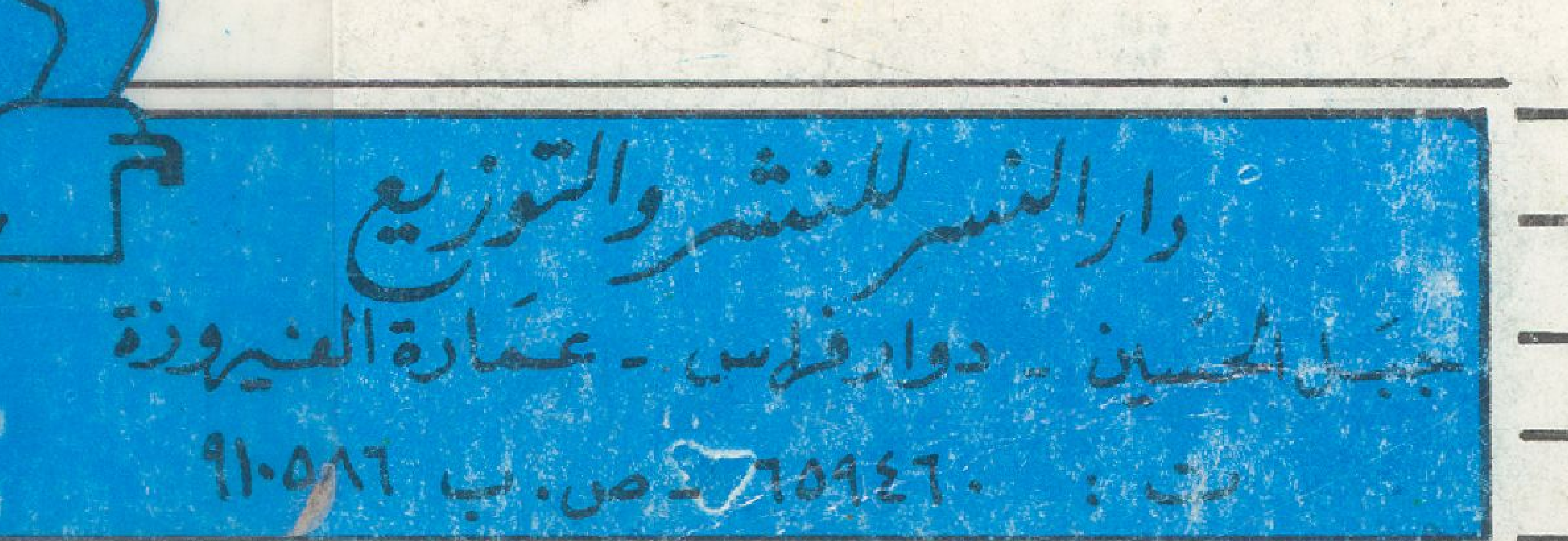
حياة فرانسيس ماكومبير القصيرة السعيدة

تأليف: ايرنست همنجواي

١٩٣٩

تضم هذه المجموعة آخر قصص كتبها همنجواي في حياته، وقد أخذ عنوان المجموعة من قصته الأولى القصيرة الطويلة والتي تدور حول صيد الحيوانات الخطرة: الأسود، الثيران، الخراتيت.. الخ، لكن الغابات والأحراج التي يجري فيها الصيد ليست مجرد مكان تنطلق فيه الرصاصات وتجرى فيه مطاردة الحيوانات المتوحشة المفترسة وقتلها، بل هي مسرح لأحداث انسانية أعمق غوراً من ذلك، فللانسان دور بارز في هذا الجو الصاخب: فهناك علاقة ماكومبير بزوجته، علاقة الرجل بالمرأة، وشخصية ويلسون الصياد المحترف والافريقيون البسطاء، ضحايا الأنسان الأبيض الأوروبي، والخطر والموت والانسان في مواجهة هذا الخطر والموت... الخ. كل هذا يعرضه همنجواي ببساطة ودقة، دون أن يصرح بالحقائق أو يرفعها عالياً كشعارات وأعلام.

اننا نرى همنجواي من خلال قصصه القصيرة البسيطة ـ العميقة، همنجواي الأسلوب السلس، البسيط، كاتب الجمل القصيرة والوصف الدقيق المباشر لعالم زاخر بالاحداث والأفكار، نراه في الحوار الديناميكي الذي يصب في المجرى الرئيسي للعمل القصصي ليكون جزءاً متكاملاً منه، فنكتشف عالمه أمامنا شيئاً فشيئاً من خلال هذه القصص: عالم مواجهة الموت وتحديه أو الاستسلام له: «رجل عجوز عند انجسر»، «انتظار يوم واحد»، «حياة فرانسيس..»، «تاريخ طبيعي..»، عالم الفضاء الفسيح عالم الصيد والقنص وعالم الأنهار والجبال والسهول: «آباء وأبناء»، «حياة فرانسيس..»، «نبيذ وايومنيج». انه عا... أرجائه، لكننا سرعان ما نخرج منه وقد اكتسبنا خبراته وتعمقنا أفكاره بعد... قد عشنا وقائعه وتفاصيله كاملة.



جبل الحسين - دوار فراس - عمارة الفيروزة
ت: ٦٥٩٤٦٠ - ص. ب ٩١٠٥٨٦